

إزالة الشبهات

عن الآيات والأحاديث المتشابهات

تأليف

شيخ الإسلام

الإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد المؤمن

الإسعردي الشافعي المعروف بـ (ابن اللبان)

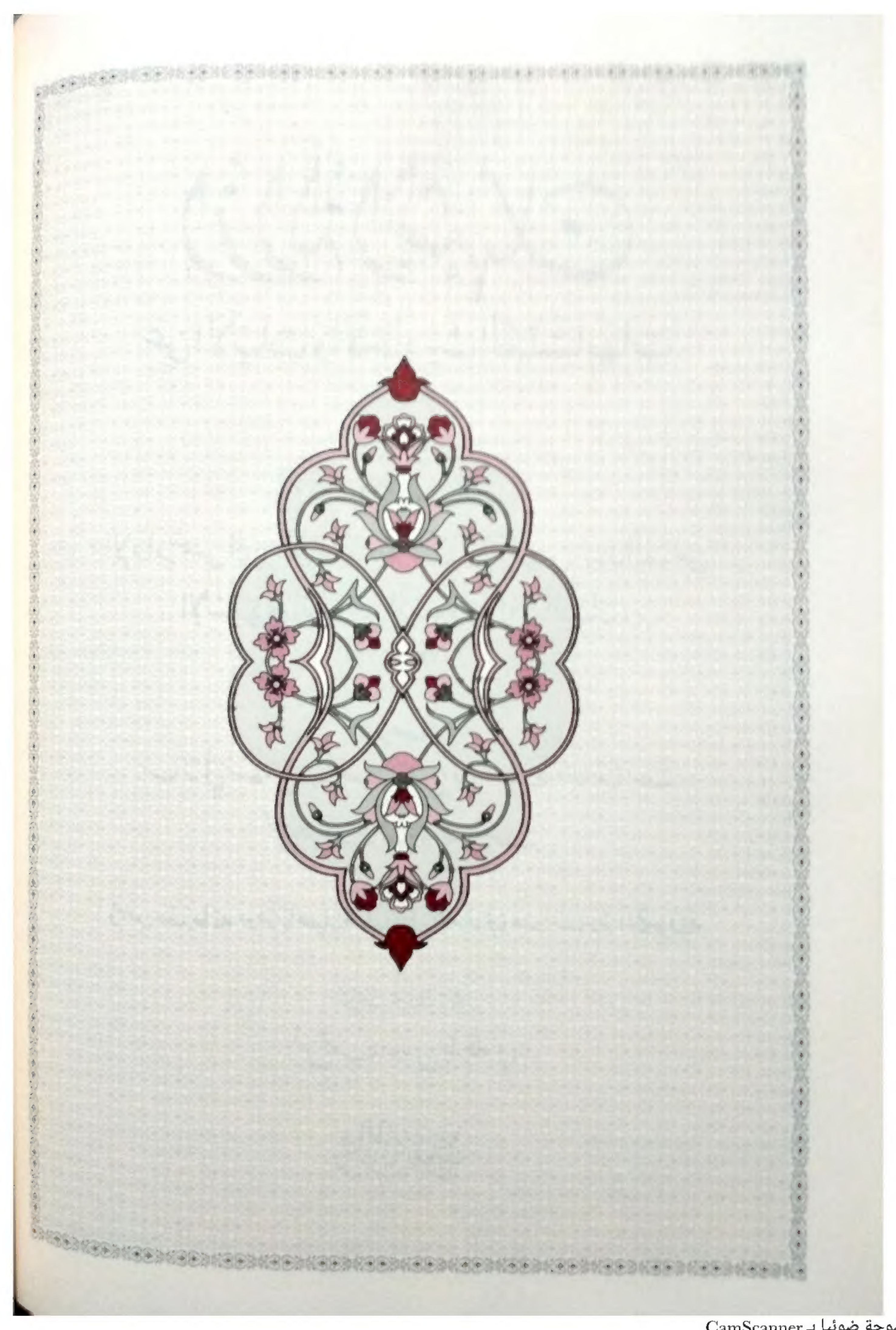
(٦٧٩-٧٤٩هـ)

ومعه

رسالة في سؤال وجواب حول أخذ العهد والاستنابة

على طريقة السادة الصوفية

وضمن مقدماته نواة تأصيلية للتأويل العرفاني عند السادة الصوفية



[مقدمة المؤلف]

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر ولا تعسر يا كريم[1]

أما بعدَ حمدِ الله الواحدِ بذاته وصفاته[2] ، المنزَّهِ في أحديَّته عن مشابهة مخلوقاته ، وصلواتِهِ على سيدنا محمد عبدِهِ ورسوله الموضِح بسنَّته متشابهَ آياته ، الباقي مددُهُ لأوليائه بعد مماتِهِ كما كان لهم في حياته[3] ، وعلى آله

---

(1) في (ب) وحدها جاءت فاتحة الكتاب : (قال الشيخُ العلامة ، شيخ الطريقة ، والجامع بين علم الشريعة والحقيقة ، الإمامُ العارف الرباني ؛ محمدٌ شمسُ الدين الشهير بابنِ اللبَّانِ ، قدَّسَ الله تعالى روحه ، ونوَّرَ ضريحه ، ونفعنا ببركاته ، آمينَ) .

(2) في (د) : وحدها : (الحمدُ لله الواحد. . .) ، وجواب (أما) قوله فيما سيأتي : (فإنك سألتني. . .) .

(3) إشارة لما رواه البزار في « مسنده » (١٩٢٥) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : « حياتي خيرٌ لكم ، تُحدثونَ ويُحدثُ لكم ، ووفاتي خيرٌ لكم ؛ تُعرضُ عليَّ أعمالُكم ، فما رأيتُ مِنْ خيرٍ حمدتُ اللهَ عليهِ ، وما رأيتُ مِنْ شرٍّ استغفرتُ اللهَ لكم » .
فالمقصود بعدم انقطاع المدد النبوي : دوام دعائه صلى الله عليه وسلم لأمته إلى يوم القيامة ، وقد بيَّن ذلك الحافظ المناوي في « فيض القدير » (٣/ ٤٠٠) فقال : (لأن لكل نبيٍّ في السماء مستقراً إذا قبض كما دلت عليه الأخبار ، فالمصطفى صلى الله عليه وسلم مستمر هناك يسأل الله لأمته في كل يوم لكل صنف ؛ فللمتهافتين التوبة ، وللتائبين الثبات ، وللمستقيمين الإخلاص ، ولأهل الصدق الوفاء ، وللصديقين وفور الحظ ، فبيَّن بقوله : « ومماتي خير لكم » عدم انقطاع النفع بالموت ، بل الموت في وقته أنفع ولو من وجهٍ ، ومن فوائده : فتح باب الاجتهاد ، وترك الاتكال ، والمشي على الاحتياط ، وغير ذلك ، =

وصحبه الذين كان أحدُهم إذا زارَهُ في قبره سلَّمَ عليه ورفعَ يديه كما كان يرفعُها عند افتتاح صلاته[١] ، وسلَّمَ تسليماً كثيراً :

[داعية تأليف الكتاب]

فإنَّكَ سألتني ـ أرشدني اللهُ وإياكَ ـ عن أمرٍ عَظُمَ في هـٰذا الزمان خَطْبُهُ ، وعمَّ ضرره[٢] ؛ **وهو ما تظاهرَ به بعضُ المبتدعة المنتسبينَ إلى الحديث والفقه**[٣] ، وأشاعَهُ في العامة والخاصة ؛ من اعتقادِ ظواهر الآيات المتشابهةِ في أسمائه تعالىٰ وصفاته ، **من غير تعرُّضٍ لصرْفِها عمَّا يوهم التشبيهَ والتجسيم**[٤] ، **ويزعم أنه في ذلك متمسِّكٌ بالكتاب والسنة** ، **ماشٍ علىٰ طريقة السلف الصالح**[٥] ، ويشنِّعُ علىٰ من تعرَّضَ لشيء منها بتأويل ، أو صرفَهُ عن

= فزعْمُ البعض أنه لم يَبِنْ له كون موته خيراً . . جمودٌ أو قصور) .

وقد ترىٰ في كلام القوم تفصيلاً في نعوت المدد النبوي غير هـٰذا ، إلا أنها كلَّها ترجع لتوجُّهه صلى الله عليه وسلم إلىٰ مولاه سبحانه ؛ إذ جعله تعالى الواسطة العظمىٰ بينه وبين عباده ، لا لاحتياج ، بل لحِكَمٍ يشير إليها قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام : ٩] .

(١) إشارة إلىٰ ما رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٣٨٦٧) عن عبد الله بن أمامة قال : (رأيت أنس بن مالك أتىٰ قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فوقف فرفع يديه حتىٰ ظننت أنه افتتح الصلاة ، فسلَّم على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم انصرف) ، وفي ثبوت هـٰذه الهيئة من الصحابة الكرام رضي الله عنهم : إثبات إبصاره صلى الله عليه وسلم وهو في قبره الشريف ، كما ثبت سمعه وعلمه بغير هـٰذا الأثر ، وللإجماع علىٰ حياة الأنبياء في قبورهم صلوات الله وسلامه عليهم ، فلم يُسقطوا أدبَ الهيئة .

(٢) في (ج ، د) وقريب منها في (أ) : (ظهوره) بدل (ضرره) ، وفي هامش (ج) نسخة : (ضرره) .

(٣) انظر الحديث عن هـٰذا الخطب الإدِّ ، وعن هـٰذا المبتدع (ص ٣٩) .

(٤) إذ لو عرضَ لذلك لوجب الإعراض عن الردِّ عليه .

(٥) وتيك دعوىٰ يشترك فيها أهل الحقِّ مع جميع الفرق المبتدعة ، ولـٰكن صدقَ البوصيري إذ=

ظاهره بدليل ! وينسبُهُ في ذلك إلىٰ مخالفة الصحابة والتابعين ؛ لكونهم لم ينقل عنهم التعرُّضُ لشيء من ذلك !

وقد ضلَّ وأضلَّ ، وما يُضِلُّ به إلا من هو قاصرُ الفهم ضعيفُ النور .

وحيث سألتني عن ذلك ، ورغبتَ في إملاء شيء عليه[1] . . **فلا بدَّ من الإجابة علىٰ سبيل النصيحة لله تعالىٰ ولرسوله ولأئمَّةِ المسلمين وعامتهم .**

[نعمة القلب السليم]

فاعلمْ ـ أمدني الله وإياك بمدد توفيقه ـ : أن من أجلِّ مِنَح الله تعالىٰ علىٰ عبده طهارةَ قلبه ، وسلامةَ فطرته ، وقلَّةَ منطقه ؛ فإنه بذلك يُلقَّنُ الحكمةَ[2] ، ويسمع هواتفَ الحق في كل نَفَسٍ من أنفاسه ، **ويضيءُ له في ليل المتشابه مصباحُ المحكم** ، فيرسخ قدمُ صِدْقِهِ في معرفة ربه ، ويحيا بلدُهُ الطيب بغيث الهدىٰ والعلم ، فيخرج نباتُهُ بإذن ربه[3] ؛ ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [إبراهيم : ٢٤ـ٢٥] ، ويسلك بنَحْلِ أفكاره سُبُلَ الاستقامة ، فيخرجُ من بطونها شرابٌ مختلف ألوانُهُ فيه شفاء للناس[4] .

= قال في « همزيته » : (من الخفيف)

والدعاوىٰ ما لم تقيموا عليها بيِّناتٍ أبناؤها أدعياءُ

(١) في بعض نسخ الاستئناس : (عليك) بدل (عليه) .

(٢) إشارة إلىٰ ما رواه ابن ماجه (٤١٠١) من حديث سيدنا أبي خلاد رضي الله عنه مرفوعاً : « إذا رأيتم الرجلَ أُعطيَ زهداً في الدنيا ، وقلَّة منطقٍ . . فاقتربوا منه ؛ فإنَّهُ يُلقَّى الحكمةَ » ، وعند أبي نعيم في « الحلية » (١٠/ ٤٠٥) بلفظ : « يلقَّنُ الحكمةَ » ، **ويُلقَّن** : يُؤتىٰ .

(٣) قال عز شأنه : ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف : ٥٨] .

(٤) لا تخفى الاستعارة البديعة المقتبسة من قوله سبحانه ﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ =

[رتبةُ الصحابة العلياء في فهم المتشابهِ من كتاب وسنة]

وقد كان للصحابة رضوان الله تعالىٰ عليهم من هـٰذا المشرب أصفاهُ وأعذبُهُ ، ومن العلم بالكتاب والسنة أزكاه وأطيبُهُ ، وكيف لا يكونون كذلك وقد تُليَتْ عليهم آياتُ الله وفيهم رسولُهُ ، ولهم من الاعتصام بالله ما ضُمنت لهم به الهدايةُ والاستقامة ؟! ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران : ١٠١] .

يَعلمون الناسخَ والمنسوخ بالمعاصرة ، وأسبابَ النزول بالوقائع ، ويفهمون ما أُودع في مواقع التركيب وأساليبِ البيان بالطباع[١] .

يردُّونَ ما اختلفوا فيه إلى الله والرسول ، فيعلمه الذين يستنبطونه منهم ؛ وهم الراسخون في العلم وأولو الأمر ، يتدبَّرونَ القرآن ، **ويردُّونَ المتشابهَ إلى المحكم**[٢] ، ويقولون : آمنَّا به ، كلٌّ من عند ربنا ، فلا اختلافَ فيه[٣] ، ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] .

= ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٦٩] ، وفي سياقه مع هـٰذه الاقتطافات القرآنية . . تنبيه للقارئ لما في كتاب الله من إشارات وتنبيهات مطويات في صدفات آياته الكريمات ، ولا داعي بعد هـٰذا للوقوف مع أصل كل جملة ، فما أكثرها في كلامه !

(١) في (أ) وحدها : (مواضع) بدل (مواقع) ، وفي السياق إشارة لتقديم علوم العربية نحواً وبلاغة ، وعلم الناسخ والمنسوخ ، وعلم أسباب النزول . . على الخوض في فهم الآيات الكريمة .

(٢) في (ج) : (إلىٰ معنى المحكم) بدل (إلى المحكم) .

(٣) **يعني** : لو كان المتشابه على ظاهره ، والمحكم علىٰ ظاهره . . للزم وقوع الاختلاف في كتاب الله تعالىٰ ؛ إذ العبرة في الاختلاف راجعة للمعاني ، ولذا لم يهتبل العلماء باختلاف القراءات في كتاب الله تعالىٰ ، ولم يجعلوه اختلافاً أصلاً .

ولأجل ذلك لم يُنقلْ عنهم اعتناءٌ بإيضاح آيات الأسماء والصفات[1] ، ولا أكثروا السؤالَ عنها ؛ لعدمِ إشكالها عليهم بحسب لغتهم ، ولاتساعِ مجال أفهامهم في معانيها الصحيحة .

وكان من أدبهم رضي الله تعالىٰ عنهم : ألا يثق أحدٌ منهم بفهمه في استيعاب المراد منها ، فسكتوا عنها مفوِّضينَ إلىٰ كلِّ فهمٍ صحيح ما منحه الله تعالىٰ من الاتساع الموافقِ للُّغةِ والآيات المحكمة[2] ؛ كما في « صحيح البخاري » وغيره : عن أبي جُحَيْفَةَ قال : قلت لعليٍّ رضي الله عنه : هل عندكم كتابٌ ؟ قال : لا ، إلا كتابُ الله ، أو فهمٌ أعطيه رجل مسلم ، أو ما في هٰذه الصحيفةِ[3] .

وفي بعض الروايات : (إلا ما يعطيه الله ُعبدَهُ في القرآن)[4] .

[أسبابٌ منعَتْ من فهْمِ المتشابه ، وأدَّت لظهور أرباب البدع]

فلمَّا انقطع بموته صلى الله عليه وسلم عن ظواهر الأسماع مددُ روحِ الوحي ، وعَفَتْ عهودُ الوقائع بانقراض علماء الصحابة ، وضَعُفَ استنباطُ المتشابهِ من المحكم بمخالطة النَبَط ، وانعجمَ المعنى الواضحُ بملابسة

---

(1) وقوله : (اعتناء) بليغ في محله ؛ إذ ليس من مقتضىٰ عدم الاعتناء بالشيء نفيُ أصل وجوده ، بل يحصل بالتتبُّع والإكثار ، ولهٰذا ترىٰ نُتفاً لهم في هٰذا المجال ، تأتي في مواضع من هٰذا الكتاب .

(2) فالتفويض علمٌ ، ولٰكنه لا يمنع من فهومٍ أُخر تكون في النصِّ ، وشرطاه الرئيسان : موافقة المحكم ، وموافقة اللغة العربية .

(3) رواه البخاري (١١١) ، وتمامه : قال : قلت : فما في هٰذه الصحيفة ؟ قال : العقل ، وفكاك الأسير ، ولا يقتل مسلم بكافر .

(4) رواه البخاري (٣٠٤٧) ، ولفظه : (إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن) .

العجم ، وحصل التمريجُ في القلوب فزاغَتْ وحُجبت عن هواتف الغيب[1] ، وكَثُرَ الكلامُ فيما لا يعني فقلَّ إيتاءُ الحكمة[2] . . **هنالك ظهرت أربابُ البدع ، وأشكلَ معنى المتشابه** ، فاتَّبعه مَنْ في قلبه زيغ ، وكاد الأمرُ **يلتبس لولا ما أيدَ الله تعالىٰ به هـٰذه الأمةَ من العلماء الوارثين والسلف الصالحين** ، فنهضوا لمناظرة أرباب البدع وتخطئتهم ، وحلِّ شُبَهِهم ، ونهوا الناسَ عن اتباعهم وعن الإصغاء إليهم ، وعن التعرُّضِ بالآراء للمتشابه ، وحسموا مادةَ الجدال فيه والسؤال عنه ؛ سدّاً للذريعة ، واستغناءً عنه بالمحكم ، وأمروا بالإيمان به ، وبإمراره كما جاء من غير تعطيلٍ ولا تشبيه[3] .

[السكوت والتسكيت انقطع نفعُهُما في هـٰذا الباب]

وكان هـٰذا في عصرهم مغنياً[4] ؛ لولا أنَّ المبتدعة دوَّنوا بدعَهم ، ونصبوا عليها أشراكَ الشُّبَهِ والأهواء المضلَّة ، **فوفَّقَ الله سبحانه الراسخين من علماء السنة ؛ فدوَّنوا في الردِّ عليهم الكتبَ الكلامية** ، وأيَّدوها بالحُجج العقلية ،

---

(١) **التمريج** : الاختلاط والاضطراب ، **وأمر مريج** : مختلط .

(٢) تلك التي نبَّهَ عليها (ص ١١١) بقوله : (يلقن الحكمة) .

(٣) روى البيهقي في « الاعتقاد » (٥٩) عن الوليد بن مسلم قال : (سئل الأوزاعي ومالك وسفيان الثوري والليث بن سعد عن هـٰذه الأحاديث ـ يعني : المتشابهات ـ فقالوا : أمرُّوها كما جاءت بلا كيفية) .

(٤) إذ كانت كلمة العلماء مطاعة ، وليس للنابتة صولة ، فكان التأديب بالطرد والتعذيب فيه كفاية ، وهو ما عمل به سيدنا الفاروقُ عمر في خبره المشهور مع صبيغ ، ومالكُ بن أنس في جوابه للسائل عن الاستواء ، وإلىٰ هـٰذا المذهب مال الإمامُ أحمد بن حنبل ، ولـٰكن لمَّا صار للمبتدعة كلمة تُسمع وحال تُتبع . . **اختار عبد العزيز المكي والحارث المحاسبي وعبد الله ابن كُلاب وجماعة . بَسْطَ الكلام في الردِّ على المبتدعة** ، وانظر « تبيين كذب المفتري » (ص ٢٦١) .

والبراهين المنيرة من الكتاب والسنة ، إلىٰ أن أظهر الله سبحانه الحقَّ علىٰ ألسنتهم ، وقمع أهلَ الباطل والزيغ ، وأطفأ نارَ البِدَعِ والأهواء ، فجزاهم الله تعالىٰ علىٰ نصيحةِ هـٰذه الأمَّةِ أفضلَ الجزاء .

* * *

[إجمال القول في المحكم والمتشابه]

ولنشرعْ في بيان ما سألتَهُ على سبيل الإجمال ، ثم على سبيل التفصيل :

فاعلمْ ـ هداني الله وإيَّاك لما اختُلف فيه من الحق بإذنه ـ : أنَّ ربَّنا سبحانه وتعالى حيٌّ ، متكلِّم ، عالم ، مريد ، قدير[1] ، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] ، أحديٌّ فلا أينَ ولا تركيبَ لذاته ، أزليٌّ فلا كيف ولا ترتيبَ لصفاته ، أبديٌّ فلا تناهيَ لجلاله وإكرامه .

تنزَّهَ في سمعِهِ وبصرِهِ وإدراكِهِ وبطشِهِ عن الجوارح[2] ، وعزَّ في قدرته عن الشريكِ والمعين ، وجلَّ في إرادته عن الأغراض ، وتفرَّدَ في كلامه عن الحروف والأصوات ، وتعالى في استوائِهِ عن النسبة والكون[3] ، وتقدَّسَ في علوِّهِ وفوقيَّته عن الجهات .

ينزلُ بلا نُقْلة ، ويجيء ويأتي بلا حركة ، وتراهُ أبصارُ المؤمنين بلا إدراكٍ ولا إحاطة[4] .

---

(١) استغنى بالآية الآتية عن ذكر السمع والبصرِ وعن عدِّها في صفات المعاني الواجبة .

(٢) قال حجة الإسلام في (قواعد العقائد) من « إحياء علوم الدين » (١/ ٣٣٦) : (يرى من غير حدقة وأجفان، ويسمع من غير أصمخة وآذان ، كما يعلم بغير قلب، ويبطش بغير جارحة ، ويخلق بغير آلة ؛ إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق ، كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق) .

(٣) تعاليه سبحانه عن النسبة هنا : أن الاستواء الحقيقي نسبةٌ بين المستوي والمستوى عليه على هيئة مخصوصة ، وفي (أ ، ج ، هـ ، و) : (التشبيه) بدل (النسبة) ، والكون عندهم - وهو من جملة الأعراض ـ له أشكال أربعة ؛ وهي : الحركة والسكون ، والاجتماع والافتراق ، ومولانا لا يتصف بشيء منها .

(٤) قوله : (ولا إحاطة) عطف تفسير لقوله : (بلا إدراك) إذ الرؤية نوع إدراك قطعاً .

لا حدَّ لقُرْبه ، ولا ميلَ لِحُبّه[١] ، ولا سوْرة لغضبه[٢] ، ولا كيف له في رضاهُ وضحكِهِ .

لا شفعيّةَ إلا بمعيّته[٣] ، ولا وتريّةَ إلا بظهور قهره وأحديّته[٤] ، ولا بقاء إلا لأهل عنديّته .

نفسُهُ : ذاتُهُ أو أمُّ كتابه[٥] ، **ووجهُهُ** : نورُ توحيده عند إقباله[٦] ، **وصورتُهُ** : مظاهرُ تعرُّفاته وظُلَلُ غمامه[٧] ، **ويدُهُ ويداه وأيديه** : أسماءُ حقائقَ

---

(١) قال الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٦٤٩) : (**محبة الحق سبحانه للعبد** : إرادته لإنعام مخصوص عليه ، كما أن رحمته إرادة الإنعام ، فالرحمة خاصٌّ من الإرادة ، والمحبة أخصُّ من الرحمة ؛ فإرادة الله أن يوصل إلى العبد الثواب والإنعام . . تسمىٰ رحمة ، وإرادته لأن يخصه بالقربة والأحوال العلية . . تسمىٰ محبة) .

(٢) **السَّوْرة** : الحِدَّة ، وفي (ب) ونسخة في (ج) : (صورة) بدل (سورة) ، فالغضبان تحمرُّ عيناه وتنتفخ أوداجه ، تعالىٰ مولانا عن صورة ذلك كله ، أما تجلي غضبه في صورة يخلقها يوم القيامة أو في الدنيا . . فلا إشكال فيه .

(٣) هٰذه الشفعية هي المشار إليها بقوله سبحانه : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ [المجادلة : ٧] .

(٤) المشار إليها فيما رواه البخاري (٣١٩١) من حديث سيدنا عمران بن الحصين رضي الله عنهما مرفوعاً : « كان اللهُ ولم يكن شيءٌ غيرُهُ » ، أو بلطفه وتأنيسه ، وذاك فيما رواه البخاري (٣٦٥٣) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً : « ما ظنُّك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما ؟! » .

(٥) سيأتي زيادة بيان لذلك (ص ١٣٥) ، والمعتمد جواز إطلاق النفس والذات على الله تعالىٰ ، وكلمة (الأم) في اللغة تطلق ويراد بها الأصل أو محل جمع الشيء وجملته ، واختار الإمام الرازي في « تفسيره » (١٩ / ٥٢) أن المراد بأم الكتاب هو علم الله تعالىٰ ، وهو صفته ، والصفة لا تنفك عن الموصوف ، وعلمه من حيث وجوده هو ذاته ، ومن حيث معناه غيره ، ولذلك قال العارف الحاتمي في « الفتوحات المكية » (٣ / ١٦٠) : (اعلم : أن الحقَّ هو على الحقيقة أمُّ الكتاب) .

(٦) **من ذلك** : موطن الصلاة ؛ إذا ناجى العبد مولاه بقوله : وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض ، وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٤٥٧٤) عن عبد الله بن منقذ قال : (إذا قام الرجل إلى الصلاة أقبل الله عليه بوجهه ، فإذا التفت أعرض عنه) .

(٧) **المظاهر** : التجليات ، وهي مخلوقة في قلب العبد عند إدراكه لها ، ومرجع التعرُّفات =

يتصرّفُ بها في مخلوقاته . **وعينُهُ وأعينُهُ** : آياتُهُ المبصرةُ القائمة بالحفظ والرعاية للمخصوصين من عباده[1] . **وقدمُهُ** : قدم الصدق الذي يبشِّرُ به المؤمنين[2] . **وجنبُهُ** : صحبتُهُ وكلاءتُهُ للذاكرين من أتباع النبيِّين[3] .

وهو الأوَّلُ والآخر ، فما من عرضٍ ولا جوهرٍ إلا وهو مبدوء بأوَّليته ، مختومٌ بآخريته ، وهو الظاهرُ بحُكْمه في محكمه ، الباطن بعلمه في متشابهِ آياته وحِكَمه ، ظهر بمعيّته في باطن وتربيّتِهِ ، فنشأت أعدادُ مصنوعاته ، وبطَنَ بقدم أحديَّته في أسماء الحوادث ، فرجعت بحقائق هُويَّاتها إليه ، ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود : ١٢٣] .

لا شريكَ له في ملكه وهو يُؤتي الملكَ من يشاء ، ولا مثلَ له في كُنْهِهِ وله المَثَلُ الأعلىٰ ، تقدَّسَ عن النظير في الدنيا والآخرة ، ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيمة : ٢٢ـ ٢٣] ، وتنزَّهَ عن الجهات ، ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ [الأنعام : ٣] ، وتعالىٰ عن الشبيهِ وله الآياتُ المتشابهات ، يجتني معانيها أهلُ قُرْبه في رياض جنانِ ذكره ، ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥] .

هٰذا ما فتحَ اللهُ به علىٰ سبيل الإجمال .

* * *

= للأسماء العلمية الإلـٰهية ، وهي كظُلَلِ الغمام حاجبةٌ عن حقيقة كنهِ الذات التي لا سبيل للتعرُّف عليها عند المحققين .

(١) قوله : (المبصرة) علىٰ صيغة اسم الفاعل ، وسيأتي التنبيه عليه (ص ١٩١) .

(٢) في قوله سبحانه : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس : ٢] .

(٣) قارن هـٰذا السياق بمقدمة إمام الحرمين في « غياث الأمم » (ص ٥) ، ومقدمة الإمام الرازي في « تأسيس التقديس » (ص ٤٣) .

[تفصيل القول في المحكم والمتشابه]

[ذكر قاعدة كلية في الكلام على المتشابه]

وأمّا علىٰ سبيل التفصيلُ : فلنقدمْ عليه مقدمة تكون بمثابة القاعدةِ والتمهيد له ؛ وهو أنه ليس في الوجود فاعلٌ إلا اللهُ سبحانه[1] ، وأفعالُ العباد بجملتها ـ عندَ أهل السنة والجماعة ـ منسوبةُ الوجود والاختراع إلى اللهِ تعالىٰ[2] ، بلا شريكٍ ولا معين ، فهي على الحقيقة فعلُهُ ، وله بها عليهم الحجة ، ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[3] [الأنبياء : ٢٣] .

---

(١) تزعج هـٰذه المقدمةُ المشبهةَ ؛ إذ يرون أن الأثر يمكن أن ينشأ عن مؤثرين ، فالشبع أثرٌ ناشئ عن مجموع فعل العبد (أكله ومضغه وابتلاعه للطعام) وفعل الله تعالىٰ (ما جعله الله تعالىٰ في الإنسان وفي الغذاء من القوى المعينة علىٰ حصول الشبع) ، وينعتون هـٰذا بالقول الوسط بين أهل السنة والقدرية ! انظر « درء تعارض العقل والنقل » (٩/ ٣١) .

(٢) وعند القدرية ترجع إلى المباشرة أحياناً ، وإلى التولد والاعتماد أحياناً أُخر ، وعند المشبهة ترجع إلىٰ مجموع القدرتين القديمة والحادثة ، وهو قول إلى القدرية أقرب منه إلىٰ أهل السنة كما ترىٰ .

(٣) دفع بهـٰذه الجملة وهـٰذه الآية الكريمة ما قد يقال : إن كان كل ما في الوجود فعله فلِمَ يعاقب العاصي علىٰ معصيته ؟ والجواب : أن ذلك كثواب الطائع علىٰ طاعته ، ألا ترىٰ أن الشرع بيَّن أن الطاعة ليست سبباً لحسن الجزاء فيما رواه البخاري (٥٦٧٣) ، ومسلم (٢٨١٦) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « ما من أحدٍ يدخلهُ عملهُ الجنَّةَ » ، وكذلك المعصية ، فالجنة فضل ، والنار عدل ، وثبتت الحجة على العبد بوجدانه من نفسه ما يوافق إرادة ربه .

[تجلِّيات الصفات له تعالىٰ تظهر بمظهرين]

ومن المعلوم : أن أفعالَ العباد لا بدَّ فيها من توسُّط الآلات والجوارح مع أنها منسوبةٌ إليه تعالىٰ ، وبذلك تعلمُ أن لصفاته تعالىٰ في تجلياتِها لعباده مظهرينِ :

- مظهرٌ عاديٌّ سفلي منسوبٌ لعباده : وهو الصُّوَر والجوارح الجسمانية .

- ومظهرٌ حقيقيٌّ علوي منسوبٌ إليه : وقد أجرىٰ عليه أسماءَ المظاهر السفلية المنسوبة لعباده علىٰ سبيل التقريب لأفهامهم والتأنيس لقلوبهم[1] .

ونبَّهَ تعالىٰ في كتابهِ على القسمين ، وأنَّهُ منزَّهٌ عن الجوارح في الحالين .

فنبَّهَ على الأول بقوله تعالىٰ : ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [التوبة : ١٤] ، وذلك يفهمُ أن كلَّ ما يظهر علىٰ أيدي العباد فهو منسوبٌ إليه وفعلٌ له ، وأن جوارحَنا مظهر له وواسطةٌ فيه ، فهو على الحقيقة الفاعلُ بجوارحنا ، مع القطع الضروريِّ لكلِّ عاقل أن جوارحَ العبد ليست جوارحَ

---

(١) يتضمَّن هـٰذا التنبيه : أن ما تراه من الفعل الجاري علىٰ أيدي الحوادث أيّاً كانت.. فهو فعل الله تعالىٰ ، لا شريك له في إيجاده ، وليس للحادث منه إلا نصيب الصورة الحادثة المشاهدة ، أما مصوِّرها وموجدها فهو القديم المنزَّه عن الاتصاف بها ، فهـٰذا المظهر السفليُّ تكون النسبةُ فيه للحادثات الهالكات ؛ وذاك قوله تعالىٰ : ﴿ قَٰتِلُوهُمْ ﴾ ، ثم نبَّهَ على كونها محض صورة بقوله جل وعز : ﴿ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ . فإن علمت ذلك : فيجب عليك أن تعطيَ كلَّ ذي حق حقه ، فالصفة الحادثة تلحقُها بالحوادث ، وما يليق بجلال القديم ومن التنزيه والتعظيم فهو صفته ، والحديث عن التجلِّيات في الصورة عند المصنف أمر مهمٌّ ، من تعدَّاه من غير تحقيق زلَّت به قدمه .

وقوله : (وقد أجرىٰ عليه أسماءَ المظاهر السفلية المنسوبة لعباده..) بيَّن فيه أن المظهر الحقيقي حقيقةٌ مسمَّاة بأسماء المظاهر العادية السفلية ، ومن هنا حصل التشابه ، فالاشتراك لفظي ليس غيرُ .

لربِّنا تعالىٰ ، ولا صفاتٍ له تعالىٰ[1] .

ونبَّهَ على الثاني بقولِهِ فيما أخبر به عنه نبيُّهُ صلى الله عليه وسلم في « صحيح مسلم » وغيره : « ولا يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتَّىٰ أحبَّهُ ، فإذا أحببتُهُ كنتُ سمعَهُ الذي يسمعُ بهِ ، وبصرَهُ الذي يبصرُ بهِ ، ويدَهُ التي يبطشُ بها ، ورجلَهُ التي يمشي بها . . . » الحديثَ[2] .

وقد حقَّقَ الله تعالىٰ لنبيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ بعد قوله تعالىٰ : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ . . . ﴾ الآيةَ [التوبة : ١٠٣-١٠٤] ، وبقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح : ١٠] ، فنزَّلَ يدَ نبيِّهِ صلى الله عليه وسلم منزلةَ يدِهِ سبحانه في المبايعة وأخْذِ الصدقات ، والرمْيِ في قوله سبحانه : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال : ١٧] .

وذلك كلُّهُ يفهِمُ : أن العبدَ إذا صار محبوباً صارت أفعاله ناشئةً عن أنوار علويَّةٍ روحانية من عند ربه تكون له بمثابة الجوارح[3] ، وأن اللهَ سبحانه يكونُ

---

(١) وبه تعلم : أن القدرة القديمة أثرها لا في محلِّها ، خلافاً للقدرة الحادثة .

(٢) إنما رواه البخاري (٦٥٠٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وسيأتي شرح الحديث .

ويتضمَّن هـٰذا التنبيه : أنه تعالىٰ هو القيوم الذي قامت بقدرته الحادثات ، بل هو الحق وما سواه باطل ، وأنه يجب عليك أن تعلم : أنه لا يجوز لك الوقوف معها ، بل ترجع بمظاهرها إلىٰ مُظهِرها الأوحد سبحانه .

(٣) وإلىٰ هـٰذه الأنوار الإشارة بدعائه عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخاري (٦٣١٦) ، ومسلم (٧٦٣) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « اللهم ؛ اجعل في قلبي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وفي سمعي نوراً . . . » الحديث ، وفي (ج) : (كانت) بدل (صارت) .

له بواسطتها سمعاً وبصراً ويداً ورِجْلاً ، مع القطع الضروريّ أن الله سبحانه وتعالىٰ لا يكونُ جارحةً لعبده .

[التمثيل لما سبق بالقلب وجنوده]

ولٰكنَّ سرَّ الأمر في تحقيق ذلك : أن الله جلَّتْ حكمته ضربَ لنفسه في دوائر ملكه مثلاً بالقلب في دائرة بَدَنِهِ ، ومن المعلوم لكلِّ أحد أن المتصرِّف في دائرة بدنه هو قلبه ، ونوره شاملٌ لجميع أجزائه ، وروح الحياة منه شائعةٌ في سائر أقطاره ، وأن الجوارح مظاهرُ لأنوار القلب وتصرُّفاته ؛ فبنوره تبصرُ العين ، وتسمع الأذن ، ويَشَمُّ الأنف ، ويذوق اللسان وينطق ، وتلمس الجوارح وتبطش ، مع العلم الضروريّ بأن الجوارح صفاتٌ للبدن ، وليست صفاتٍ للقلب ، ولا تعلُّق لها به ، ولا تنسبُ إليه إلا نسبة الأتباع والعبيد للملك المُطاع[١] .

[القلب بين عالمي الغيب والشهادة]

ثم إنَّ القلب إنْ غلب عليه التوجُّهُ إلىٰ عالم الشهادة . . تصرَّفَ بالجوارح ؛

---

(١) أعظمْ بهٰذا المثال ، واعلم : أن المبصِر في الإنسان حقيقته ، والعين آلة لهٰذا الإبصار ، وكذا يقال في سائر الجوارح ، فهي كالجوارح للصائد ، لا يحلُّ الصيد إلا إذا نُسِبَ الصيد إليه ، فإن أكلت منه صار خبيثاً له حكم الميتة .

فقولك : (رأَتْ عيني) مجاز ، والحق : رأيتُ بعيني ، وحق الحق : أراني ربي ، ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم : ٣٨] .

ثم القلب في هٰذا المثال وفيما سيأتي المرادُ منه حقيقة الإنسان ، لا تلك القطعة اللحمية الصنوبرية التي يشارك فيها الإنسانُ الدوابَّ ، بل ما يُوصف بالسعادة والشقاء .

وقد نبَّهَ الإمام المؤلف بقوله : (مع العلم الضروري بأن الجوارح صفات للبدن) على أن الألفاظ الدالة على الجوارح إذا أضيفت للحق تعالىٰ . . فهي صفات ، لا أبعاض .

فصار يرىٰ بالعين ، ويسمعُ بالأذن ، ويبطش باليد ، فهو مثلُ قوله تعالىٰ :
﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [التوبة : ١٤] .

وإنْ غلبَ على القلب التوجُّهُ إلىٰ عالم الغيب . . استتبعَ الجوارح ، فصارت هي متصرِّفةً به ، فتصير العينُ تبصر بالقلب ، وكذلك باقي الحواسِّ والجوارح ، وهو مثلُ قوله تعالىٰ : « كنتُ سمعَهُ الذي يسمعُ بهِ . . . » إلىٰ آخره ، فافهمْهُ فإنه بديع ، وسيأتي إن شاء الله تعالىٰ في التفصيلِ ما يؤيِّدُهُ ويزيده وضوحاً .

وبهـٰذا : يتَّسعُ لك فهمُ ما جاء من الجوارح منسوباً إلىٰ أفعاله تعالىٰ وصفاته ، فلا تشتبهُ بعدَ هـٰذا عليك ، ولا تفهمُ من نسبتها إليه تشبيهاً ولا تجسيماً ، بل تفهمُ أن مثلَ النسبة إليه كمثل نسبةِ الجوارحِ إلى القلب ، وأن ذاته المقدسةَ متعاليةٌ عن الاتصاف بها ؛ لأن الجوارحَ يلزمها الحدوث ، وذاته تعالىٰ واجبةُ القدم ، وكلُّ ما كان واجبَ القدم استحالَ عليه العدم .

وإنَّما الروحُ الأصلي الذي هو منشأُ عالم الأمر هو مصباحُ نور التوحيد[١] ؛

---

(١) وكلَّما اقتربت من هـٰذا المصباح اتَّضحت لك الرؤية ، فإن صار قلبك محلاً لنور التوحيد فقد صار مصباحاً في مشكاة المعرفة الإلـٰهية ، ويقول إمامنا الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٦/ ٦١٧) في بيان عالم الأمر : (العالم عالَمان : عالم الأمر ، وعالم الخلق ؛ ولله الخلق والأمر .
فالأجسام ذوات الكمية والمقادير من عالم الخلق ؛ إذ الخلق عبارة عن التقدير في وضع اللسان ، وكلُّ موجود منزَّهٍ عن الكمية والمقدار فإنه من عالم الأمر ، وشرح ذلك سرُّ الروح ، ولا رخصةَ في ذكره ؛ لاستضرار أكثر الخلق بسماعه ؛ كسرِّ القدر الذي مُنعَ من إفشائه ، فمن عرف سرَّ الروح فقد عرف نفسه ، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربَّهُ ، وإذا عرف نفسه وربه عرفَ أنه أمرٌ رباني بطبعه وفطرته ، وأنه في العالم الجسماني غريب) ، وفي (ج) : (وهو) بدل (هو) .

قال الله تعالىٰ : ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ [النحل : ٢] ، وبهـٰذا الروح يتجلّىٰ سبحانه وتعالىٰ لعباده بأسمائه وصفاته المحكمةِ والمتشابهة .

[مثال يقرِّب منهم معنى التجلي والتصوُّر]

ومن المعلوم : أنه قد ثبت قوَّةُ التصوُّر في الصور المختلفة للملائكة[١] ، وهم من رقائق هـٰذا الروح[٢] ، فلأَنْ تكون له قوَّةُ التجلِّي بأي صورةٍ شاء.. أولىٰ[٣] ، وتصحُّ نسبةُ تلك الصورة إلى الله سبحانه لتجلِّيهِ فيها باعتبار الدلالة[٤] ، كما سيأتي تحقيقُهُ في صفة المجيء والصورة وغيرهما[٥] .

وهـٰأنا إن شاء اللهُ تعالىٰ أشرعُ في تفصيل الصفات المتشابهة ، وليس المقصود ذكر البراهين التي هي مدونةٌ في الكتب الكلامية ، وإنما المقصود ردُّ

---

(١) في (أ ، ب) : (التطور) بدل (التصور) ، وروى البخاري (٢) من حديث سيدنا الحارث بن هشام رضي الله عنه مرفوعاً : « وأحياناً يتمثَّل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول » ، وروى البخاري (٤٨٥٥) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : (رأىٰ جبريلَ عليه السلام في صورته مرتين) .

(٢) الرقائق : صلات تصلهم بالروح ، وسيدنا جبريل هو الروح الأمين عليهم جميعاً .

(٣) فيه : أنه من باب قياس الغائب على الشاهد الشرعي ، وأنه قياس أولوي لا تظهر علتُهُ ، ولـٰكن يجاب : بأن قياس الغائب على الشاهد قد يكون يقينياً أو ظنياً راجحاً ، والعلة في القياس المذكور الفاعلية والتأثير ، ولا فاعل ولا مؤثر عند أهل الحق إلا الله تعالىٰ ، وفي (ج) العبارة : (فلأن يكون له قوة التجلي والصورة والظهور بأي صورة شاء.. أولىٰ) .

(٤) والتجلي في الشيء مباينٌ في المعنىٰ للحلول فيه ، فالتجلي أشبه ما يكون بظهور الصورة في المرآة عند مقابلتها ، فالمتجلِّي ليس حالاً في المرآة ، ولا المرآة محلاً له ، وستحقق زيادة علم بذلك بالنظر في ثنايا الكتاب .

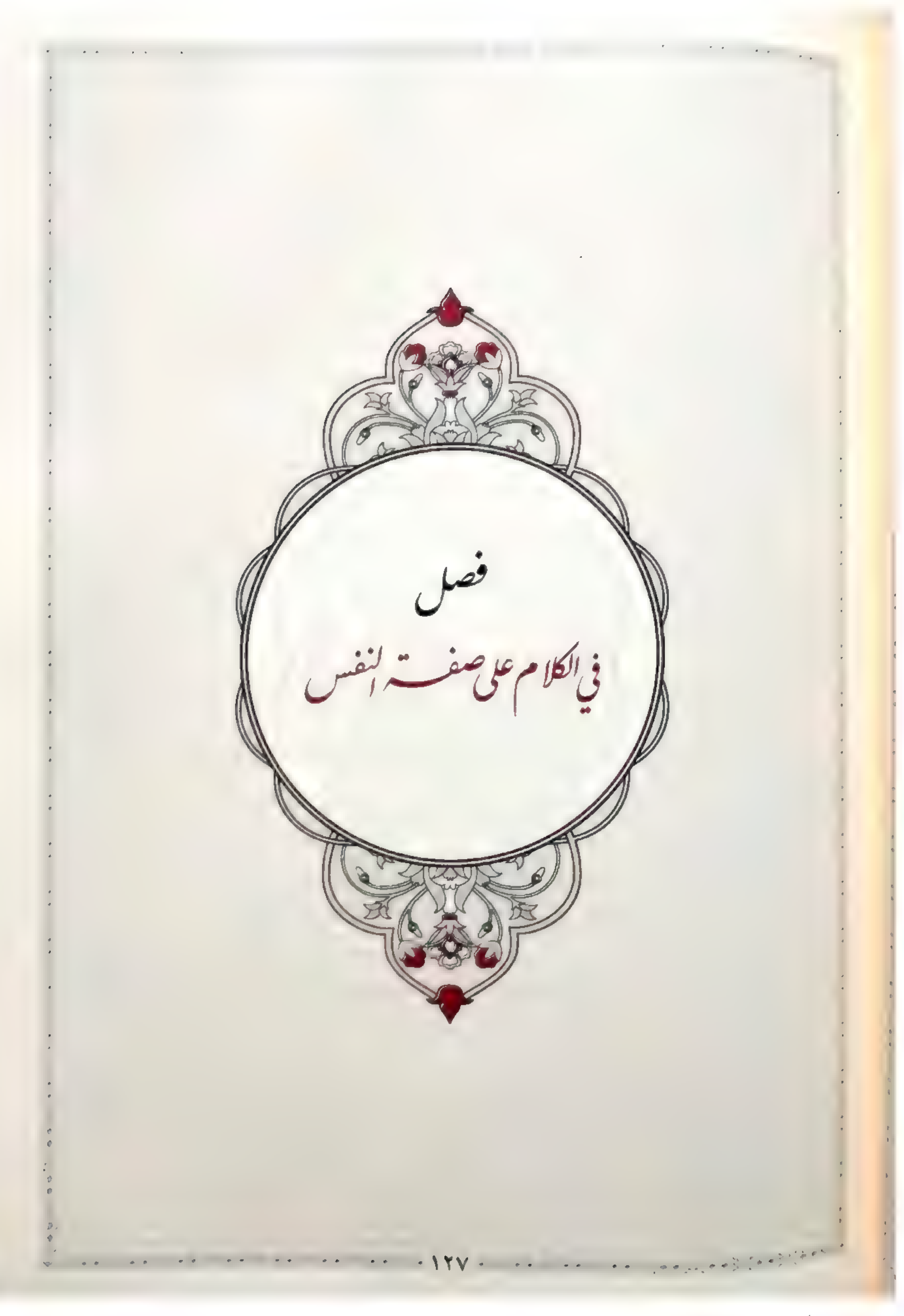
(٥) انظر (ص ١٤٣ ، ٢٩٧) .

المتشابه إلى المحكم على القواعد اللغوية ، وتلويحاتٍ وتصريحاتٍ من الكتاب والسنة .

هٰذا تمامُ المقدمة ، ولنشرعْ في التفصيل ، مع بسْطِ يد الفاقة والافتقار عسىٰ أن يهديَني ربي سواءَ السبيل .

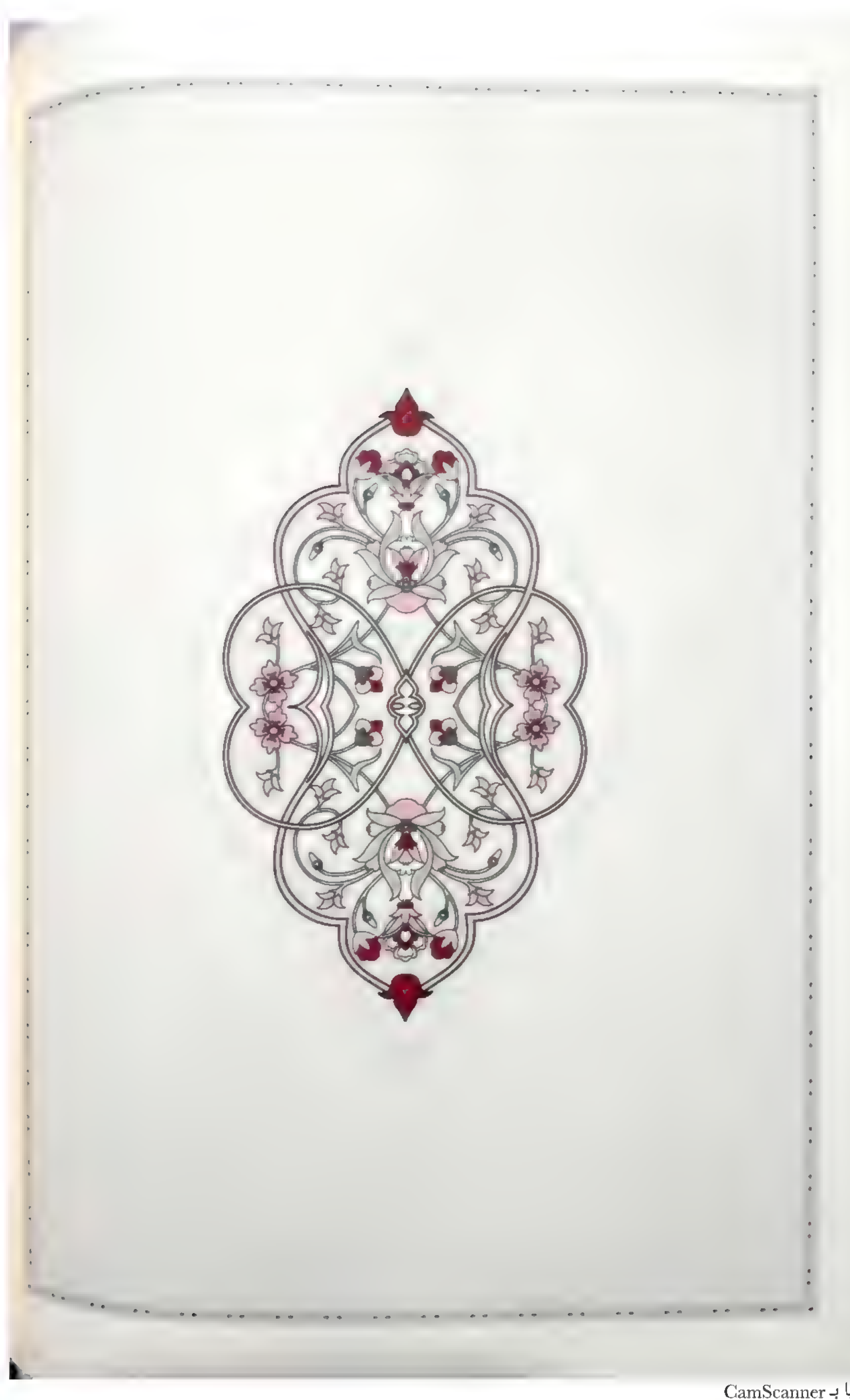
* * *





فصل

في الكلام على صفة النفس



فصل
في الكلام على صفة النفس [1]

من المتشابهِ : صفةُ النفس :

في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ [المائدة : ١١٦] لأن النفسَ في اللغة تستعمل لمعانٍ ، كلُّها تتعذَّرُ في الظاهر ها هنا ، **وقد أوَّلها العلماءُ بتأويلات :**

منها : أن النفسَ عُبِّرَ بها عن الذاتِ **والهُوِيَّة** ، وهـٰذا وإن كان شائعاً في اللغة[2] . . ولـٰكن تعدِّي الفعلِ إليها بواسطة (في) المفيدِ للظرفية محالٌ ؛ لأن الظرفيةَ يلزمُها التركيبُ ، والتركيب في ذاتِهِ مُحال[3] .

وقد أوَّلَها بعضُهم **بالغيب** ؛ أي : ولا أعلمُ ما في **غيبك وسرِّكَ** ، وهـٰذا حسنٌ ؛ لقوله في آخر الآية : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة : ١١٦] ، ولـٰكن لا بدَّ من تخريجه علىٰ ما مهَّدناهُ حتىٰ تنتظمَ أشتاتُ الصفات .

---

(١) ترجع صفة النفس عند عامة المتكلمين إلىٰ صفة الوجود ؛ وهي ثبوت الذات ثبوتاً حقّاً ، وهو الهوِيَّة ؛ وبهـٰذا تعلم أن إطلاق الوصف عليها فيه تسمُّحٌ كما يقولون .
وقد وقع في النسختين (ب ، د) وباقي نسخ الاستئناس تقديم وتأخير في فصول الكتاب ، وتمَّ اعتماد ترتيب النسختين المتطابقتين (أ ، ج)، وانظر جدول هـٰذه الفصول في النسخ (ص ٨٤).

(٢) في (ب ، د ، هـ) : (سائغاً) بدل (شائعاً) .

(٣) كبرىٰ هـٰذا القياس ـ وهي استحالة التركيب على الذات العلية ـ مسلَّمة ، ولـٰكن قد يُنازع في صغراه ؛ إذ الظرفية كثيراً ما تكون مجازية ؛ فلا يلزمها التركيب ؛ من ذلك : ظرفيتها الزمانية في نحو قوله تعالىٰ : ﴿ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ [الروم : ٣ـ٤] ، ومنه : التي بمعنى الباء ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة : ١٧٩] .

وذلك أن الصورةَ إذا كانَتْ ظُلَّةَ غمام آياته.. فنفسُهُ هي أمُّ كتابه[1] ؛ وهي الآياتُ المحكمات ؛ قال اللهُ تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ [آل عمران : ٧] .

والآياتُ المحكمات : هي الآياتُ الدالات علىٰ وحدانيَتِهِ[2] ؛ بدليل قوله تعالىٰ في أوَّلِ سورة (هود) : ﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ . . . ﴾ الآيَةَ [هود : ١] ، ثم فسَّرَ إحكامَها بالتوحيد في قولِهِ سبحانه : ﴿ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ ﴾ [هود : ٢] ، وفسَّرَ تفصيلَها بالاستغفار والتوبة في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ ﴾ [هود : ٣] .

ونبَّهَ علىٰ أن آياتِهِ المحكمةَ يرجعُ أعدادُها إلىٰ آية واحدةٍ محكمة ؛ وهي : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد : ١٩] ، فما من علمٍ من العلوم في الغيب ولا في الشهادة إلا وهو منتظمٌ في سلك (لا إلهَ إلا اللهُ) ، مستثمَرٌ من ثمار أسرارها[3] ؛ ولهـٰذا اكتُفي بعلمِها للنبيِّ صلى الله عليه وسلم إحكاماً وتفصيلاً في قولِهِ تعالىٰ[4] : ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ . . . ﴾ الآيَةَ [محمد : ١٩] .

---

(١) انظر ما تقدم (ص ١١٧) ، وفي (ج) : (ليست) بدل (إذا كانت) .

(٢) لا خلاف عند الأصوليين أن الآيات الدالة علىٰ وحدانيته سبحانه وعلىٰ وجوده.. هي من المحكمات الجليات التي لا تقبل نسخاً ولا تأويلاً ، وتخصيص الإمام المؤلف هنا مشهدٌ له رحمه الله تعالىٰ ؛ إذ من المحكم عند الأصوليين : الإخبار بما كان وما سيكون ؛ لاستحالة الكذب في حقه سبحانه وامتناع التغيُّر في مدلولاتها ، وبه تعلم : أن تعريف المحكم هنا ليس علىٰ طريقة الأصوليين .

(٣) كما سيأتي قريباً من أن ثمرة كون سيدنا عيسىٰ علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام لم يوادد أحداً من الذين عبدوه وعبدوا أُمَّه.. أنه أُيِّدَ بروح القدس .

(٤) في (ب) ونسخة هامش (أ ، ج) : (إجمالاً) بدل (إحكاماً) ، والمثبت ألصق بالسياق .

تنبيه

[علىٰ تلطُّف سيدنا عيسىٰ عليه الصلاة والسلام في مخاطبة مولاه سبحانه]

قولُهُ تعالىٰ : ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة : ١١٦] إذا خرَّجتَهُ علىٰ هـٰذا .. تَطَّلِعُ علىٰ أسرارٍ بديعة ؛ وذلك أن السياقَ اشتملَ علىٰ سؤال عيسىٰ عليه السلام عمَّا بلَّغَهُ لبني إسرائيلَ : هل أمرَهم بتوحيد ربِّهم ، أو بأن يعبدوا له ولأمه ؟[1] .

ومن المعلوم : أنه لم يكن أمرَهم إلا بالتوحيد ، فلما أرادَ أن يخبر بذلك تلطَّف بالإخبار به إجمالاً وتفصيلاً :

أما تفصيلاً : فبقولِهِ : ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦ...﴾ الآيةَ [المائدة : ١١٧] .

وأما إجمالاً : فبقولِهِ : ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة : ١١٦] .

فقوله : ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ أي : أمِّ كتابِكَ المشتمل علىٰ سرِّ القدر ؛ فإن القلم جرىٰ فيه بكفرهم .

وقوله : ﴿مَا فِى نَفْسِى﴾ أي : أمِّ كتابي ؛ وهو ما كتبَهُ الله له من بيِّنات التوحيد ، وأيَّدَهُ به من روح القدس ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة : ٢٥٣] .

---

(١) الأصل أن فعل (عبد) يتعدَّىٰ بنفسه .

تبصرة

[في بيان حال المحجوبين من أهل الرئاسة]

شأنُ المحجوبينَ عن الله تعالىٰ من أرباب الرئاسة : موادَدةُ من عبدَهم وعبد أقاربَهم لأجلهم، وأهل القلوب المؤمنة مبرَّؤون من ذلك؛ بمقتضىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ . . . ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

ومن المعلوم : أن عيسىٰ عليه السلام كُتبَ في قلبه الإيمانُ ، وأُيِّدَ بالروح ، فلهٰذا قال : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ ، فقولُهُ : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ﴾ أي : ما كتبتَهُ من الإيمان في قلبي ، وأيَّدتَني به من الروح ، وأن ذلك ثمرةُ كوني لم أوادِدْ هٰؤلاء الذين عبدوني وعبدوا أُمِّي من دونِكَ ، وأنت علامُ الغيوب .

تنبيه

[علىٰ سرِّ القدر المنطوي بين الحقيقة والشريعة]

قوله : ﴿ أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾ ولم يقلْ : أمرتَ به ، مع أن الأمر بالتوحيد لم يُختصَّ به ، بل أُمِرَ به جميعُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . . ولٰكنَّه نبَّهَ بذلك علىٰ سرِّ القدر ، وأن الأمر أمران : أمرُ حقيقة ، وأمرُ شريعة .

فأمرُ الحقيقة : هو المشارُ إليه بقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل : ٤٠] ، وهو متوجِّهٌ إلىٰ جميع الكائنات ، فما من كفرٍ ولا إيمانٍ إلا وهو مأمورٌ به بهٰذا الاعتبار ؛ لأنه لا يكون إلا بأمرِهِ[١] .

---

(١) هٰذا ما يعبِّر عنه المتكلمون بالتعلُّق التنجيزي القديم لصفة الإرادة ؛ إذ الحقُّ أن صفة =

وأما أمرُ الشريعة[1] : فهو الذي رُبطَ به الثوابُ والعقاب ، وقامَتْ به الحجَّة ؛ ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٣] .

فمن هـٰذا : يُفهمُ السرُّ في قول عيسىٰ عليه السلام : ﴿ مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ ﴾ ؛ خصَّصَهُ ـ أي : الأمر ـ بالإضافة إليه ؛ تنبيهاً علىٰ أمرِ الشريعة ، ولم يقل : (أمرتَ) تنبيهاً علىٰ أمرِ الحقيقة .

إشارة

[إلىٰ سرِّ قوله : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾]

لمَّا كان في هـٰذا اشتباهٌ على المحجوبينَ من المعتزلة وغيرِهم ، الذين

= الإرادة قديمة ، وأنها لا تتعدَّدُ ، كما أنه يستحيل تخلُّفها ، والأصحُّ أن تعلُّقاتها التنجيزية قديمةٌ لا حادثة ، ولـٰكن مشى الإمام المصنف هنا علىٰ أن تسمية هـٰذه الصفة بالأمر ، وما عليه المتكلمون أن الأمر راجعٌ لصفة الكلام ، وليست صفة الكلام من صفات التأثير (الإرادة والقدرة) ، فلهـٰذا لا توصف بالتخلُّف أصلاً ، وقوله تعالىٰ : ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ [قٓ : ٢٩] القولُ فيه أيضاً راجع للإرادة القديمة . ثم الأمرُ عند المتكلمين هو ما سيأتي بقوله : (أمر الشريعة) ، وبه تعلم : أن الله قد يأمر ويقع المأمور لسبق الإرادة المشار إليها وإلىٰ تعلُّقاتها ، وقد يأمر ولا يقع المأمور أيضاً لسبق الإرادة ، فليس ثَمَّ خلاف معتبرٌ أصلاً ، إلا أن علماء العقيدة حقَّقوا ودقَّقوا في الاصطلاح ، ودليل ذلك : أنه سيأتي للمصنف ردٌّ على المعتزلة الذين لم يفرِّقوا بين الأمر والإرادة ، وقالوا بالترادف ، وألزموا أنفسَهم القولَ بخلق أفعال العباد للعباد .

والخلاصة : الإرادةُ القديمة : هي ما عبَّر عنه الإمام المصنف بأمر الحقيقة ، والأمرُ الإلـٰهي والحكم التكليفي والخطاب الشرعي : هو ما عبَّر عنه فيما سيأتي بأمر الشريعة .

(١) وتسمية هـٰذا الأمر بالإرادة الشرعية ، ونسبة الإرادة إليه تعالىٰ فيه مع وقوع التخلف غالباً ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] . . خطأٌ ، وهـٰذا قال به من اعتقد حدوث الإرادة من المشبهة .

يقولون : إن كفرَ العبد منسوبٌ إلى اختراعه ، غيرُ مستندٍ إلى إرادة ربّهِ ، وإلا لما جاز له أن يعاقبَهُ عليه . . لا جرمَ بيّنَ الله تعالىٰ جوابَهم علىٰ لسان نبيّه عيسىٰ صلاةُ الله وسلامُهُ عليه في قوله تعالىٰ : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٨] .

علّلَ جوازَ تعذيبِهِ لهم بأنهم عبادُهُ ؛ تنبيهاً علىٰ أن التعذيبَ لا يُحتاجُ في جوازه عقلاً إلىٰ معصيةٍ ولا كفر[١] ؛ ولهـٰذا لم يقلْ : (فإنهم عصَوْكَ) ، وإنما بمجرّد كونِهم عباداً يجوزُ للمالك أن يفعلَ بهم ما يشاءُ .

لـهُ حــقٌّ وليــسَ عليــهِ حــقٌّ ومهما قالَ فالحسنُ الجميلُ[٢]

مناجاة[٣]

إلـٰهي ؛ جلّتْ عظمتُكَ أن يعصيَكَ عاصٍ ، أو ينساكَ ناسٍ ، ولـٰكنَّكَ أوحيتَ روحَ أوامرِكَ في أسرار الكائنات[٤] ، فذكرَكَ الناسي بنسيانِهِ ، وأطاعَكَ العاصي بعصيانِهِ ، وإنْ من شيءٍ إلا يسبِّحُ بحمدِكَ .

---

(١) إذ المعصية والكفر وصفان شرعيان حادثان ، ولا تأثير للحادث في القديم عقلاً ، كما أن العقل إن لم يتنوّر ويتكمّل بالخطاب الشرعي . . فهو مجوِّز لتعذيب المطيع وتنعيم العاصي ، ولا يشكل هـٰذا إلا علىٰ أصحاب الأهواء .

(٢) البيت من الوافر ، وهو لعبد الله بن مصعب الزبيري المعروف بـ (عائذ الكلب) ، وانظر « الكامل » للمبرد (٢/١٠٣) ، ولا يليق معنىٰ هـٰذا البيت حقّاً وصدقاً إلا في المولى الجليل سبحانه .

(٣) هـٰذه المناجاةُ العرفانية ، الدالّة علىٰ رفعة معرفة صاحبها بمولاه عز شأنه . . هي لبابةُ هـٰذا الكتاب ، وواسطةُ عقده ، ولو لم تكن له فيه إلا هـٰذه المخاطبةُ الرقيقة . . لكفاه ، كيف وقد وشّاه وحبّكه ، وغشّاه ورونقه . . بما هو من شاكلتها في العرفان ؟!

(٤) في (ب) : (أوجبت) ، وفي (أ ، ج) : (جرت) ، وفي هامش (ج) نسخة : (جرت) بدل (أوحيت) .

إن عصىٰ داعيَ إيمانِهِ . . فقد أطاعَ داعيَ سلطانك ، ولـٰكن قامَتْ عليه حجَّتُكَ ، ولله الحجةُ البالغة ؛ ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[1] [الأنبياء : ٢٣] .

اعتبار

[في الخوف من السابقة ، وكون الأعمال بالخواتيم اللاحقة]

قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران : ٣٠] . . من هـٰذا ؛ أي :

---

(١) نقل هـٰذه المناجاةَ عن كتابنا هـٰذا الإمامُ ابن السبكي في « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٩/ ٩٥) وقال : (ومن مناجاته في هـٰذا الكتاب وهو مما أخذ عليه) ثم ذكرها ، والمؤاخذاة ـ والله أعلم ـ من قدريٍّ يأبىٰ أن يكون الفاعل الموجد واحداً أحداً ، ويجعلُ للإرادات والقُدَرِ الحادثة تأثيراً ، أو من قاصرٍ لم يرقَ فهمه لاستشراف هـٰذا الكلام فهو دون عتبته ، أو ضعيفِ همَّة لا تسمح له بالترفُّع عن حضيض التقليد في الاعتقاد .

واعلم : أن مذهب أهل السنة والجماعة أنه تعالىٰ ما عصاه عاصٍ إلا بإرادته وقهره ، كما أنه ما أطاعه طائعٌ إلا بإرادته وفضله ؛ فإرادة القديم سبحانه جلَّت عن المخالفة ؛ إذ إليها يستند كلُّ شيء ، وهي لا تستند إلىٰ شيء ، وهو ما عبَّر عنه الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني بقوله لقاضي المعتزلة عبد الجبار : أيُعصىٰ ربُّنا قهراً عنه ؟! وذلك حين قال له الهمذاني : أيحبُّ ربُّنا أن يُعصىٰ ؟!

فوحيه في هـٰذه المناجاة لروح أوامره إنما المقصودُ منه تعلُّقات الإرادة الأزلية ، **وبهـٰذا تعلم** : أنه في هـٰذه المشهدِ لا عاصيَ بإطلاق ، بل الكلُّ فيه مطيعٌ بإطلاق ، وإنما المعصية والطاعة الشرعيتان إنما تكونان بقيد الأوامر الشرعية ، لا بإطلاق تعلُّقِ الإرادة الأزلية ، فمن عصى الأمر فقد أطاع من حيث ظنَّ أنه عصىٰ ، **ولـٰكن ظنُّه هـٰذا أرداه في الهاوية** ؛ ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [فصلت : ٢٣] ، وكفاه يقينُهُ هـٰذا حجة عليه دنيا وأخرىٰ ، وهـٰذا المعنىٰ بعينه هو ما أشار إليه العارف الجيلي في « النادرات العينية » حيث يقول : (من الطويل)

فإن كنتُ في حكمِ الشريعةِ عاصياً ... فإنـيَ فـي حكـمِ الحقيقـةِ طـائـعُ

فإن قلت : إبليس إذاً كان طائعاً بتركه للسجود المأمور به من قبل الحق بغير شبهة .

فالجواب : أما من حيث النظر لإرادة الله تعالىٰ فهو كذلك ، ولـٰكن لا تنسبُ الطاعة له قطعاً ؛ لأنه لم يعلم أنه لم يُرد منه السجودُ إلا بعد وقوع الإباية منه ، فهو مؤاخذٌ وعاصٍ من هـٰذه الحيثية .

ويحذركم أمَّ كتابه ؛ بدليل قولِهِ تعالىٰ أوّلَ الآية : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ . . . ﴾ الآيةَ ، مع قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ [الكهف : ٤٩] ، مع ما ثبتَ في « صحيح مسلم » وغيره من قوله صلى الله عليه وسلم : « فوالذي لا إلـٰهَ غيرُهُ ؛ إنَّ أحدَكم ليعملُ بعملِ أهلِ الجنَّةِ حتىٰ ما يكونُ بينَهُ وبينَها إلا ذراعٌ واحدٌ ، فيسبقُ عليهِ الكتابُ ، فيعملُ بعملِ أهلِ النارِ فيدخلُها ، وإنَّ أحدَكم ليعملُ بعملِ أهلِ النارِ حتىٰ ما يكونُ بينَهُ وبينَها إلا ذراعٌ واحدٌ ، فيسبقُ عليهِ الكتابُ ، فيعملُ بعملِ أهلِ الجنَّةِ فيدخلُها » الحديثَ[1] .

فهـٰذا تحذيرٌ من أمِّ الكتاب ؛ الذي تكون خاتمةُ العبد علىٰ وَفْقِ ما سبقَ له فيه ، وبهـٰذا تفهمُ السرَّ في ذكر (النفس) و(أمِّ الكتاب) متقاربينِ في أوَّلِ السورة[2] .

إشارة

[إلى المخصوصين بخوف سوء الخاتمة]

في الحديث : أن خشيةَ سوء الخاتمة مخصوصةٌ بأهل أعمال الجنة ، وأما أهلُ الإخلاص لأعمال التوحيد . . فلا يُخشىٰ عليهم سوءُ الخاتمة ؛ ولهـٰذا قال : « لَيعملُ بعملِ أهلِ الجنَّةِ . . . » الحديثَ .

يفهمُ من ذلك : أن المتقرِّبَ متقربانِ : متقرِّبٌ إلى الجنة بأعمالِها ، ومتقرِّبٌ إلى الله تعالىٰ بذكرِهِ ؛ كما ثبتَ في « الصحيح » : « أنا عندَ ظنِّ عبدي بي ، وأنا معَهُ حينَ يذكرُني . . . » إلىٰ قوله : « وإنْ تقرَّبَ إليَّ ذراعاً تقرَّبْتُ منهُ

---

(١) رواه البخاري (٣٣٣٢) ، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) يعني : سورة (آل عمران) .

باعاً »[1] ، وذلك يفهمُكَ أن المتقرِّبَ إلى الله سبحانه وتعالى لا يمكنُ أن يبقى بينَهُ وبين اللهِ سبحانه ذراعٌ[2] ؛ لأن ذلك الذراعَ إن كان التقرُّبُ به مطلوباً من العبد . . لم يبقَ بعدَهُ مقدارٌ يتقرَّبُ اللهُ به إليه ، وحينئذٍ فيستلزمُ الخُلْفَ في وعده تعالى[3] ، وهو محالٌ ، وإن كان موعوداً به من الله تعالى لزمَ تنجُّزُ وعده ، وتحقُّقَ القربُ للعبد ، فلا يبقى بُعْدٌ ولا دخولٌ إلى النار .

فعُلِمَ : أن ذلك الذراعَ مخصوصٌ بأهل التقرُّب إلى الجنة ، التي لا يلزم أن تَقْرُبَ ممَّن تقرَّبَ إليها ، فافهمْهُ فإنه بديعٌ .

تتمة

[في بيان معنى الذكر في النفس ، والذكر في الملأ]

قولُهُ في الحديث : « فإن ذكرَني في نفسِهِ ذكرتُهُ في نفسي »[4] ، إذا أردت تخريجَهُ على ما تقدَّم فمعناه : أن العبدَ إذا ذكر اللهَ تعالى في سرِّهِ فذكْرُهُ له من آياتِ توحيده المتشابهةِ ، فلا يزالُ يذكر ويشهدُ ذكرَ نفسه حتى ينكشفَ حجابه كما سيأتي في حُجُبِ الوجه وسُبُحاتِهِ[5] ، فهنالك يحترقُ ذكرُ العبد

---

(1) رواه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(2) في (أ ، ج) : (أن يكون) بدل (أن يبقى) .

(3) وعده سبحانه هنا : هو تحقق المشروط بعد وجود شرطه ، والخُلْف في الوعد القديم محال شرعاً ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران : ٩] وقال تعالى : ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ﴾ [الروم : ٦] .

(4) وهو من تمام الحديث المتقدم : « أنا عند ظنِّ عبدي بي » .

(5) هذه الجملة هي التي أوجبت اعتماد ترتيب فصول الكتاب على ما في النسختين (أ ، ج) إذ النسختان (ب ، د) تقدم فيهما فصل (الوجه) على هذا الفصل ؛ ولعل ذلك لمراعاة قوله في أول فصل (الصورة) : (والأليقُ تقديمُها) .

المخلوق ، ويتجلّىٰ ذكرُ الله له سبحانه لعبده بسُبُحاتِهِ ، فيصير العبد مذكوراً ، والربُّ سبحانه ذاكراً ، وذلك من آيات التوحيدِ المحكمة[1] ، وهي أمّ الكتاب[2] ، فلهـٰذا عبَّرَ عنها بالنفس ، ونُسبَتْ إليه سبحانه في قوله : « ذكرتُهُ في نفسي » .

قولُهُ : « وإنْ ذكرني في ملأٍ ذكرتُهُ في ملأٍ خيرٍ منهُ »[3] ، هـٰذا من بابِ الترقي من حال الجمع والفناءِ إلىٰ حال الفرقِ والبقاء[4] ؛ وذلك أن العبدَ إذا جمعَهُ اللهُ تعالىٰ عليه بذكرِهِ له في نفسه وحدَهُ . . أفناهُ ، فإذا أرادَ أن يجعلَهُ هادياً بعثَهُ لذكر الله في الملأِ ، فذلك إبقاؤه ، فإذا ذكرَهُ . . ذكرَهُ اللهُ في ملأٍ خيرٍ منه .

ومعناه والله أعلم : أنه يذكرُهُ ويثني عليه بألسنة ملائكتِهِ وأوليائِهِ وأرواح أنبيائِهِ ورسلِهِ ، ويشهدُهُ أن الله هو الذاكرُ له في مظهرِ ذكرِهم ، فيتنعَّمُ بذلك نعيماً دائماً ، ويحيا حياةً طيِّبة ، ويكونُ له به حظٌّ من المقام المحمود[5] .

---

(١) إذ ذكْرُ العبد فعلُ الله تعالىٰ ، فنسبتُهُ إليه حقٌّ ، ونسبتُهُ للعبد مجاز ، وهـٰذا هو وجه الأحكمية .

(٢) انظر معنىٰ هـٰذا (ص ١٣٥) .

(٣) هـٰذا من تمام الحديث السابق : « أنا عند ظنّ عبدي » .

(٤) وهـٰذا الأخير هو حال الأنبياء ، والكمَّل من الأولياء ، قال تعالىٰ حكاية عن سيدنا هارون علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام : ﴿ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٥٠] .

(٥) ذكر الملائكة للمؤمنين والاستغفار لهم . . منصوصٌ عليه في كتاب الله تعالىٰ وصحيح السنة ، وكذا أرواح الأنبياء لها اطِّلاع علىٰ أعمال أممها بعد وفاتها ؛ ومن ذلك حديث عرضِ الأعمالِ علىٰ نبينا صلى الله عليه وسلم ، وإنما قال : (له حظ) لأن هـٰذا المقام بتمامه لا يكون إلا للذي كلُّ ما فيه من قول وفعل محمودٌ ، وهو لا ينبغي إلا للحبيب الأعظم المفخَّم عليه أفضل الصلوات والتسليمات كما جاء في « الصحيحين » .

. . . .

* * *

= وهـٰذا معنىٰ ما حكى ابن خلكان في « وفيات الأعيان » (٣/ ٤٥٥) عن العارف بالله ابن الفارض فقال : أخبرني عنه بعض أصحابه أنه ترنَّمَ يوماً وهو في خلوة ببيت الحريري صاحب « المقامات » [ص ١٦٥] ، وهو : (من مجزوء الرجز)

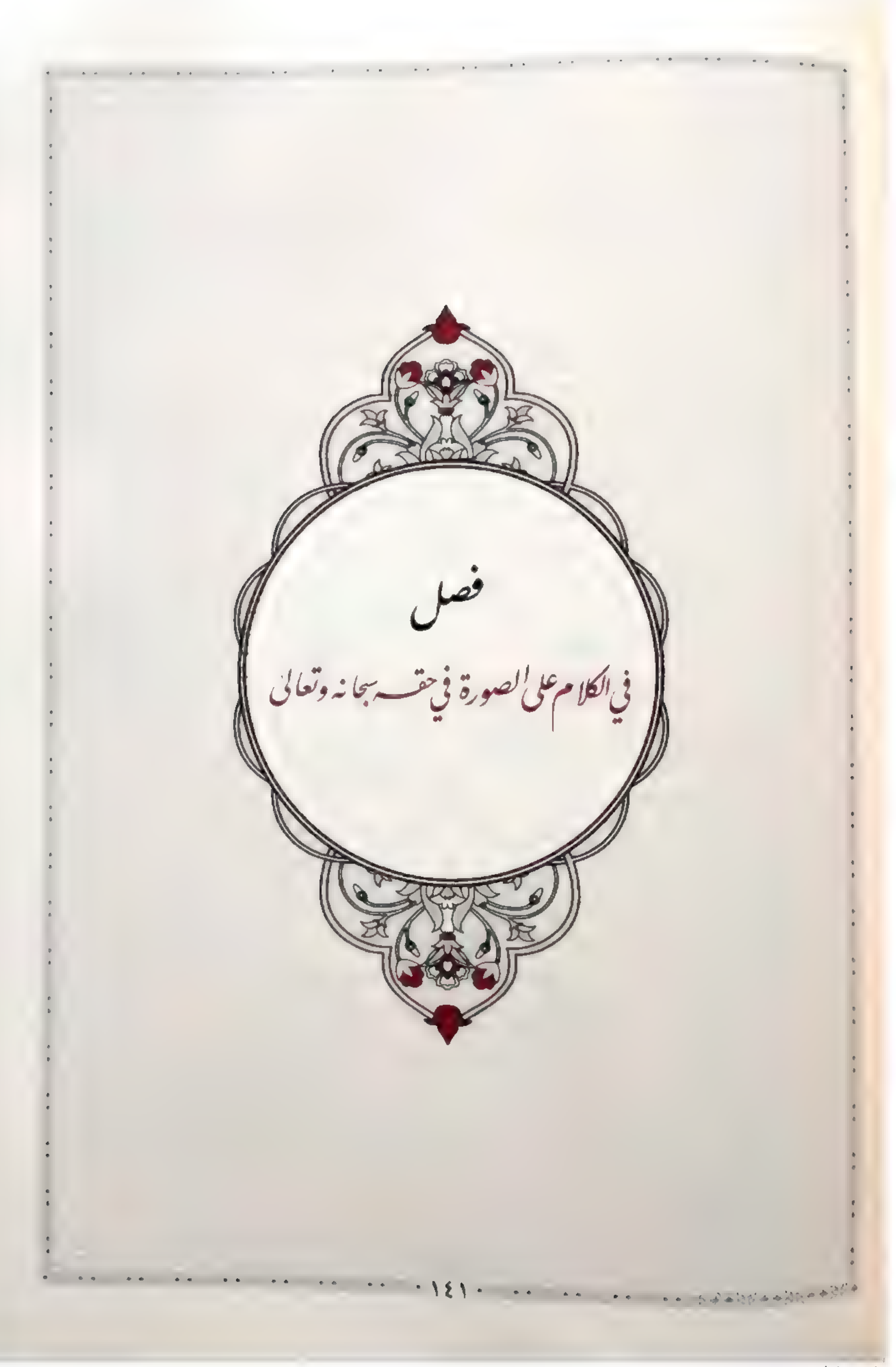
مَـن ذا الـذي مـا سـاءَ قـطْ ... ومَـنْ لـهُ الحسنـىٰ فقـطْ

قال : فسمعَ قائلاً ولم يرَ شخصه وقد أنشد :

محمـدُ الهـادي الـذي ... عليـهِ جبـريـلُ هبـطْ

ثم مقام المحمودية المطلقة لا يقتضي وجود خطأ فيما دونها من المقامات العلية ، فحاذر إساءة الظن عند سماعك بعض المتشابهات في حق الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام .





فصل

في الكلام على الصورة في حقه سبحانه وتعالى



فصل

في الكلام على الصورة في حقه سبحانه وتعالى

ومن المتشابه : **الأحاديثُ التي يُذكرُ فيها الصورةُ** :

والأليقُ تقديمُها[(١)] ؛ لأنَّها اسم جامعٌ لباقي الحقائق في غيرها[(٢)] .

فممَّا صحَّ في ذلك : ما رواه البخاريُّ وغيره من حديث الرؤية عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ وفيه : « فيأتيهم ربُّهم في غيرِ الصورة التي يعرفونَ ، فيقولُ : أنا ربُّكم ، فيقولونَ : نعوذُ باللهِ منكَ ، هـٰذا مكانُنا حتىٰ يأتيَنا ربُّنا ، فإذا أتانا ربُّنا عرفناهُ ، فيأتيهم في الصورةِ التي يعرفون ، فيقولُ : أنا ربُّكم ، فيقولونَ : نعم ؛ أنتَ ربُّنا ، فيتبعونَهُ »[(٣)] .

وقد ثبت ذكرُ الصورةِ في حديث أبي سعيد أيضاً[(٤)] .

---

(١) سقطت هـٰذه العبارة من (أ ، ج) وكتبت بين السطور كنسخة في (ج) ، **وهـٰذا الأليق جرىٰ عليه الإمام الرازي** ؛ حيث ابتدأ بها وقدَّمها علىٰ غيرها من الألفاظ المتشابهات في « تأسيس التقديس » (ص ١٢١) .

(٢) إذ لا تنفك المتشابهات المغايرة لها في اللفظ عن حقيقة معناها الجامع لها ؛ **فإن الصورة شاملة لكلِّ ما يتعرَّف الله به إلىٰ خلقه** ، وكلُّ المتشابهات هي عندهم صورٌ من التعرُّفات الإلـٰهية للعباد ، بل والمحكمُ علىٰ هـٰذا يشمله لفظ الصورة .

(٣) صحيح البخاري (٦٥٧٣) ، ورواه مسلم أيضاً (١٨٢) بلفظ مقارب ، وقد أولع السادة الصوفية بالحديث عن هـٰذا الأثر وعن رموزه ، وهو عمدتهم النقلية في إثبات التجلي الإلـٰهي بالصور الحادثة ، **ولـٰكن لا بمعنى اتِّصافه تعالىٰ بالحوادث** ، كما ستعرف قريباً .

(٤) رواه البخاري (٧٤٣٩) ، ولفظه : « فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة » .

وهو من الأحاديثِ المتشابهة ، ومرجعُها إلى الآيات والأحاديثِ المحكمة[1] ، وكلٌّ من له من الله نورٌ.. له في مرجعها إلى المحكم فهْمٌ على حسَبِ نوره ، ونحن إن شاء الله تعالىٰ نذكرُ مبلغَ علمنا وفهمنا فيه[2] . ونسأل الله تعالىٰ أن يهديَنا لما اختُلفَ فيه من الحق بإذنِهِ[3] .

[الصور لها حقيقة ومظهر]

واعلمْ : أن للصور التي يأتي فيها ربُّنا تعالىٰ يوم القيامة مظهراً وحقيقة :

فالحقيقةُ : هي الظُّلَّةُ في قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، فعُلِمَ بذلك : أن مظاهرَ تجلِّيه لعباده هي ظُلَلُ غمامه ، وحقائق هـٰذه الظُّلَلِ آياتُهُ التي تعَرَّفَ لخلقه فيها بواسطة أنبيائه[4] .

وقد ثبت في « الصحيح » تشخُّصُ حقائق آياته كالظُّلَلِ ؛ ففي « مسلم » وغيره من حديث أبي أمامةَ وحديث النوَّاسِ بن سمعان : « أنَّ القرآنَ يأتي يومَ القيامةِ تقدُمُهُ (البقرةُ) و(آلُ عمرانَ) كأنَّهما غمامتانِ، أو ظُلَّتانِ سوداوانِ »[5] .

---

(١) هـٰذه قاعدة في فهم كلِّ متشابه ؛ إذ حقُّه أن يُردَّ إلى المحكم ، ومن لم يفعل فقد ظلم .

(٢) وذاك راجع لقاعدتهم : أن التجليَ يكون على حسب استعداد المتجلَّىٰ له ، وصفاءَ فهمه وإدراكه يكون على حسب صفاء مرآة فؤاده .

(٣) انظر الحديث عن التأويل عند السادة الصوفية (ص ٦٨ ، ٧٧) .

(٤) أراد بالآيات : معانيَ يجمعُها ما تعرَّف الله تعالىٰ به إلىٰ خلقه ؛ كالكُتُب المنزلة والشرائع المتضمنة بها كما سيذكر الإمام المصنف ، وهـٰذه التعرُّفات لن تجد لها حدّاً ؛ إذ لا نهاية لتعرُّفات الحق سبحانه .

(٥) صحيح مسلم (٨٠٤ ، ٨٠٥) ، وزاد : « أو كأنهما حزقانِ من طير صوافَّ ، تُحاجَّانِ عن صاحبهما » .

ومن المعلوم : أن كلامَهُ صفتُهُ ، وصفته لا تفارقُهُ ، فإذا ثبت إتيانُها في صور ظُلَلِ الغمام . . ثبت إتيانُهُ[1] .

---

(١) يعني : إتيانه في تجلّيه سبحانه ، وهـٰذه مغاصة لا بد من وقفة عابرة عندها .

فاعلم يا أخي : أن تجليه تعالىٰ مخلوق قطعاً ، واجزم بذلك ابتداءً ؛ فما حلَّ في المخلوق فهو مخلوق ، فتجلِّي الحق لا هو ذاته ولا صفاته ؛ بل هو من جملة أفعاله ، وقد هلك أقوام حسبوا أن تجليه تعالىٰ هو عين ذاته أو عين صفة من صفاته ، وأن ما يدركه المرء هو القديم سبحانه ! وأنَّىٰ لابن التراب أن يعرف كُنهَ ربِّ الأرباب ؟! ومرجعُ التجلي إلىٰ قدرته عز وجل ؛ فهو إدراكٌ يخلقه في قلب العبد عند حصول التجلي ، والمراد منه تعرُّف الله سبحانه لعبده في هـٰذا المظهر .

ومسألة الصورة والتجلي فيها من أعوص ما خاض فيه السادة الصوفية ، وهم الذين فتقوا اللسان في الحديث عنها ؛ يقول العلامة محمد أنور شاه الكشميري في « فيض الباري » (٢/٥٦٦) في بيان التجلي : (هو أشكل المسائل عند الصوفية ، وهو مخلوق عندهم ، وصورة من صور الأفعال الإلـٰهية ، تُنْصَبُ بين العبد وربه لمعرفته تعالىٰ ، وينسب إليها ما ينسب إليه تعالىٰ مع كونه منفصلاً عنها) ، والأوضح أن يقال : مع كونه مبايناً لها بينونة تليق بجلاله ؛ إذ مولانا لا يتصف بانفصال ولا اتصال .

وتأصيل التجلِّي بلغة شرعية لا تعويص في فهمها ، ولا تنغيص بالاعتراض عليها : أن التجليات ترجع إلىٰ فهم الحكمة في أفعاله سبحانه وتعالىٰ ، وقد أُمرنا بالنظر في مخلوقاته تعالىٰ للاعتبار ، وأيُّ عبرة أعظمُ من أن تعلم أن الأشياء كلَّها تستندُ في وجودها لمولانا جلَّ وعزَّ ؟! فتحت كلِّ فعل إلـٰهي ـ ولا فعل إلا فعله ـ حِكَمٌ تحار فيها الألباب ، وتعجز عن الإحاطة بها العقول ، وإنما قيمة الأثر بمعرفة مؤثره ، فما الفعل إلا غمامة وسِتارة وثياب وراءها الفاعل الحكيم ، ومن أبصر الفعل ولم يتعرَّف الفاعلَ فهو كليل الفهم .

ثم لا فعلَ إلا هو مستند إلى القدرة الأزلية ، ولا يخفىٰ عليك أن أثر الفعل يرجع إلى التعلق عند المتكلمين ، والذي قيل عنه وعن تصوره وفهمه : إنه من مواقف العقول ، فلا يعلمه إلا الله تعالىٰ ، وهـٰذا بعينه يرجع إلىٰ إشكال مسألة الصورة والتجلي .

ولـٰكن ثَمَّ ما هو أهمُّ من معرفة الحكمة ؛ وهو معرفة الحكيم ، وهي منطويةٌ في تجلِّيات أسمائه وصفاته القديمة ، والتي منها المحكم ومنها المتشابه ؛ وذلك أن تتعرَّفه في كلِّ صُوَرِ هـٰذا الوجود الحادث الماثل أمام مشاهداتك ، في كلِّ شيء مطلقاً ودون قيد ؛ فليست معرفة الله تعالىٰ عند القوم مقصورة على النُّظم الكلامية والترتيبات المدونة في الكتب =

وفي « مسلم » وغيره : أن أُسيدَ بن حُضيرٍ رضي الله عنه قرأ سورة (الكهف) ليلة ، فجالَتْ فرسُهُ ؛ فإذا مثلُ الظُّلةِ فوق رأسه فيها أمثالُ السُّرُج ، فسألَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : « إنَّ السكينةَ تنزَّلَتْ للقرآنِ »[1] .

وفي « الترمذي » : « معَ القرآنِ »[2] .

وفي روايةٍ : « تلكَ الملائكةُ كانَتْ تسمعُ لكَ »[3] .

وذلك كلُّهُ موافقٌ لآية (البقرة) ، ونفرةُ الفرس دليلٌ على أنها ظُلةٌ محسوسة[4] .

وقد ثبتَ رؤيا النبيِّ صلى الله عليه وسلم للظُّلة[5] ، وتأويلُ

= العقدية ، فهي ـ وما أحسنها وأتقنها وأحكمها ! ـ منجاةٌ للعبد من الشقاء ، ولكنها ليست مرقاة للعبد لدَرَجِ المشاهدة واللقاء ، **فهي محطة يجب المرور بها** ، **ولا يجوز الوقوف عندها** ، ففرقٌ بين **أن تتعرَّف** الله تعالى بكونه موجوداً ، قديماً باقياً واحداً قائماً بنفسه منزَّهاً عن كل صفة حدوث ، حيّاً عالماً مريداً قديراً سميعاً بصيراً متكلِّماً ، وبين **أن تتعرَّف عليه** منعماً مبتلياً ، مانعاً معطياً ، قابضاً باسطاً ، مقدِّراً مغنياً ، مصِحّاً ممرِضاً ، معِزّاً مذِلّاً ، مبكِياً مضحِكاً ، مقرِّباً مبعِّداً ، بل أن ترقى فتتعرَّفه قيُّوماً ضاحكاً غاضباً متعجِّباً محبّاً آتياً ماشياً مهرولاً ساعياً خيرَ الماكرين ، إلى غير ذلك ممَّا لا خلاف في عدِّهِ متشابهاً ، وفي وجوب استناده وفهمه بالمحكم الذي هو أم الكتاب ، **ولكن هل ما تأوَّله متأوِّلو المتكلمين هو المراد دون غيره ؟** هذا ما لا يمكن الجزم به ، كما لا يمكن القطع أن فهم الإمام ابن اللبَّان هنا هو المراد أيضاً ، ولكننا نجزم أنه رتبة معرفية منوَّرة هي مبلغ المتكلم من العلم .

(١) صحيح مسلم (٧٩٥ ، ٧٩٦) من حديث سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنهما .

(٢) سنن الترمذي (٢٨٨٥) .

(٣) رواها مسلم (٧٩٦) ، وعلى هذه الرواية : يكون التجلي بإتيان الملائكة عليهم السلام .

(٤) **وبه تعلم** : أن تجلِّي الحق سبحانه ليس هو ذاته ؛ إذ ذاته العلية تتعالى عن الإدراك الحسيِّ ، ثم محلُّ التجلي هو القلب ، والصورة المشاهدة هي نصيب الحواسِّ وعالمِ الخيال ، ووراء ذلك معنىً معقول هو نصيب الفؤاد من المعرفة .

(٥) في (د) وحدها : (رؤية) بدل (رؤيا) .

أبي بكر رضي الله عنه لها بالإسلام[1] .

وذلك كلُّه يحقق أن حقائق الظلل هي آياتُ الله تعالىٰ وشرائعه[2] ، وهي من الروحِ كما قدَّمتُه لك[3] ، قال تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا . . . ﴾ الآيةَ [الشورىٰ : ٥٢] .

والظلَّةُ قسمان : ظلة عذاب ، وظلة رحمة .

فظلَّةُ العذاب : كظُلَّةِ قوم شعيبٍ في قوله تعالىٰ : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ﴾ [الشعراء : ١٨٩] ، وقد ضرب الله سبحانه المثلَ بذلك للقرآن في قوله تعالىٰ : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ . . . ﴾ الآيةَ [البقرة : ١٩][4] .

---

(١) وهو ما رواه البخاري (٧٠٤٦) ، ومسلم (٢٢٦٩) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما : أن رجلاً أتىٰ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني رأيت الليلة في المنام ظلة تنطف السمن والعسل ، فأرى الناس يتكفَّفون منها ، فالمستكثرُ والمستقلُّ ، وإذا سببٌ واصل من الأرض إلى السماء ، فأراك أخذتَ به فعلوت ، ثم أخذ به رجلٌ آخر فعلا به ، ثم أخذ به رجلٌ آخر فعلا به ، ثم أخذ به رجلٌ آخر فانقطع ثم وُصِلَ ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ؛ بأبي أنت ، واللهِ ؛ لتدعَنِّي فأعبُرَها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اعبُرْها » ، قال : أما الظلةُ فالإسلام ، وأما الذي ينطفُ من العسل والسمن فالقرآنُ ، حلاوته تنطف ، فالمستكثرُ من القرآن والمستقلُّ ، وأما السببُ الواصل من السماء إلى الأرض فالحقُّ الذي أنت عليه ، تأخذ به فيعليك الله ، ثم يأخذ به رجلٌ من بعدك فيعلو به ، ثم يأخذ به رجلٌ آخر فيعلو به ، ثم يأخذه رجلٌ آخر فينقطع به ، ثم يُوصلُ له فيعلو به ، فأخبرني يا رسول الله ، بأبي أنت ؛ أصبتُ أم أخطأتُ ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أصبتَ بعضاً وأخطأتَ بعضاً » ، قال : فوالله يا رسول الله ؛ لتحدِّثَني بالذي أخطأتُ ، قال : « لا تقسمْ » .

(٢) انظر (ص ١٤٤) وفيها : أن المراد بالآيات لا ما يرجع إلىٰ صفة الكلام فحسب ، بل لكلِّ مظهرٍ هو علامة علىٰ وجوده المطلق سبحانه وتعالىٰ .

(٣) انظر (ص ١٣٢) ، وقوله : (من الروح) تقدم أن الروح الأصلي هو منشأ عالم الأمر ، وأن التجلي الإلـٰهي يكون عبره ، وأن الملائكة من رقائقه .

(٤) قال العلامة ابن عطية في « المحرر الوجيز » (١/١٠٢) عند تفسير هـٰذه الآية الكريمة : =

وأما ظلّةُ الرحمة : فهي آياتُهُ المقتضية للرحمة ، النازلُ غيثُها على قلوب المؤمنين ، كما صحّ في « مسلم » و« البخاري » وغيرهما قولُهُ صلى الله عليه وسلم : « إنَّ مثلي ومثلَ ما بُعثتُ بهِ مِنَ الهدىٰ والعلمِ كمثلِ غيثٍ أصابَ أرضاً . . . » الحديثَ[1] .

هٰذا هو الحقيقةُ[2] .

وأما مظهَرُ الصورة : فهو العملُ[3] ، وقد ثبت تشخُّصُ الأعمال بصورٍ

= (قال جمهور المفسرين : مثَّلَ اللهُ تعالى القرآن بالصيِّب ؛ لما فيه من الإشكال عليهم ، والعمىٰ : هو الظلمات ، وما فيه من الوعيد والزجر : هو الرعد ، وما فيه من النور والحجج الباهرة التي تكاد أن تبهرهم : هو البرق ، وتخوُّفهم وروعهم وحذرهم : هو جعل أصابعهم في آذانهم ، وفضحُ نفاقهم واشتهار كفرهم وتكاليف الشرع التي يكرهونها من الجهاد والزكاة ونحوه : هي الصواعق) ، ثم قال : (وهٰذا كله صحيح بيِّنٌ) .

(١) رواه البخاري (٧٩) ، ومسلم (٢٢٨٢) من حديث سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، ولفظه : « إن مثل ما بعثني الله به من الهدىٰ والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكانت منها طائفة طيبة ؛ قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب ؛ أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس ، فشربوا منها وسقوا ورعوا ، وأصاب طائفة منها أخرىٰ ، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأً ؛ فذلك مثل من فقُهَ في دين الله ونفعه بما بعثني الله به ، فعلم وعلَّمَ ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » .

(٢) يعني : حقيقة الصورة التي يتجلّى الحق فيها المنبَّه عليها (ص ١٤٣) ، والتجلي في الصور : هو الذي يعبِّر عنه السادة الصوفية بالتجلي في الكثائف ، وإليه الإشارة بكلام العارف بالله أبي يزيد البسطامي ؛ إذ حكى الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٦٤٥٩) : أن أبا يزيد سئل عن العارف ، فقال : لا يرىٰ في نومه غير الله تعالىٰ ، ولا في يقظته غير الله تعالىٰ ، ولا يوافق غير الله تعالىٰ ، ولا يطالع غير الله تعالىٰ .

وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٣٤) ، وأورد القشيري في « رسالته » (ص ٦٦٧) عنه أيضاً أنه قال : (إن لله عباداً لو حجبَهم في الجنة عن رؤيته . . لاستغاثوا من الجنة كما يستغيثُ أهلُ النار من النار) .

(٣) والعمل عرضٌ ، والعرض لا يقوم بنفسه ، فلا بد له من محلٍّ يقوم به فيقوِّمه ، غير أن =

شتى ؛ كما في حديث البراء رضي الله عنه بإسنادٍ صحيح ، أخرجه أصحابُ المسانيد كالإمام أحمد وغيره : « أنَّ الميتَ المؤمنَ يُفسحُ لهُ مدَّ بصرِهِ ، ويمثَّلُ لهُ عملُهُ في صورةِ رجلٍ حسنِ الوجهِ ، طيِّبِ الريحِ ، حسنِ الثيابِ ، فيقولُ : مَنْ أنتَ ؟ فيقولُ : أنا عملُكَ الصالحُ ، وأنَّ الفاجرَ يمثَّلُ لهُ عملُهُ في صورةِ رجلٍ قبيحِ الوجهِ ، منتنِ الريحِ قبيحِ الثيابِ ، فيقولُ : مَنْ أنتَ ؟ فيقولُ : أنا عملُكَ. . . » الحديثَ[1] .

وقد صحَّ تمثيلُ الموت بصورة كبشٍ[2] ، وتمثيلُ المال بالشجاعِ الأقرع

= المحل إذا قوَّم العرضَ كان الحديث للمحلِّ ابتداء وللعرض تبعاً ، فإذا أردنا تمثيل العرض تمثيلاً محضاً . . افتقرنا بالضرورة إلىٰ جوهر يقوِّمه مع وجود صارفٍ يصرفنا عن ملاحظة الجوهرية ، وإبقاء العرضية علىٰ حالها ؛ وهـٰذا معنىً شعوري نجده في أنفسنا ، ولـٰكنَّه لا يتمحَّض في الخارج ؛ ألا ترىٰ أن الموت الآتي الحديثُ عنه حينما يُؤتىٰ به يعرف الناظرون أنه الموت ليس غيرُ مع كونهم لا يبصرون في الخارج إلا كبشاً ؟! وهـٰذا مَهْمَهٌ ليس لمثلي رِجلانِ تمشيانِ فيه ، بل عامة الناس إن التفتوا للبحث فيه كان لهم منه محضُ التقليد والتخمين ، ولأفرادٍ قلوبُهم محلُّ نظر الحقِّ التحقيقُ والكشف المبين .

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ٢٨٧) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٣٧) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٣٩٠) .

(٢) روى البخاري (٤٧٣٠) ، ومسلم (٢٨٤٩) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً : « يؤتىٰ بالموت كهيئة كبشٍ أملحَ ، فينادي منادٍ : يا أهل الجنة ؛ فيشرئبُّون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هـٰذا ؟ فيقولون : نعم ، هـٰذا الموتُ ، وكلُّهم قد رآه ، ثم ينادي : يا أهل النار ؛ فيشرئبُّون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هـٰذا ؟ فيقولون : نعم ، هـٰذا الموتُ ، وكلُّهم قد رآه ، فيذبحُ ، ثم يقول : يا أهل الجنة ؛ خلودٌ فلا موت ، ويا أهل النار ؛ خلودٌ فلا موت » ، ثم قرأ : « ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ ﴾ ، وهـٰؤلاء في غفلةٍ أهلُ الدنيا ﴿ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [مريم : ٣٩] » .

وأعجبُ ما في هـٰذا الخبر ـ الذي نؤمن به ونصدِّق بكلِّ ما فيه ـ أنهم قالوا من غير تردُّدٍ : (هـٰذا الموت) ، مع أن المنظور إنما هو كبشٌ كما ترىٰ ! فكأنَّ العرض قد قام بنفسه ، =

وغيره[1] ، وتمثيلُ الملائكة بصورِ الآدميينَ[2] ، والسنةُ مشحونةٌ بنحو ذلك[3] .

ومن المعلوم : أن الأعمالَ أعراضٌ ، فإذا ثبت ظهورُها وتمثُّلُها بصور الجواهر والأجسام ، مع القطع بأنَّها ليست جسماً ولا جوهراً ، وأن الملائكة ليسوا بآدميينَ . . فعلىٰ مثل ذلك قِسْ إتيانَ ربِّنا جل وعلا سبحانه في صورِ

= وهـٰذا هو سرُّ التجلي في الصورة ؛ حيث تمظهر المعنى المجرَّدُ ـ وهو الموت هنا ـ بصورة كبشٍ ، ولم يُعرف منها إلا حقيقة الموت الراجعة إلىٰ آية إلـٰهية عند ذبحه ، وهي الحكم بالخلود الأبدي ؛ فهي تجلٍّ لاسمه سبحانه الباقي ، وفينا معنى الإبقاء لا البقاء .

وبهـٰذا المثال تعلم : أنه كما حكمَ الناظرون إلى الكبش بأنه الموت فحسب . . فكذلك الناظرون إلىٰ صور التجليات الإلـٰهية يبوحون بأنهم رأوا ربَّهم ؛ رؤيةَ ظاهرُها جوهر وعرض ، وباطنُها حقيقةٌ ومعرفة يقينية .

(١) روى البخاري (١٤٠٣ـ٤٥٦٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من آتاه الله مالاً ، فلم يؤدِّ زكاته . . مُثِّلَ له مالُهُ يوم القيامة شجاعاً أقرعَ له زبيبتانِ ، يطوقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بلِهْزِمَتَيه ـ يعني : بشدقيه ـ ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك » ، ثم تلا : « ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ . . . ﴾ الآية » [آل عمران : ١٨٠] ، والشجاع : الحية الذكر ، أو ما تثب على الإنسان تؤذيه ، والأقرع : ما كان رأسه أبيض لشدَّة سمِّهِ ، ورواه مسلم (٩٨٨) من حديث سيدنا جابر رضي الله عنه ، وفيه ذكرُ الدوابِّ التي لم تؤدَّ زكاتُها .

(٢) كمجيء سيدنا جبريل علىٰ نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام بصورة سيدنا دحية بن خليفة الكلبي ؛ فقد روى البخاري (٣٦٣٤) ، ومسلم (٢٤٥١) من حديث سيدنا أسامة بن زيد رضي الله عنهما : أن جبريل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أم سلمة ، فجعل يحدث ثم قام ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأم سلمة : « من هـٰذا ؟ » ، أو كما قال ، فقالت : هـٰذا دحية ، قالت أم سلمة : ايمُ الله ؛ ما حسبته إلا إياه ، حتىٰ سمعت خطبة نبي الله صلى الله عليه وسلم يخبر بخبر جبريل .

(٣) كاللبن ، والعسل ، والسمن ، والبقر ، والحَبْل ، وصفة قلوب أهل الإيمان ، والنفاق ، والكفر .

الأعمال ؛ فإنه لا يلزمُ من إتيانِهِ في صور الأعمال أن يكونَ تعالىٰ له صورةٌ[1] ، ولا يلزمُ من نسبتها وإضافتِها إليه أن تكون ذاتيّةً له[2] .

كما قد ثبت نسبةُ اليدينِ والرُّكبتينِ إلىٰ جبريل عليه السلام في حديث عمر رضي الله عنه عند مسلم وغيره ؛ في قوله : (طلعَ علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثيابِ . . .) إلىٰ قوله : (فأسندَ ركبتيهِ . . .) الحديثَ[3] ، ومن المعلوم : أنَّ الركبتينِ واليدينِ التي جاء بها جبريل جسمياتٌ ، وليست ذاتيّةً له[4] .

---

(١) إذ تعالى المصوِّر وجلَّ عن أن تكون له صورة ، بل من الحقائق الكلامية المقررة : أن الفاعل لا يفعل مثل نفسه ، قال الحافظ البيهقي في « الاعتقاد والهداية إلىٰ سبيل الرشاد » (ص ٩١) : (يستحيل أن يكون الفاعل يفعل مثله ؛ كالشاتم لا يكون شتماً وقد فعل الشتم ، والكاذب لا يكون كذباً وقد فعل الكذب) ، فالمصوِّر تعالىٰ قديمٌ ، وصورة تجلِّيه فعلُهُ ، وفعله غيرُهُ ، وهو حادث ، وليست الصورة صفته فضلاً عن أن تكون ذاته ، فتبصَّر .

(٢) يقول حجة الإسلام الغزالي في « المضنون به علىٰ غير أهله » (ص ٨٨) معلقاً علىٰ حديث : « من رآني في المنام فقد رآني ؛ فإن الشيطان لا يتمثل بي » : (لا معنىٰ له إلا أن ما رآه واسطة بين النبي وبينه من تعريف الحق إياه ، فكما أن جوهر النبوة ـ أعني : الروح المقدسة الباقية من النبي بعد وفاته ـ منزهة عن اللون والشكل والصورة ، ولكن تنتهي تعريفاته إلى الأمة بواسطة مثال صادق ذي شكل ولون وصورة .

وإذا كان جوهر النبوة منزهاً عن ذلك . . فكذلك ذات الله منزهٌ عن الشكل والصورة ، ولكن تنتهي تعريفاته إلى العبد بواسطة مثال محسوس ؛ من نور أو غيره من الصور الجميلة التي تصلح أن تكون مثالاً للجمال المعنوي الحقيقي الذي لا صورة له ولا لون ، ويكون ذلك المثال صادقاً وحقاً وواسطة في التعريف ، فيقول النائم : رأيت الله تعالىٰ في المنام ، لا بمعنىٰ أني رأيت ذاته ، كما يقول : رأيت النبي لا بمعنىٰ أنه رأىٰ ذات النبي وروحه أو ذات شخصه ، بل بمعنىٰ أنه رأىٰ مثاله) .

(٣) صحيح مسلم (٨) ، ورواه أبو داود (٤٦٩٥) ، والنسائي (٨/ ٩٧) .

(٤) وكذلك قوله : (رجلٌ) إذ لا تتَّصف الملائكة بذكورة ولا أنوثة ، فمن اعتقد ذكوريَّتها فقد ابتدع ، ومن اعتقد أنوثتها بعد إعلامه بنصِّ النفي . . فقد كفر .

=

[اختلاف نعيم العباد برؤية الحقّ يوم القيامة]

وبهٰذا تعلمُ : أن رؤية العباد لربِّهم يوم القيامة مختلفةُ النعيم ، فكلٌّ يراه في صورة عمله ، علىٰ حسب مراقبته وإخلاصِ توجُّهِه إليه ، وصدقه في إقباله عليه[1] .

= ولهٰذا نبَّه الإمام ابن الملقن علىٰ تغاير صورة الملك والملك ؛ حيث قال في « التوضيح » (١٩/ ٧٥) : (فجبريل جبريل ، وإن كانت الصورة صورة إنسان ، إذاً فالصورة ليست الملك) .

(١) واقرأ التنبيه الآتي (ص ١٥٣) علىٰ معنى التعوُّذ والتعلُّق بالصورة التي يأتي بها الله يوم القيامة ؛ ففيه دندنة حول ما هنا .

وهٰذه حكاية تنفع في تصوير هٰذا المعنىٰ : قال حجة الإسلام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٨/ ٥٧١) : (حكي أن أبا تراب النخشبي كان معجباً ببعض المريدين ، فكان يدنيه ويقوم بمصالحه ، والمريد مشغول بعبادته ومواجيده ، فقال له أبو تراب يوماً : لو رأيت أبا يزيد ، فقال المريد : إني عنه مشغول ، فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله : لو رأيت أبا يزيد . . هاج وجد المريد ، فقال : ويحك ! ما أصنع بأبي يزيد ؟! قد رأيت الله تعالىٰ فأغناني عن أبي يزيد .

قال أبو تراب : فهاج طبعي ، ولم أملك نفسي ، فقلت : ويلك ! تغترُّ بالله عز وجل ؟! لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة . . كان أنفعَ لك من أن ترى الله سبعين مرة .

قال : فبهت الفتىٰ من قوله وأنكره ، فقال : وكيف ذلك ؟ قال له : ويلك ! إنما ترى الله تعالىٰ عندَكَ ، فيظهر لك علىٰ مقدارك ، وترىٰ أبا يزيد عند الله قد ظهر له علىٰ مقداره ، فعرف ما قلتُ ، فقال : احملني إليه .

فذكر قصة قال في آخرها : فوقفنا علىٰ تل ننتظره ليخرج إلينا من الغيضة ، وكان يأوي إلى غيضة فيها سباع ، قال : فمرَّ بنا وقد قلب فروةً علىٰ ظهره ، فقلت للفتىٰ : هٰذا أبو يزيد ، فانظرْ إليه ، فنظر إليه الفتىٰ فصعق ، فحركناه فإذا هو ميت ، فتعاونَّا علىٰ دفنِهِ .

فقلت لأبي يزيد : يا سيدي ؛ نظرُهُ إليك قتله ؟ قال : لا ، ولٰكن كان صاحبك صادقاً ، وأُسكن في قلبه سرٌّ لم ينكشف له بوصفه ، فلما رآنا انكشف له سرُّ قلبه ، فضاق عن حمله ؛ لأنه في مقام الضعفاء المريدين ، فقتله ذلك) .

تنبيه

[على معنى الصورة في قوله عليه الصلاة والسلام :
« إنَّ اللهَ خلقَ آدمَ على صورتِهِ »]

إذا علمتَ أن حقيقةَ الصورة آياتُهُ التي تعرَّفَ بها إلى خلقه[1] . . فنَزِّلْ على ذلك ما صحَّ من « أنَّ اللهَ تعالى خلقَ آدمَ على صورتِهِ »[2] ؛ فإن الإنسانَ قد

---

(1) لا أنه تعالى له صورة قائمة بذاته ، ولذلك قال العلامة المازري في « المُعْلِم » (٢٩٩/٣) : (واعلم : أن هـٰذا الحديث غلط فيه ابن قتيبة ، وأجراه على ظاهره ، وقال : « فإن الله سبحانه له صورة لا كالصور » ، وأجرى الحديث على ظاهره ، والذي قاله لا يخفى فساده ؛ لأن الصورة تفيد التركيب ، وكل مركب محدث ، والبارئ سبحانه وتعالى ليس بمحدث ، فليس بمركب ، وما ليس بمركب فليس بمصوَّر ، وهـٰذا من جنس قول المبتدعة : إن البارئ عز وجل جسم لا كالجسام) ، وما قاله العلامة المازري قاله من قبلُ العلامة ابن بطال في « شرح صحيح البخاري » (١٠/ ٤٦٢) .

(2) رواه البخاري (٦٢٢٧) ، ومسلم (٢٦١٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

قال العلامة محمد أنور شاه الكشميري في « فيض الباري » (٦/ ١٨٧) : (الصواب : أن الضمير راجع إلى الله تعالى ؛ لما في بعض الطرق : « على صورة الرحمن » ، وإذاً أشكل شرحه : فقال القاضي أبو بكر بن العربي : إن المراد من الصورة الصفة ؛ والمعنى : أن الله تعالى خلق آدم على صفاته ؛ وتفصيلُهُ : أنه وضع في بني آدم أنموذجاً من الصفات الإلـٰهية ، وليس من الكائنات أحد من يكون مظهراً كاملاً لتلك الصفات إلا هو ، ألا ترى أن صفة العلم التي هي من أخصِّ الصفات لا توجد إلا في الإنسان ؟! فإن سائر الحيوانات ليس فيها إلا قوة مُخيِّلة .

وقيل : الغرض من إسناد الصورة إلى نفسه : مجرَّدُ التشريف والتكريم ؛ على ما ينطق به النص : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : ٤] ، وليس المراد منه : أنه تعالى أيضاً صورة .

وقال الشيخ الأكبر : الصورة على معناها ، ومغزى الحديث : أن الله سبحانه وتعالى لو تنزَّل إلى عالم الناسوت . . لكان في صورة الإنسان ؛ فإن ذلك صورته في هـٰذا العالم لو كانت ؛ ألا ترى أنه أسند إلى نفسه : العين ، والقدم ، والأصابع ، والوجه ، والساق ، واليد ، والحقو ، واليمين ، والقبضة ، والرداء ، والإزار . . إسناداً شائعاً في القرآن والحديث ؟! =

جمع اللهُ تعالىٰ فيه كلَّ حقائق الكائنات ، فكان مظهراً لآيتِهِ الكبرى الجامعةِ لجميع حقائقِ الآيات ، المتجلّية لخلقه بجميع أنوارِ الأسماء والصفات[١] ، فلذلك قَبِلَ تعليمَ الأسماء ، وسجدَتْ له ملائكةُ الأرض والسماء ؛ أي : خَلقَهُ على المثاليّة القابلة لتجلّي صورةِ آيتِهِ الكبرىٰ[٢] ؛ **وهي التي أُريها محمد صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ، وحقيقتُها** : روحُ (لا إلـٰه إلا الله)[٣] .

= ولا ريب أنها هي حلية الإنسان ، فلو فرضنا فرض المحال أن الله تعالىٰ لو كان نازلاً في العالم الناسوتي . . لما كانت حليتُهُ إلا حليةَ الإنسان ، وإليه يشير قوله صلى الله عليه وسلم في حديث الدجال : « إنه أعورُ العين اليمنىٰ ، وربُّكم ليس بأعور » ، فلو تجلىٰ ربُّنا جل وعلا في هـٰذا العالم . . لم يكن أعور ؛ فإنه ليس من حلية الإنسان الصحيح) .

(١) قال حجة الإسلام الغزالي في « مشكاة الأنوار » (ص ٧١) : (ثم أنعم تعالىٰ علىٰ آدمَ فأعطاه صورةً مختصرة جامعةً لجميع أصناف ما في العالم ، حتىٰ كأنه كلُّ ما في العالم ، أو هو نسخةٌ من العالم مختصرة ، وصورة آدم ـ أعني : هـٰذه الصورة ـ مكتوبةٌ بخطِّ الله ، فهو الخط الإلـٰهي الذي ليس برقم حروف ؛ إذ تنزَّهَ خطُّهُ عن أن يكون رقماً وحروفاً ، كما تنزَّهَ كلامُهُ أن يكون صوتاً وحرفاً ، وقلمه عن أن يكون خشباً وقصباً ، ويده عن أن تكون لحماً وعظماً .
ولولا هـٰذه الرحمة لعجز الآدمي عن معرفة ربه ؛ إذ لا يعرف ربَّهُ إلا من عرف نفسه ، فلما كان هـٰذا من آثار الرحمة صار علىٰ صورة الرحمن ، لا علىٰ صورة الله ؛ فإن حضرة الإلـٰهية غير حضرة الرحمة ، وغير حضرة الملك ، وغير حضرة الربوبية ، ولذلك أمر بالعياذ بجميع هـٰذه الحضرات فقال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ [الناس : ١ـ٣]) .

(٢) إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [النجم : ١٨] ، والمعنىٰ : لقد رأىٰ آية من آيات ربِّهِ الكبرىٰ ، وفي السياق إشارة إلى الحقيقة المحمدية ، والتي دار الحديث عنها علىٰ ألسنة السادة الصوفية .

(٣) وهـٰذه الروح هي منشأ عالم الأمر كما تقدم (ص ١٢٣) .



[علىٰ معنى الصورة في حديث سُوق الصور في الجنة]

قد جاء في « الجامع » لأبي عيسى الترمذيّ : أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ في الجنةِ سُوقاً ، ما فيها بيعٌ ولا شراءٌ ، إلا الصورَ مِنَ الرجالِ والنساءِ ، فإذا أرادَ الرجلُ صورةً دخلَ فيها » ، قال الترمذي : (حديث غريب)[1] .

وإذا نزَّلتَهُ علىٰ ما قررناه . . علمتَ أن تلك الصورَ حقائقُ آياتٍ من آياتِ أسمائه وصفاته تعالىٰ وأخلاقه ، فما من آية منها تخلَّق العبد بها في الدنيا . . إلا وقد تعرَّفَ الحقُّ إليه بها ، فإذا دخل الجنةَ ورآها في سوق المعرفة . . عرفَها ، فدخل فيها ، فكانَتْ زيادةً في معرفته بربِّهِ ، وتجليه له فيها بنعيمِ رؤيتِهِ[2] .

فإن قلتَ : فما معنىٰ قوله صلى الله عليه وسلم : « إلا الصورَ مِنَ الرجالِ والنساءِ » ؟ وما مناسبةُ الرجال والنساء لصور آياتِ الصفاتِ والأسماء ؟

قلتُ : ما من آيةٍ يتخلَّقُ بها عبدٌ إلا وقد اشتقَّها اللهُ تعالىٰ من اسمه الرحمٰن

---

(١) سنن الترمذي (٢٥٥٠) من حديث سيدنا علي رضي الله عنه .

(٢) قال العارف الحاتمي في « الفتوحات المكية » (٣/ ٥١٨) وهو يتحدث عن البرزخية : (ألا ترى الصور التي في سوق الجنة كلُّها برازخ ، تأتي أهل الجنة إلىٰ هـٰذا السوق من أجل هـٰذه الصور ، وهي التي تتقلب فيها أعيان أهل الجنة ، فإذا دخلوا هـٰذه السوق فمن اشتهىٰ صورة دخل فيها ، وانصرف بها إلىٰ أهله كما ينصرف بالحاجة يشتريها من السوق ، فقد يرىٰ جماعة صورة واحدة من صور ذلك السوق فيشتهيها كل واحد من تلك الجماعة ، فعين شهوته فيها التبس بها ، ودخل فيها وحازها ، فيحوزها كل واحد من تلك الجماعة ، ومن لا يشتهيها بعينه واقف ينظر إلىٰ كل واحد من تلك الجماعة قد دخل في تلك الصورة وانصرف بها إلىٰ أهله ، والصورة كما هي في السوق ما خرجت منه) .

للرحمة الإيمانية ، وانتقلتْ إليه إرثاً من أبٍ إيماني أو أمٍّ إيمانية[1] ؛ ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ [الأحزاب : ٦] ، وهو أبٌ لهم[2] .

فلعلَّ هـٰذا معنىٰ قولِهِ عليه الصلاة والسلام : « إلا الصور مِن الرجالِ والنساءِ »[3] .

---

(١) انظر الحديث عن معرفة الآباء العلويات والأمهات السفليات في « الفتوحات المكية » (١/ ١٣٨) .

(٢) روى الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤١٥) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧/ ٦٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه كان يقرأ هـٰذه الآية : (النبيُّ أولىٰ بالمؤمنينَ من أنفسِهم وهو أبٌ لهم وأزواجُهُ أمهاتُهم) .

(٣) وإليك هـٰذه القطعة في الحديث عن مسألة الصورة والتجليات الإلـٰهية فيها ، وأحسب أن الإمام المصنف قد وقف عليها أو علىٰ مثلها والله أعلم؛ وهي للعارف الحاتمي ؛ حيث يقول في « الفتوحات المكية » (١/ ١٤٨) : (المسألة الأولى : الصورة : وهي تنقسم قسمين : صورة جسمية عنصرية تتضمن صورة جسدية خيالية ، والقسم الآخر صورة جسمية نورية .

ـ فلنبتدئ بالجسم النوري ؛ فنقول : إن أول جسم خلقه الله أجسام الأرواح الملكية المهيَّمة في جلال الله ؛ ومنهم العقل الأول ، والنفس الكل ، وإليها انتهت الأجسام النورية المخلوقة من نور الجلال ، وما ثَمَّ ملكٌ من هـٰؤلاء الملائكة مَنْ وُجِدَ بواسطة غيره إلا النفس التي دون العقل ، وكلُّ ملك خلق بعد هـٰؤلاء فداخلون تحت حكم الطبيعة ، فهم من جنس أفلاكها التي خلقوا منها ، وهم عُمَّارها ، وكذلك ملائكة العناصر ، وآخرُ صنفٍ من الأملاك : الملائكة المخلوقون من أعمال العباد وأنفاسهم ، فلنذكر ذلك صنفاً صنفاً في هـٰذا الباب إن شاء الله تعالىٰ :

اعلم : أن الله تعالىٰ كان قبل أن يخلق الخلق ولا قبلية زمان ، وإنما ذلك عبارة للتوصيل تدلُّ علىٰ نسبة يحصل بها المقصود في نفس السامع ؛ كان جلَّ وتعالىٰ في عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء ، وهو أول مظهر إلـٰهي ظهر فيه ، سَرَىٰ فيه النور الذاتيُّ كما ظهر في قوله : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، فلما انصبغ ذلك العماء بالنور فتح فيه صور الملائكة المهيَّمين الذين هم فوق عالم الأجسام الطبيعية ولا عرش ولا مخلوق تقدَّمهم .

فلما أوجدهم تجلَّىٰ لهم ، فصار لهم من ذلك التجلِّي غيباً ، كان ذلك الغيب روحاً لهم ؛ أي : لتلك الصور ، وتجلَّىٰ لهم في اسمه الجميل ، فهاموا في جلال جماله فهم لا يفيقون .

فلما شاء أن يخلق عالم التدوين والتسطير . . عيَّن واحداً من هـٰؤلاء الملائكة الكروبيين ، وهو أول ملك ظهر من ملائكة ذلك النور ، سمّاه العقلَ والقلمَ ، وتجلّىٰ له في مجلى التعليم الوهبي ، بما يريد إيجادهُ من خلقه لا إلىٰ غاية وحدٍّ ، فقَبِلَ بذاته علم ما يكون وما للحق من الأسماء الإلـٰهية الطالبة صدور هـٰذا العالم الخلقي ، فاشتق من هـٰذا العقل موجوداً آخر سماه اللوح ، وأمر القلم أن يتدلّىٰ إليه ويودع فيه جميع ما يكون إلىٰ يوم القيامة لا غير ، وجعل لهـٰذا القلم ثلاث مئة وستين سِنّاً في قلميَّته ؛ أي : من كونه قلماً ، ومن كونه عقلاً ثلاث مئة وستين تجلّياً أو رقيقة ، كلُّ سِنٍّ أو رقيقة تغترف من ثلاث مئة وستين صنفاً من العلوم الإجمالية ، فيفصلها في اللوح .

فهـٰذا حصر ما في العالم من العلوم إلىٰ يوم القيامة ، فعلمها اللوح حين أودعه إياها القلم ، فكان من ذلك علم الطبيعة ، وهو أول علم حصل في هـٰذا اللوح من علومِ ما يريد الله خلقه ، فكانت الطبيعة دون النفس ، وذلك كله في عالم النور الخالص .

ثم أوجد سبحانه الظلمة المحضة التي هي في مقابلة هـٰذا النور ؛ بمنزلة العدم المطلق المقابل للوجود المطلق ، فعندما أوجدها أفاض عليها النور إفاضة ذاتية بمساعدة الطبيعة فلأَمَ شعثَها ذلك النورُ ، فظهر الجسم المعبر عنه بالعرش ، فاستوىٰ عليه الاسم الرحمـٰن بالاسم الظاهر ، فذلك أول ما ظهر من عالم الخلق ، وخلق من ذلك النور الممتزج الذي هو مثل ضوء السحر الملائكةَ الحافين بالسرير ؛ وهو قوله : ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ ، فليس لهم شغل إلا كونهم حافين من حول العرش يسبحون بحمده ، وقد بينا خلق العالم في كتاب سميناه : « عقلة المستوفز » ، وإنما نأخذ منه في هـٰذا الباب رؤوس الأشياء .

ثم أوجد الكرسي في جوف هـٰذا العرش ، وجعل فيه ملائكة من جنس طبيعته ، فكلُّ فلك أصلٌ لما خَلَقَ فيه من عُمَّاره ، كالعناصر فيما خَلَقَ منها من عُمَّارها ، كما خلق آدمَ من تراب ، وعمر به وببنيهِ الأرضَ .

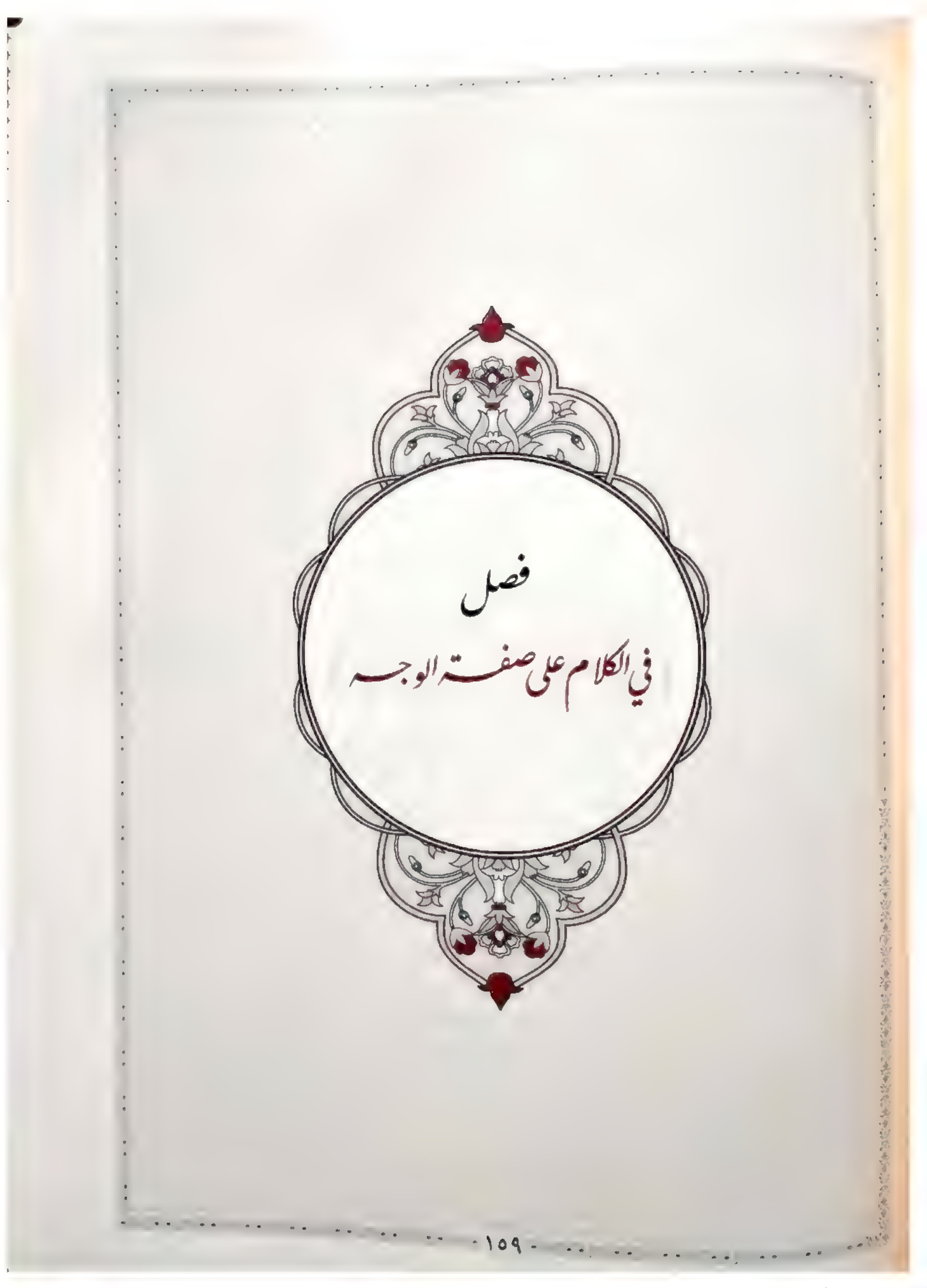
وقَسَمَ في هـٰذا الكرسي الكريم الكلمة إلىٰ خبر وحُكْم ؛ وهما القدمان اللتان تدلَّتا له من العرش كما ورد في الخبر النبوي .

ثم خلق في جوف الكرسي الأفلاك ، فلكاً في جوف فلك ، وخلق في كلِّ فلك عالماً منه يعمرونه ، سمَّاهم ملائكة ؛ يعني : رسلاً ، وزيَّنَها بالكواكب ، وأوحىٰ في كل سماء أمرها ، إلىٰ أن خلق صور المولَّدات .

* * *

= ولما أكمل الله هـٰذه الصور النورية والعنصرية بلا أرواح تكون غيباً لهـٰذه الصور.. تجلَّىٰ لكل صنف من الصور بحسب ما هي عليه ، فتكوَّنَ عن الصور وعن هـٰذا التجلي أرواحُ الصور ، وهي المسألة الثانية ، فخلق الأرواح ، وأمرها بتدبير الصور ، وجعلها غير منقسمة ، بل ذاتاً واحدة ، وميَّزَ بعضَها عن بعض فتميَّزَتْ ، وكان ميَّزَها بحسب قبول الصور من ذلك التجلي ، وليست الصور بأَيْنِيَّات لهـٰذه الأرواح على الحقيقة ، إلا أن هـٰذه الصور لها كالملك في حق الصور العنصرية ، وكالمظاهر في حق الصور كلها .

ثم أحدث الله الصور الجسدية الخيالية بتجلٍّ آخر بين اللطائف والصور تتجلَّىٰ في تلك الصور الجسدية الصور النورية والنارية ظاهرةً للعين ، وتتجلَّى الصور الحسية حاملةً للصور المعنوية في هـٰذه الصور الجسدية في النوم وبعد الموت وقبل البعث ؛ وهو البرزخ الصوري ؛ وهو قرن من نور أعلاه واسع وأسفله ضيق ، فإن أعلاه العماء ، وأسفله الأرض ، وهـٰذه الأجساد الصورية التي يظهر فيها الجن والملائكة وباطن الإنسان ، وهي الظاهرة في النوم وصور سوق الجنة ، وهي هـٰذه الصور التي تعمر الأرض) ، ولولا علقة هـٰذا الكلام بسياق الإمام المصنف كما ترىٰ.. لما أُورد هنا .



فصل

في الكلام على صفة الوجه



فصل
في الكلام على صفة الوجه

ومنها : صفةُ الوجه :

وقد جاء ذكرُهُ في آيات كثيرة ، فإذا أردت أن تعلمَ حقيقتَهُ ومظهره من الصورة[1] .. فاعلم : أن حقيقتَهُ من غمام الشريعة : بارقُ نور التوحيد ، ومظهرَهُ من العمل : وجهُ الإخلاص ؛ ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ... ﴾ الآيةَ [الروم ٣٠][2] .

ويدلُّ على أن وجهَ الإخلاص مظهرُهُ : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الأنعام : ٥٢] ، وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ [الإنسان ٩] ، وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [الليل ٢٠] ، والمرادُ في ذلك كلِّهِ : الثناءُ بالإخلاص علىٰ أهله تعبيراً بإرادة الوجهِ عن إخلاص النيَّة ، وتنبيهاً علىٰ أنه مظهرُ وجهِهِ سبحانه وتعالىٰ .

ويدلُّ علىٰ أن حقيقةَ الوجه هو بارقُ نور التوحيد : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص : ٨٨] أي : إلا

---

(١) لما تقدم (ص ١٤٤) من أن لكل صورة حقيقةً ومظهراً .

(٢) والآية بتمامها : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، قال العلامة ابن عطية في « المحرر الوجيز » (٤/٣٣٦) : (وإقامة الوجه : هي تقويم المقصد ، والقوة على الجد في أعمال الدين ، وذكر الوجه لأنه جامع حواس الإنسان وأشرفه) .

نورَ توحيدِهِ ؛ وهو نورُ السماواتِ والأرضِ ؛ بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : « أعوذُ بوجهِكَ الذي أشرقَتْ بهِ الظُّلماتُ ، وصلحَ عليهِ أمرُ الدنيا والآخرةِ »[1] .

وبهـٰذا تفهمُ سرَّ قوله تعالىٰ : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ١١٥] .

تنبيه

[علىٰ معنى التعوُّذ والتعلُّق بالصورة التي يأتي بها الله يومَ القيامة][2]

قولُهُ صلى الله عليه وسلم في حديثِ الرؤية : « فيأتيهم ربُّهم في غيرِ الصورةِ التي يعرفونَ »[3] ؛ أي : في ظُلَّةِ آيات العذاب ، ومظهرِ الأعمال السيئات ، « فيقولونَ : نعوذُ باللهِ منكَ » أي : فيستعيذون باللهِ من تلك الصورة كما كانوا في الدنيا ينكرونَها ويستعيذونَ منها .

قولُهُ : « فيأتيهم في الصورةِ التي يعرفونَ » أي : في مظهرِ أعمال البِرِّ ، وظُلَّةِ صفة الرحمة والنبوَّة التي كانت تحيي قلوبَهم بغيثِ الهدىٰ والعلم ، « فيقولونَ : أنتَ ربُّنا » ، فيعرفونَهُ بواسطة تعرُّفِهِ لهم في الدنيا ؛ تحقيقاً لقولِهِ صلى الله عليه وسلم : « أهلُ المعروفِ في الدنيا هم أهلُ المعروفِ في الآخرةِ »[4] .

* * *

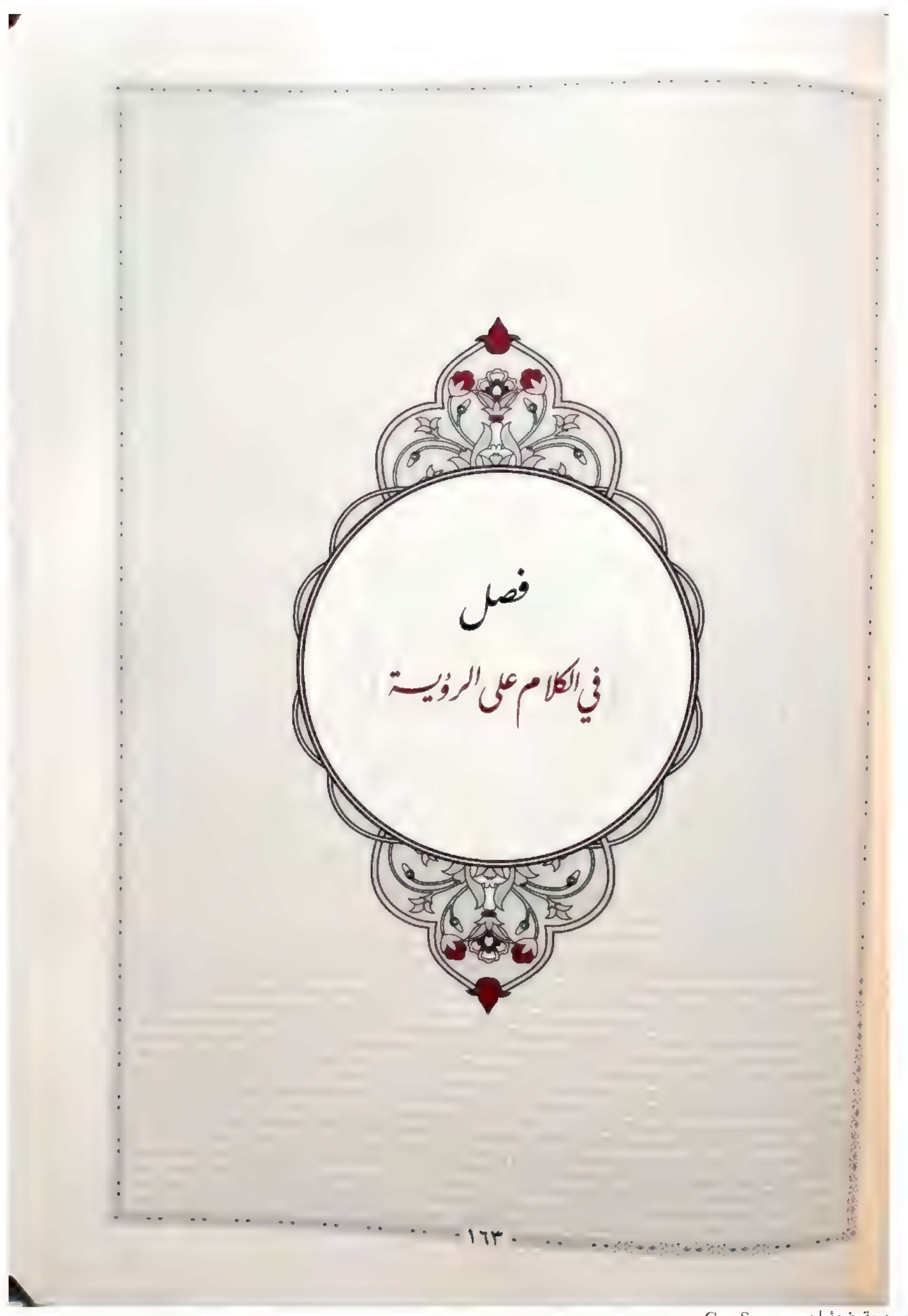
---

(١) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٣/ ٧٣) من حديث سيدنا عبد الله بن جعفر رضي الله عنه .

(٢) هـٰذا التنبيه فيه استدراك لمبحث الصورة المتقدم (ص ١٤٣) .

(٣) تقدم (ص ١٤٣) .

(٤) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٢٢١) من حديث سيدنا قبيصة بن برمة الأسدي رضي الله عنه ، وتمامه : « وأهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة » ، ولا يخفى الرمز الذي أومأ إليه الإمام المصنف رحمه الله تعالى .



فصل

في الكلام على الرؤية



فصل
في الكلام على الرؤيــة

ومنها : صفةُ الرؤية[1] :

وقد جاءَتْ في غيرِ ما آيةٍ ، وفي أحاديثَ ؛ منها : في هـٰذا الحديث[2] : قولُهُ صلى الله عليه وسلم : « هل تمارونَ في رؤيةِ القمرِ » ، وفي رواية : « في الشمسِ »[3] .

وإذا ثبتَ تجلِّيه تعالىٰ في صورة روحِ الشريعة[4] .. لم يبقَ في رؤيته إشكال .

---

(١) لا شكَّ أن رؤية الله تعالىٰ لخلقه صفةٌ له سبحانه ؛ وهي صفة البصر ، إلا أن حديث الإمام المصنف هنا عن رؤية العباد لمولاهم جل وعز ؛ وهي فعله ، وليست صفة له تعالىٰ ؛ ولهـٰذا تُنعتُ بالجواز ؛ فيقال : يجوز في حقِّهِ سبحانه أن يُرىٰ ، وصفات الحق لا تكون إلا واجبة ، فتحمل عبارة المصنف علىٰ مطلق الوصفية التي يدخل تحتها الوصف بالأفعال ، فيقال : يُوصف الله تعالىٰ بأنه يُرىٰ ؛ بمعنىٰ : يخلق معنىً وإدراكاً في قلب الرائي يسمَّىٰ رؤية له تعالىٰ ، فيدخل في ذلك الجائزات في حقه ، لا علىٰ معنى الصفة الاصطلاحية عند علماء العقيدة .

ووجه كون رؤيته سبحانه من المتشابه : هو أن القديم لا سبيل للحادث إلىٰ إدراكه ؛ والرؤية نوع إدراك ، إلا أن الشارع أخبر بوقوعها ، فوجب فهمها بردِّها إلىٰ محكمها : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : ١٠٣] .

(٢) يعني : حديث الصورة المذكور آنفاً (ص ١٤٣) .

(٣) هما جملتان من حديث واحد رواه البخاري (٨٠٦) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، ولفظ الجملة الثانية : « فهلْ تمارونَ في الشمسِ ليسَ دونَها سحابٌ ؟ » .

(٤) انظر ما تقدم (ص ١٣٢) .

وإنَّما عبَّرَ بالقمر والشمسِ عن حقيقةِ الوجه ؛ وهو نورُ التوحيد .

واختلافُ الروايتينِ يجوز أن يكونَ تنبيهاً على اختلافِ درجات الرائينَ في نعيم الرؤية[1] ، ويجوزُ أن يكون باعتبار الرؤية في البرزخ والآخرة ؛ فإنَّ البرزخ في وجودِهِ كالليل ، وآيته القمرُ ، والآخرةَ كالنهار ، وآيته الشمسُ .

قولُهُ : « ليسَ دونَها سحابٌ » فيه تربيةٌ لأهل المراقبة ؛ وذلك لأن غالبَ أهل المراقبة لا يشهدون بقلوبِهم عند العبادة والمراقبة إلا ظُلَلَ آياتِ الشريعة ، ويحجبون بسحابها عن شهود وجهِ ربِّهم ؛ وهو نورُ توحيده .

فإذا كان يومُ القيامة كُشِفَ الغطاء ، واحتدَّ البصر[2] ، فيرون وجهَ ربِّهم كشمسٍ ليس دونها سحابُ الأعمال ، ولا ظُلَلُ غمام الشرائع ، بل هو أقربُ إليهم من أعمالهم ؛ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦][3] .

---

(١) تقدم أنهما ليستا روايتين ، بل جملتان تنويعيَّتان في حديث واحد ، وهـٰذا لا يعطِّل ما أهدفَ له الإمام المصنفُ وعرضَ لبيانه ، وتقدم أن اختلاف الرؤية عائد لاختلاف الاعتقادات في الدنيا ؛ فكلٌّ يراه سبحانه علىٰ مبلغ علمه به تعالىٰ وجلَّ .

(٢) احتدَّ البصر : صُقل فاشتدَّ وقوي ، فهو حديد ، قال تعالىٰ : ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق : ٢٢] .

(٣) قال حجة الإسلام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٩/ ٦٢٨) عن رؤيته سبحانه : (هـٰذه هي غاية الحسنىٰ ، ونهاية النعمىٰ ، وكلُّ ما فصَّلناه من التنعُّم عند هـٰذه النعمة يُنسىٰ ، وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهىً ، بل لا نسبةَ لشيء من لذات الجنة إلىٰ لذة اللقاء) .

ثم قال : (فلا ينبغي أن تكون همة العبد من الجنة بشيء سوىٰ لقاء المولىٰ ، وأما سائر نعيم الجنة فإنه يشاركه فيه البهيمة المسرَّحة في المرعىٰ) .

وقال أيضاً (٨/ ٤٣٠) وهو يتحدث عن تفاوت الرؤية في الجنة : (وبحرُ المعرفة لا ساحل له ، فالإحاطة بكُنْهِ جلال الله محال ، فكلَّما كثرت المعرفة بالله وبصفاته وأفعاله وبأسرار =



[علىٰ إنكار القاضي ابن العربي المالكي رؤية الله في الموقف]

قد أنكرَ القاضي أبو بكر بن العربيّ في « الأحوذي »[1] ثبوت الرؤية في الموقف ، وقال : (إن نعيم الرؤية لا يكون إلا للمؤمنين في الجنة ، وما جاء من الرؤية في الموقف إنّما هو علىٰ سبيل الامتحان والاختبار)[2] .

والذي نعتقده ثبوتُ الرؤية ونعيمِها للمؤمنين في الموقف علىٰ ما صحَّ في الحديث[3] ، وذلك صريحٌ في قوله تعالىٰ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٢-٢٣][4] .

= مملكته وقويت . . كثر النعيمُ في الآخرة وعظم ، كما أنه كلّما كثرَ البذرُ وحسُنَ . . كثر الزرع وحسن ، ولا يمكن تحصيل هـٰذا البذر إلا في الدنيا ، ولا يزرع إلا في صعيد القلب ، ولا حصاد إلا في الآخرة .

ولهـٰذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله » ؛ لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتتسع في العمر الطويل بمداومة الفكر ، والمواظبة على المجاهدة ، والانقطاع عن علائق الدنيا ، والتجرد للطلب ، ويستدعي ذلك زماناً لا محالة .

فمن أحبَّ الموت أحبَّه لأنه رأىٰ نفسه واقفاً في المعرفة ، بالغاً إلىٰ منتهىٰ ما يُسِّرَ له ، ومن كره الموت كرهه لأنه كان يؤمل مزيدَ معرفة تحصل له بطول العمر ، ورأىٰ نفسه مقصِّراً عما تحتمله قوته لو عُمِّرَ ، فهـٰذا سبب كراهة الموت وحبه عند أهل المعرفة ، وأما سائر الخلق فنظرهم مقصورٌ علىٰ شهوات الدنيا ؛ إن اتسعت أحبوا البقاء ، وإن ضاقت تمنَّوا الموت ، وكلُّ ذلك حرمان وخسران مصدره الجهل والغفلة ، فالجهل والغفلة مغرس كل شقاوة ، والعلم والمعرفة أساس كل سعادة) ، ما أغور هـٰذا الكلام !

(١) أراد : كتاب « عارضة الأحوذي » الذي شرح فيه « سنن الترمذي » .

(٢) انظر « عارضة الأحوذي » (١٠/ ٢٣) ، وعبارته فيها : (إنما محل الرؤية الجنة ، وإنما تكون هـٰذه المراجعات بين الحق وبين الواسطة ، وإلا فإن الله لا يكلم الكفار ولا يرونه ، ولا يراه أحد إلا بها ، ولا يكلمهم إلا في الجنة بإجماع العلماء) .

(٣) يعني : في الحديث المارِّ الذكر قريباً ، الذي فيه المراجعة وذكر التجلي في الصورة .

(٤) أما كون الآية الكريمة صريحةً بوقوع الرؤية للمؤمنين يوم القيامة . . فنعم ، إلا أنها ليست =

تنبيه

[على الرداء والحُجُبِ والسُّبحات لوجهه سبحانه]

لوجهِ ربِّنا سبحانه وتعالىٰ : رداءٌ ، وله حُجُبٌ ، وله سُبُحات .

[بيان معنى الرداء]

فأمّا رداؤُهُ : فقد نبَّهَ عليه قولُهُ صلى الله عليه وسلم في حديث [أبي بكرِ بن] عبدِ الله بن قيسٍ عن أبيه[1] : « جنَّتانِ مِنْ فضَّةٍ آنيتُهُما وما فيهما ، وجنَّتانِ مِنْ

= صريحةً في وقوعها في الموقف قبل دخول الجنة ، ولكنها محتملة له ؛ لإطلاق النظر في ذلك اليوم ، فهذا هو وجه صراحتها ، ولعل الإمام المصنف ركَّب بين الحديث والآية دليلاً لما ذهب إليه ، والله أعلم ، وقد نقل عنه هذا السياق الإمام ابن السبكي في « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٩/ ٦٩) .

فائدة : قال حجة الإسلام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٨/ ٤٣٢) : (فإن قلت : فهذه الرؤية محلُّها القلب أو العين في الآخرة ؟

فاعلم : أن الناس قد اختلفوا في ذلك ، وأرباب البصائر لا يلتفتون إلى هذا الخلاف ولا ينظرون فيه ، بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن المبقلة ، ومن يشتهي رؤية معشوقه يشغله عشقُهُ عن أن يلتفت إلى أن رؤيته : هل تُخلق في عينه أو في جبهته ؟ بل يقصد الرؤية ولذَّتَها ، سواء كان ذلك بالعين أو غيرها ، فإن العين محل وظرف ، لا نظر إليه ولا حكم له .

والحق فيه : أن القدرة الأزلية واسعةٌ ، فلا يجوز أن نحكم عليها بالقصور عن أحد الأمرين ، هذا في حكم الجواز .

فأما الواقع في الآخرة من الجائزين : فلا يدرك إلا بالسمع ، والحق : ما ظهر لأهل السنة والجماعة من شواهد الشرع ؛ أن ذلك يخلق في العين ؛ ليكون لفظ الرؤية والنظر وسائر الألفاظ الواردة في الشرع يجري على ظاهره ؛ إذ لا يجوز إزالة الظواهر إلا لضرورة ، والله تعالىٰ أعلم) .

(١) ما بين المعقوفين زيادة يقتضيها السياق ؛ إذ الراوي عن رسول الله عليه الصلاة والسلام هو سيدنا أبو موسى الأشعري عبدُ الله بن قيس رضي الله عنه .

ذهبٍ آنيتُهُما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أنْ ينظروا إلىٰ ربِّهم إلا رداءُ الكبرياءِ علىٰ وجهِهِ تعالىٰ في جنَّةِ عدنٍ »[1] .

فالرداءُ ها هنا واللهُ أعلم : هو ما يحجبُ القلبَ عن رؤية الربِّ ؛ وهو أن يكون في قلبِكَ كبرياءُ لغيره عزَّ وجلَّ ، فأهلُ الجنة ليس لهم مانعٌ من نعيم الرؤية وشهود نور التوحيد إلا رداءُ الكبرياء ، فمَنْ كَبُرَ في قلبه غيرُ الله سبحانه ؛ من غُرَفٍ أو تُحَف ، أو قصورٍ أو حُور ، أو مأكولٍ أو مشروب ، أو شيءٍ سواهُ . . حُجِبَ عن الله سبحانه[2] .

---

(١) رواه البخاري (٤٨٧٨) ، ومسلم (١٨٠) ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « جنة عدن » قال الحافظ القسطلاني في « إرشاد الساري » (١٠/ ٤٠٩) : (أي : جنة إقامة ، وهو ظرف للقوم ، لا لله تعالىٰ ؛ إذ لا تحويه الأمكنة) .

(٢) سياق الإمام المصنف هنا : يُفهم منه أن أهل الجنة وهم في الجنة قد يحجبون برداء الكبرياء ، وفسَّره بأن يقع في قلب المحجوب عن الرؤية تكبيرٌ لشيء سواه سبحانه ، ويمكن حمل هـٰذا المعنىٰ (تكبير ما سواه تعالىٰ) علىٰ الفترات الواقعة في الجنة التي لا تحصل فيها رؤية لله تعالىٰ ، فيَحجبُ الله هـٰؤلاء العبادَ عن رؤيته في الجنة بقدر الغفلات الحاصلة في الدنيا عند تكبير ما سواه ، فليس النظر إلىٰ وجهه الكريم في الجنة للمؤمنين علىٰ رتبة واحدة ؛ فلا يساوي نظرَ الأنبياء لربهم ـ فضلاً عن ماهية هـٰذه الرؤية ـ نظرُ غيرهم من عامة المؤمنين ، بل بعض المؤمنين يشتغلون في الجنة بملاذِّهم ، وهـٰذا الشغل هو نعيمهم ، وكلٌّ نعيمه علىٰ قدر معرفته بربه ، وقد نقلت لك (ص ١٤٨) قالةَ العارف أبي يزيد : (إن لله عباداً لو حجبَهم في الجنة عن رؤيته . . لاستغاثوا من الجنة كما يستغيثُ أهلُ النار من النار) ، وجعل الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (١٣/ ٤٣٢) المانعَ من الرؤية بعد دخول الجنة . . وقوع الهيبة من ذي الجلال سبحانه عند تبوُّئهم مقاعدَهم فيها .
وقال العلامة محمد أنور شاه الكشميري في « فيض الباري » (١/ ٩٢) بعد حديثه عن رؤيته عليه الصلاة والسلام لربه سبحانه : (ومن ها هنا اختلفوا في نفس الرؤية لعامة المسلمين في الجنة : هل تحصل برفع الحجاب ؟ أو تكون في الحجاب ؟
فجنح الشيخ الأكبر : إلىٰ أن رداء الكبرياء لا يُرفعُ في الجنة أيضاً ؛ فإن المرئي في الرداء يعدُّ ذاتُهُ مرئياً عرفاً ، كما لو رأيت رجلاً في ملبوس ، لا تقول إلا إنك رأيتَ ذاتَهُ حقيقةً ، =

ومن عرف اللهَ سبحانه صَغُرَ عنده كلُّ شيء[1] ، فارتفعَ عن بصره رداءُ الكبرياء لكلِّ شيء ، فشهدَ اللهَ سبحانه في كلِّ شيء .

وبهذا يظهرُ لك سرُّ افتتاح الصلاة بالتكبير ؛ لأن الصلاةَ حضرةُ التجلِّي والمناجاة ، والمراقبة لأنوار سُبُحات وجهِهِ سبحانه وتعالىٰ[2] .

= ولا يشترط لرؤية الشخص رؤيتُهُ مجرَّداً عن اللباس ، وإنما يكون المراد منه ما هو المعروف ، والمعروف فيها ما قلنا ، فكذلك الله سبحانه يكون مرئيّاً ألبتة ، إلا أن رؤيته تكون في رداء الكبرياء عنده ؛ وهي التي بشَّرَ بها الله سبحانه عبادَهُ بالغيب .

وذهب العلماء : إلىٰ أنها تكون برفع الحجاب ؛ علىٰ ما وقع من تشبيه رؤيته برؤية القمر ليلةَ البدر ، وهٰذا التشبيه لا يرد علىٰ ما اختاره الشيخ كما سبقت الإشارة إليه ؛ فإن المراد في الأحاديث من عدم الحجاب عنده . . سوىٰ حجابه الذي هو نوره ورداؤه الكبرياء ، والرؤية مع الرداء رؤية للذات عرفاً وشرعاً بلا تأويل وتأمل .

قلت : وليس هٰذا اختلافاً ، وإنما هو اختلاف الأنظار ، ونظرُ العلماء أحكمُ ، ونظرُ أرباب الحقائق أسبقُ وألطف ، فهم يمثِّلون علىٰ ما يظهر من ظاهر الشريعة ، وهٰؤلاء يراعون ما كشف الله سبحانه عليهم من حقائق الشريعة وخبيئة أسرارِها ؛ وفي الحديث : « لكلِّ آيةٍ ظهرٌ وبطنٌ ، ولكلِّ حدٍّ مطلعٌ » ، والأمر إلى الله سبحانه) .

(١) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٩/٣٥٦) عن ذي النون المصري قال : بينا أنا أسير في بلاد الشام إذا أنا بعابد خرج من بعض الكهوف ، فلما نظر إليَّ استتر بين تلك الأشجار ، ثم قال : أعوذ بك سيدي ممَّنْ يشغلني عنك ، يا مأوى العارفين ، وحبيب التوابين ، ومعين الصادقين ، وغاية أمل المحبِّين ، ثم صاح : وا غمَّاهْ من طول البكاء ، وا كرباهْ من طول المكث في الدنيا ، ثم قال : سبحان من أذاق قلوبَ العارفين به حلاوةَ الانقطاع إليه ، فلا شيء ألذُّ عندهم من ذكره والخلوة بمناجاته ، ثم مضىٰ وهو يقول : قدوس قدوس قدوس .
قال ذو النون : فناديته : أيُّها العابد ؛ قفْ لي ، فوقف لي وهو يقول : اقطعْ عن قلبي كلَّ علاقة ، واجعل شغله بك دون خلقك ، فسلمتُ عليه ، ثم سألته أن يدعو اللهَ لي ، فقال : خفَّفَ الله عنك مؤنَ نصب السير إليه ، ودلَّكَ علىٰ رضاه حتىٰ لا يكون بينك وبينه علاقة ، ثم سعىٰ من بين يديَّ كالهارب من السَّبُع .

(٢) روى البخاري (٤٠٥) ، ومسلم (٥٥١) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم رأىٰ نخامة في القبلة ، فشَقَّ ذلك عليه حتىٰ رئي في وجهه ، فقام فحكَّهُ =

إشارة

[إلىٰ أن نعيم الرؤية يحصل لأرباب القلوب في رياض جنة الأذكار وساعة المراقبة]

صحَّ في الحديث : « أنَّ غراسَ الجنَّةِ : سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ »[1] .

وفي الحديث : « إذا رأيتُمْ رياضَ الجنَّةِ فارتَعوا » ، قيل : وما رياضُ الجنة ؟ قال : « حِلَقُ الذكرِ »[2] .

= بيده ، فقال : « إنَّ أحدَكم إذا قامَ في صلاتِهِ فإنَّهُ يناجي ربَّهُ » ، أو « إنَّ ربَّهُ بينَهُ وبينَ القبلةِ ، فلا يبزقَنَّ أحدُكم قِبَلَ قبلتِهِ ، ولٰكنْ عن يسارِهِ أو تحتَ قدميهِ » ، ثم أخذ طرف ردائه ، فبصق فيه ، ثم ردَّ بعضه علىٰ بعض ، فقال : « أو يفعلُ هٰكذا » .

وعن حال المكبِّر في الصلاة واستحضار معنىٰ هٰذا الكبرياء يقول حجة الإسلام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (١/٦١٧) : (أما التكبير : فإذا نطق به لسانك فينبغي ألا يكذبه قلبُكَ ؛ فإن كان في قلبك شيءٌ هو أكبرُ من الله سبحانه .. فالله يشهدُ إنك لكاذبٌ وإن كان الكلام صدقاً ؛ كما شهد على المنافقين في قولهم : إنه صلى الله عليه وسلم رسولُ الله ، فإن كان هواك أغلبَ عليك من أمر الله عز وجل .. فأنت أطوعُ له منك لله تعالىٰ ؛ فقد اتخذته إلـٰهكَ وكبَّرتَهُ ، فيوشك أن يكون قولك : الله أكبر .. كلاماً باللسان المجرد ، وقد تخلَّفَ القلب عن مساعدته ، وما أعظم الخطر في ذلك ! لولا التوبة والاستغفار ، وحسن الظن بكرم الله تعالىٰ وعفوه) ، وهٰذا كلام يعين قارئه علىٰ ما أشار له المصنف رحمه الله تعالىٰ .

(١) رواه الترمذي (٣٤٦٢) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه ، ولفظه بتمامه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقيتُ إبراهيمَ ليلةَ أُسريَ بي ، فقالَ : يا محمد ؛ أقرئْ أمَّتَكَ منِّي السلامَ ، وأخبرْهم أنَّ الجنَّةَ طيبةُ التربة ، عذبةُ الماء ، وأنَّها قيعانٌ ، وأنَّ غراسَها : سبحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، ولا إلـٰهَ إلا اللهُ ، واللهُ أكبرُ » .

وجهُ الإشارة : أن التسبيح تنزيه وتقديس ؛ وهو جامع لكل صفات الجلال (السلبية عند المتكلمين) ، وأن التحميد ثناء راجع لإثبات صفات الكمال (المعاني عند المتكلمين ، والمعنوية تبع له) ، وهما مجامع المعرفة الإلـٰهية .

(٢) رواه الترمذي (٣٥١٠) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، ولفظه : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » . =

وفي ذلك إشارةٌ : إلىٰ أن نعيمَ الرؤية يحصلُ لأرباب القلوب في رياض جنَّةِ الأذكار ، وعند المراقبةِ ، وارتفاعِ رداء الكبرياء عن وجه التوحيد .

[بيان معنى الحُجُب][1]

وأما حُجُبُهُ : فقد ثبتَ في « الصحيح » : « حجابُهُ النورُ » ، وفي رواية : « حجابُهُ النارُ »[2] ، وليسَ بين الروايتين تنافٍ ، ولك في تأويله سبيلانِ :

أحدهما : أن وجهَهُ سبحانه هو الباقي ذو الجلالِ والإكرام ؛ فله تجلٍّ بجلاله في حجابِ النار ؛ كما تجلَّىٰ لموسىٰ عليه السلام حين آنسَ من جانب

= ووجهُ الإشارة : أن الجنة هي محلُّ الجزاء ، وهي لا تطلب لذاتها ، بل لجوار الحقِّ فيها ؛ ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ ﴾ [التحريم : ١١] ، فالذاكر الحاضر محصِّلٌ لهٰذا المقصود العظيم ؛ فهو في الجنة وإن لم يدخلها بعدُ .

وإلىٰ هٰذا المعنىٰ رمز الحجة الغزالي في خبايا ثنايا قوله في « إحياء علوم الدين » (٥/ ٥٥) : (جملة عالم الملك والملكوت إذا أُخذَتْ دفعةً واحدة تسمى الحضرة الربوبية ؛ لأن الحضرة الربوبية محيطةٌ بكل الموجودات ؛ إذ ليس في الوجود شيء سوى الله تعالىٰ وأفعاله ، ومملكته وعبيده من أفعاله ، فما يتجلَّىٰ من ذلك للقلب هي الجنة بعينها عند قوم ، وهو سبب استحقاق الجنة عند أهل الحق ، ويكون سعة ملكه في الجنة بحسب سعة معرفته ، وبمقدار ما تجلَّىٰ له من الله وصفاته وأفعاله) .

وحدَّثَ عن علاقة الذكر بالسعادة الأبدية في « إحياء علوم الدين » (٢/ ٤٥٩) أيضاً فقال : (اعلمْ : أن الناظرين بنور البصيرة علموا أنه لا نجاةَ إلا في لقاء الله تعالىٰ ، وأنه لا سبيل إلى اللقاء إلا بأن يموت العبد محباً لله تعالىٰ وعارفاً بالله سبحانه ، وأن المحبة والأنس لا تحصلُ إلا من دوام ذكر المحبوب والمواظبة عليه ، وأن المعرفة به لا تحصل إلا بدوام الفكر فيه وفي صفاته وأفعاله ، وليس في الوجود سوى الله تعالىٰ وأفعاله ، ولن يتيسر دوام الذكر والفكر إلا بوداع الدنيا وشهواتها ، والاجتزاء منها بقدر البلغة والضرورة ، وكلُّ ذلك لا يتم إلا باستغراق أوقات الليل والنهار في وظائف الأذكار والأفكار) .

(١) في (ب) وحدها زيادة هنا : (لطيفة) .

(٢) رواه مسلم (١٧٩) من حديث سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، وهو متضمِّن للروايتين المذكورتين هنا .

الطورِ ناراً[1] ، وله تجلٍّ بإكرامه في حجابِ النور ؛ كما تجلَّىٰ لمحمدٍ صلى الله عليه وسلم في ليلةِ الإسراء ؛ في قولِهِ صلى الله عليه وسلم : « رأيتُ نوراً »[2] ، وهـٰذانِ الحجابانِ لأهلِ الخصوص .

---

(١) قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۞ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص : ٢٩ـ٣٠] .

(٢) رواه مسلم (١٧٨) عن عبد الله بن شقيق قال : قلت لأبي ذر : لو رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم لسألتُهُ ، فقال : عن أيِّ شيء كنتَ تسألُهُ ؟ قال : كنت أسأله : هل رأيت ربَّكَ ؟ قال أبو ذر : قد سألتُ ، فقال : « رأيتُ نوراً » .

وقال العلامة محمد أنور شاه الكشميري في « فيض الباري » (١/ ٩١) في شرح قوله عليه الصلاة والسلام : « نور أنَّىٰ أراه » و« رأيت نوراً » : (وهـٰذا أيضاً يحتمل المعنيين ؛ أي : رأيت نوراً فحسب دون الذات ومنعني النورُ عن رؤيتها ، أو رأيت ذاتاً منوَّراً ، وقد فهم الناس التقابلَ بين هـٰذين الاحتمالين ، وهما عندي واحدٌ ؛ فإن الرؤية التي حصلت له صلى الله عليه وسلم كانت رؤيةً حقيقية ، وأمكن أن تكون بدون الحجاب أيضاً ، إلا أن مهابة الكبرياء منع التحديقَ إليه ، فصارت بين بين ، وكان كما قيل : (من الكامل)

فبدا لينظرَ كيفَ لاحَ فلمْ يطقْ   نظراً إليهِ وردَّهُ أشجانُهُ

ولـٰكنه صلى الله عليه وسلم تشرَّف برؤيته تعالىٰ ، ومنَّ عليه ربُّهُ بها وكرَّمه ، وتفضَّل عليه بنواله ، وأفاض عليه من إفضاله ، فرآه رآه ـ كما قال أحمد رحمه الله تعالىٰ مرتين ـ ، إلا أنه رآه كما يرى الحبيبُ إلى الحبيب ، والعبدُ إلىٰ مولاه ؛ لا هو يملكُ أن يكفَّ عنه نظره ، ولا هو يستطيعُ أن يشخصَ إليه بصرَه ؛ وهو قوله تعالىٰ : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم : ١٧] ، فالزيغُ : أن يتغافلَ عن جمال وجهه ، فلا يراه مستجمعاً ، والطغيانُ : أن يراه ولـٰكن يتجاوز عن حدِّهِ ، فيقع في إساءة الأدب ، وهـٰذا إثبات لرؤيته في غاية اعتدال .

فالحاصل : أنها كانت بحيث لا يصفُها واصف ، أما أنها كيف كانت ؟ فلا تسأل عنها ؛ فإنها كانت وكانت . (من مجزوء الكامل)

أشتاقُهُ فإذا بدا   أطرقتُ مِنْ إجلالِهِ

ولو كانت رؤية منام لما احتيج إلىٰ تلك الاحتراسات) .

التأويلُ الثاني : وهو لأربابِ العموم ، يؤخذُ ممّا قرّرناه أنه لا فاعل في الكون غيرُهُ تعالىٰ ، ولا هاديَ ولا مضلَّ سواه ، يهدي من يشاءُ ، ويضلُّ من يشاءُ ؛ ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء ٢٣] .

فوجهُ توحيدِهِ : هو الذي يُنعِّمُ ويَهْدي بإقباله ، ويُعذِّبُ ويُضِلُّ بإعراضه .

وله في هدايتِهِ وإضلاله حجابانِ :

فحجابُهُ في هدايته النورُ : وهو آياتُهُ المتجلِّية للقلوب بواسطة شرائعِ رُسُلِهِ ؛ قال تعالىٰ : ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ ﴾ [المائدة ١٥ـ١٦] .

وحجابُهُ في إضلاله النارُ : وهي الأكسابُ المغشِّيةُ للقلوب من وساوس الشيطان المخلوقِ من النار[١] ؛ ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ * كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين : ١٤ـ١٥] .

فقد تبيَّنَ بذلك : أن وجهَ توحيدِهِ هو الهادي بإقباله في حجابِ نورِ الاتِّباع للرُّسُل ؛ ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه ١٢٣] ، وأنه هو المضلُّ بإعراضِهِ في حجابِ نارِ الاتِّباع لوساوس الشيطان ، وأنه لا تنافيَ بين قوله : « حجابُهُ النورُ » ، وبين قوله : « حجابُهُ النارُ » .

وبذلك تفهمُ سرَّ قوله صلى الله عليه وسلم : « اللهمَّ ؛ اجعلْ في قلبي نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً. . . » إلىٰ قوله : « واجعلْني نوراً »[٢] ؛ أي : اجعلني نوراً من جميع الوجوهِ دالّاً عليك ، وحجاباً يتنعّم برؤيتي مَنْ أراد التنعُّم بحسن النظرِ إليك .

---

(١) الأكساب : جمع كسب ؛ وهو حظُّ المكلَّف من الفعل ، طاعة كان أو معصية ؛ وهو تعلُّق القدرة الحادثة المتوهَّمة بالأفعال الاختيارية الحادثة .

(٢) رواه البخاري (٦٣١٦) ، ومسلم (٧٦٣) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

لطيفة

[في بيان تعدُّد حُجُب الأنوار]

جاءَ في « الصحيح » : « إنَّ للهِ سبعينَ حجاباً مِنْ نورٍ »[(١)] ، وذلك لا تنافيَ بينه وبين قوله : « حجابُهُ النورُ » ؛ لأنه جنسٌ يصلح لشمول الأفراد وإن تعدَّدَتْ .

والحقُّ : أن حُجُبَ أنواره لا حصرَ لها[(٢)] ، لأنه ما من شيءٍ إلا وهو حجابٌ من حُجُبِ وجه ربِّنا تعالىٰ ، وآيةٌ من آيات وحدانيَّتِهِ[(٣)] .

وفــي كــلِّ شــيءٍ لــهُ آيــةٌ ... تــدلُّ علــىٰ أنَّــهُ واحــدُ[(٤)]

---

(١) رواه الطبراني في « المعجم الأوسط » (٦٤٠٧) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله ، وانظر « إتحاف السادة المتقين » (٢/ ٧١) ، وقد أفاض القول في تفسير هـٰذه الرواية الإمام الغزالي في « مشكاة الأنوار » ، (ص٨٤) .

(٢) قال الحافظ المناوي في « فيض القدير » (٤/ ٧٨) وهو يتحدث عن هـٰذه الحُجُب : (ذكره السبعين ليس للتحديد ، بل عبارةٌ عن الكثرة ؛ لأن الحجب إذا كانت أشياءَ حاجزة فالواحدُ منها يحجب ، والله لا يحجبُهُ شيء ، والقدرة لا نهايةَ لها ، وإن كانت الحجب عبارةً عن الهيبة والإجلال ، والأعداد دونها منقطعةٌ بكلِّ حال ، والغايات مرتفعة ، وكيف تكون السبعين غايةً مع خبر : « إن دون الله يوم القيامة سبعين ألف حجاب » ؟! والنورُ وإن كان سبباً لإدراك الأشياء ورؤيتها ، لـٰكنه يَحْجُبُ كالظلمة ، والحاجبُ القدرة دون الجسم ، وحُجِبَ هـٰذا الملَكُ الأعظم عن تجلِّي كُنْهِ عظمته ؛ لأنه هو وغيره لا يصبرون لعظيمِ هيبته ، فحجبَهم ليكون لهم البقاءُ إلى الآجال المضروبة ، وإلا هلكوا) .

(٣) قال الحافظ الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين » (٢/ ٧٢) ناقلاً بعض ما قال العلماء في تفسير هـٰذا الخبر : (قيل : معناه : أن الله عز وجل علاماتٍ ودلالاتٍ علىٰ وحدانيته ؛ لو شاهدها الخلق لقامت مقامَ العِيان في الدلالة عليه ، غير أنه خلق دون تلك الدلائل سبعين ألف حجاب من نور وظلمة ؛ ليتوصل الخلق إلىٰ معرفته بالأدلة النظرية دون المعارف الضرورية) .

(٤) البيت من المتقارب ، وهو لأبي العتاهية كما في « ديوانه » (ص١٠٤) ، وقبله : =

وبمثل ذلك : تفهمُ قولهُ سبحانه وتعالى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . . ﴾ الآيَةَ [النور ٣٥] ، وقولهُ تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ١١٥] .

وبذلك : تعلمُ أن ذكر عدد السبعين في حُجُبه ليس للحصر ؛ قال الأزهريُّ وغيره من علماء اللغة : (العرب تضعُ السبعَ موضع التضعيف وإن جاوز السبع ، وأصلُهُ قولهُ تعالىٰ : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ . . . ﴾ الآيَةَ ، [البقرة : ٢٦١])(١) .

وأصلُ الاعتبار لهٰذا العددِ في تضعيف حُجُبِهِ تعالىٰ : أن لله صفاتٍ ذاتيَّةً(٢) ؛ وهي : العلمُ ، والحياةُ ، والقدرةُ ، والإرادةُ ، والسمعُ ، والبصرُ ، والكلامُ ، فهٰذه سبعُ صفات ذاتية يتجلَّىٰ سبحانه وتعالىٰ في حُجُبِ أنوارها بوجهِ توحيده ، فكانت هي مبدأَ التضعيفِ في حُجُبِ أنواره .

ثم لأعدادِ التضعيف ثلاثُ رتب : رتبة العشرة ، ورتبة المئة ، ورتبة الألف .

= وللهِ في كلِّ تحريكةٍ ... وتسكينةٍ أبداً شاهدُ

وعن هٰذا الشهود في أجزاء الوجود يقول حجة الإسلام الغزالي في « المقصد الأسنىٰ » (ص ١١١) : (وكل ما في الوجود نورٌ من أنوار القدرة الأزلية وأثرٌ من آثارها ، وكما أن الشمس ينبوع النور الفائض علىٰ كلِّ مستنير ؛ فكذلك المعنى الذي قصُرَت العبارة عنه فعُبِّرَ عنه بالقدرة الأزلية للضرورة . . هو ينبوعُ الوجود الفائض علىٰ كلِّ موجود ، فليس في الوجود إلا الله تعالىٰ ، فيجوز أن يقول العارف : لا أعرف إلا الله) .

(١) انظر « تهذيب اللغة » (٢/ ٧٠) ، ومطلع عبارته فيه : (والعرب تضع التسبيع موضع التضعيف وإن جاوز السبع) .

(٢) وهي صفات المعاني المتفق عند جميع الفرق الإسلامية علىٰ معنويَّاتها ، فلا خلاف عندهم جميعاً أنه تعالىٰ متجلٍّ علىٰ عباده بها ، وإن اختلفوا في أصولها التي ذكرها الإمام المصنف هنا .

وآيات[1] صفاته في تجلّياته تتضاعفُ بكلِّ رتبة في كلِّ دائرة من دوائر ملكِهِ ؛ فإن تضاعفَتْ برتبة العشرةِ كانت سبعين ، وإن تضاعفَتْ برتبة المئةِ كانت سبعَ مئة ، وإن تضاعفَتْ برتبة الألفِ كانت نهايةَ الكثرة .

وقد نبَّه صلى الله عليه وسلم على الثلاثِ بقوله : « مَنْ همَّ بحسنةٍ فعملَها . كتبَها اللهُ عندَهُ عشرَ حسناتٍ ، إلىٰ سبعِ مئةِ ضعفٍ ، إلىٰ أضعافٍ كثيرةٍ »[2] ، ووراء ذلك أسرارٌ يمنحُها الله تعالىٰ مَنْ يشاءُ من عباده .

تبصرة
[في بيان معنى السُّبحات]

وأمّا سُبُحاتُ وجهِهِ سبحانه : فقد ثبت في « الصحيح » : « لو كَشَفَ حجابَهُ لأحرقَتْ سُبُحاتُ وجهِهِ ما انتهىٰ إليهِ بصرُهُ مِنْ خلقِهِ »[3] .

وقد أوَّلها العلماءُ بجلاله سبحانه وتعالىٰ[4] ، وهو تأويلٌ صحيح ، لـٰكنْ وجهُ ربِّنا ذو الجلال والإكرام : فله بجلاله سُبُحاتٌ ، وله بإكرامه سُبُحاتٌ .

---

(1) في (ب) وحدها : (آثار) بدل (آيات) .

(2) رواه البخاري (٦٤٩١) ، ومسلم (١٣١) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ، والحديث بتمامه : « إن الله كتب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك ؛ فمن همَّ بحسنة فلم يعملها . كتبَها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو همَّ بها فعملَها . كتبها الله له عنده عشرَ حسنات ، إلىٰ سبع مئة ضعفٍ ، إلىٰ أضعافٍ كثيرة ، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها . كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو همَّ بها فعملَها . كتبها الله له سيئة واحدة » .

(3) رواه مسلم (١٧٩) من حديث سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه المتقدم بعضه قريباً .

(4) قال الإمام النووي في « شرح صحيح مسلم » (٣/ ١٣) : (قال صاحب « العين » والهروي وجميع الشارحين للحديث من اللغويين والمحدثين : معنىٰ « سبحات وجهه » : نوره وجلاله وبهاؤه) .

إذا أردت أن تجري في التأويل على وفق الاستعمال اللغوي ، والقواعدِ التي مهدناها . . **فاعلم** : أن السُّبُحات جمعُ سُبْحةٍ ، **والسبحةُ في اللغة** : ما يُتطوّعُ به من ذكر وصلاةٍ وتسبيح ونحو ذلك ممّا لا تحصرُ أفرادَهُ[1] .

وقد بيّنّا أن أنوارَ الطاعات حُجُبُ وجهِهِ سبحانه وتعالىٰ[2] ، ونورُ الذكر شاملٌ لجميعها[3] ، ومهيمنٌ علىٰ سائر سُبُحات الإكرام والجلال[4] ، وقد قالَ تعالىٰ : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٥٢] .

وذكرُ الله تعالىٰ لنفسه ولعبدِهِ سبحةُ وجهه الشاملةُ لأنواعِ سُبُحاته ، وذكرُ العبد له نورُ حجابِهِ ، فما دام العبدُ يشهد ذكرَهُ لربِّهِ . . فوجهُ ربِّهِ متجلٍّ عليه في حجابه بسُبْحة ذكرِهِ ؛ كما ثبت في « الصحيح » : « أنا عندَ ظنِّ عبدي بي ، وأنا معَهُ حينَ يذكرُني »[5] .

فلا يزالُ العبد يذكرُ الله تعالىٰ ، وذكرُهُ له يبعدُهُ من شهود نفسه ونسبتِها ، ويقرِّبُهُ من شهود توحيد ربِّهِ . . حتىٰ ينكشفَ حجابُ ذكرِهِ لله سبحانه ، وتتجلَّىٰ له سُبْحةُ ذكرِ الله سبحانه له ، هنالك تحرقُ سبحتُهُ نسبةَ الأفعال والأذكار للعبدِ ، وتظهرُ نسبتُها للربِّ[6] ، كما ثبت في « الصحيح » : « ولا يزالُ عبدي

---

(١) انظر « تاج العروس » (س ب ح) .

(٢) وهو حجاب نور اتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وانظر (ص ١٧٢) .

(٣) الضمير عائد للطاعات ؛ إذ لا تخلو طاعة عن ذكر الله تعالىٰ ولو بالنية قلباً .

(٤) أراد : تجليه سبحانه بحجاب النور ، وتجليه بحجاب النار ، وكلاهما كما سبق لأهل الخصوص ، وانظر (ص ١٧٢) .

(٥) رواه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وتمامه : « إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ هم خيرٌ منهم ، وإن تقرَّبَ مني شبراً تقرَّبت إليه ذراعاً ، وإن تقرَّبَ إلي ذراعاً تقرَّبت منه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » .

(٦) فما ذكره عبدٌ إلا وقد منَّ سبحانه عليه بذكره ، فلولا ذكره لعبده ما ذكره عبدُهُ ، وبهـٰذا تفهم =

يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتىٰ أحبَّهُ ، فإذا أحببتُهُ كنت سمعهُ الذي يسمعُ بهِ ، وبصرَهُ الذي يبصرُ بهِ ، ويدَهُ التي يبطشُ بها ، ورِجْلَهُ التي يمشي بها »[1] .

تنبيه

[علىٰ عدم تناهي متعلَّقات صفة البصر له تعالىٰ]

قولُهُ : « لأحرقَتْ سُبُحاتُ وجهِهِ ما انتهىٰ إليهِ بصرُهُ مِنْ خلقِهِ »[2] .

اعلمْ : أن بصره سبحانه لا تتناهىٰ مبصَراتُهُ ، ولا يحجبُهُ عن خلقه حجابٌ ، وإنَّما ينكشف لك معنى الحديث بمراجعةِ ما قرَّرْتُهُ لك ، وبقوله صلى الله عليه وسلم : « الإحسانُ : أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّكَ تراهُ ، فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنَّهُ يراكَ »[3] .

فنبَّهَ بالشرطِ[4] : علىٰ أن العبد لا يشهدُ رؤيةَ الله تعالىٰ له حتىٰ يغيبَ عن صفتِهِ ورؤيته ومراقبتِهِ لربِّهِ[5] ، **فكلُّ عبادة تصحبُها المراقبة فهي نورٌ من حُجُبِ وجهه سبحانه** ، ينظرُ العبد منه إلىٰ ربِّهِ ، وينظرُ الله سبحانه منه إلىٰ عبده ، فإذا كُشِفَ للعبد فيها حجابُ المراقبة شهدَ رؤيةَ الله سبحانه له ، **فانتهاءُ بصره** : عبارةٌ عن انتهائه بحسَبِ كشف العبدِ وشهوده ، لا بحسبِهِ في نفسِهِ جلَّ وعلا ؛ فإنه لا انتهاءَ له ، **وخلْقُهُ** : هو صفةُ العبد[6] ، **ورؤيتُهُ وإحراقه** : هو محوُهُ

= قوله عليه الصلاة والسلام مناجياً المولىٰ سبحانه فيما رواه البخاري (٢٨٣٧) من حديث سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنه : « لولا أنتَ ما اهتدينا ، ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا » .

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) تقدم قريباً (ص ١٧٧) .

(٣) رواه البخاري (٥٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، ومسلم (٨) من حديث سيدنا الفاروق عمر رضي الله عنه .

(٤) وهو عدم كينونة الرؤية للعبد .

(٥) في (أ) : (صفة رؤيته) بدل (صفته ورؤيته) .

(٦) أفعال الله تعالىٰ إيجاداً تنسب لله تعالىٰ ، ولا يوصف بها ؛ **لأنها جائزة ، ولا يوصف القديم** =

بثبوتِ صفة الربِّ ورؤيتِهِ للعبد[1] ، وصفةُ الربِّ ورؤيتُهُ : هي سُبْحتُهُ ؛ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن : ٢٦ـ٢٧] .

إشارة

[إلىٰ أن العبرة بنظر الحقِّ إليك]

أورد محمد بن علي الأصبَهانيُّ عن مجنون ليلىٰ في محاومةِ هٰذا المعنىٰ بيتينِ[2] : [من الوافر]

رأىٰ ليلىٰ فأعرضَ عن سواها   محبٌّ لا يرىٰ حَسَناً سواها
لقدْ ظفرَتْ يداهُ ونالَ مُلكاً   لَئِنْ كانَتْ تراهُ كما يراها

فنبَّهَ علىٰ أن المُلْك والظفرَ ليسا في رؤيته هو لها ، وإنَّما هما في رؤيتِها له .

وقوله : (كما يراها) فيه تنبيهٌ علىٰ تجلِّي السُّبْحة ؛ وذلك أنه رأىٰ ليلىٰ علىٰ وجهِ الإفراد ، فلم يرَ معها غيرها ، ولهٰذا قال : (فأعرضَ عن سواها)

= سبحانه بالجائزات ، بل يقال : يجوز في حقه سبحانه فعلُ أيِّ ممكن أو تركه ، وهٰذه الأفعال هي صفات لمخلوقاته قطعاً ، فهو تعالىٰ خالق الطول والعرض والعمق ، والشكل واللون ، ولٰكن لا يقال : طويل عريض عميق ، متشكل متلون ، تعالىٰ ربُّنا وجلَّ ، وإنما هي صفاتٌ لخلقه ، فمن شبَّه فقد لبَّس وخلَّط ، ومن عطَّل فقد جهل وعاند ، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ .

(١) قال الإمام القشيري في « رسالته » (٢٦٥) : (المحو : رفعُ أوصاف العادة ، والإثباتُ : إقامة أحكام العبادة ؛ فمن نفىٰ عن أحواله الخصال الذميمة ، وأتىٰ بدلها بالأفعال والأحوال الحميدة . . فهو صاحب محو وإثبات) .

(٢) انظر « الأغاني » (٢/٨٦) ، وصدر البيت الأول عنده :

بكىٰ فرحاً بليلىٰ إذ رآها   . . . .

حتىٰ عن نفسِهِ ، ولهٰذا قال : (أنا ليلىٰ ، وليلىٰ أنا)[1] ، فنبَّهَ علىٰ أن المُلْكَ هو أن تراهُ كذلك ، فلا تراهُ غيرَها .

وهٰذا فيما نحن فيه لا يتمُّ إلا بتجلِّي السُّبُحة المقدَّسة ؛ فإنها إذا تجلَّتْ أحرقَتِ الحادثَ من صفة العبد ، وتبقىٰ صفةُ الربِّ هي المرئيةُ له ، كما أنَّها هي المرئيةُ لعبده ، فهنالك تظفرُ يداه ، وينال مُلْكَ التصريف بقوله : « كنتُ سمعَهُ الذي يسمعُ بهِ . . . » الحديثَ[2] .

إشارة

[إلىٰ سرِّ قراءته عليه الصلاة والسلام القرآن علىٰ بعض الصحابة]

بهٰذا تفهمُ سرَّ أمرِ الله سبحانه لنبيِّهِ صلى الله عليه وسلم أن يقرأَ علىٰ أُبَيٍّ رضي الله عنه : (لم يكنْ)[3] ، مع قوله صلى الله عليه وسلم : « أقرؤُكم أُبَيٌّ »[4] ، مع العلم بأن أُبيّاً لم يكن أحفظَ الصحابة للقرآن ، ولا أفصحَهم في

---

(١) أورده ابن حبيب في « عقلاء المجانين » (ص ٥١) ، وسياقه فيه : (قيل للمجنون : أتحب ليلىٰ ؟ قال لا ، قيل : ولمَ ؟ قال : لأن المحبة ذريعة للرؤية ، فقد سقطت الذريعة ، فليلىٰ أنا ، وأنا ليلىٰ) .

(٢) تقدم (ص ١٢١) .

(٣) يعني : سورة (البينة) ، روى البخاري (٤٩٦٠) ، ومسلم (٧٩٩) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه : أن الله تعالىٰ أمر النبيَّ صلى الله عليه وسلم أن يقرأ القرآن علىٰ أُبيٍّ رضي الله عنه ، فقرأ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة (البينة) .

(٤) رواه الترمذي (٣٧٩١) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، ولفظه : « أرحمُ أمتي بأمتي أبو بكر ، وأشدُّهم في أمر الله عمر ، وأصدقُهم حياءً عثمان بن عفان ، وأعلمُهم بالحلال والحرام معاذُ بن جبل ، وأفرضُهم زيد بن ثابت ، وأقرؤهم أبيُّ بن كعب ، ولكلِّ أمة أمينٌ ، وأمينُ هٰذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » ، وزاد ابن ماجه (١٥٤) : « وأقضاهم عليُّ بن أبي طالب » .

القراءة ، ولا أفقهَهم في أحكامه[1] ، ولـٰكن لعلَّهُ كان عند قراءتِهِ القرآنَ أصغاهم مراقبةً لتلاوة النبيِّ صلى الله عليه وسلم[2] ، كذلك الذي يقرؤهُ ويغيبُ بذلك عن قراءةِ نفسه ؛ حتىٰ كأنَّهُ يسمعُهُ من النبيِّ صلى الله عليه وسلم .

وممَّا يدلُّكَ علىٰ ذلك ويوضِّحُهُ لك : أن السورةَ التي أمر بقراءتها هي (لم يكنِ الذينَ كفروا) ، وهي مشتملةٌ علىٰ قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ [البينة : ١ـ٣] ، وكان أُبَيٌّ إذا قرأها أصغىٰ بأُذُنِ قلبه إلىٰ روحِ النبوَّة يتلو عليه ذلك ، فأراد اللهُ عزَّ وجلَّ أن يحقِّقَ له في عالم الشهادةِ من تلاوة النبيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليهِ . . ما كان يشهدُهُ في عالمِ الغيب .

لطيفة

[في بيان حكمة لفظ الإحراق في حديث : « لأحرقَتْ سُبُحاتُ وجهِهِ »]

حكمةُ استعارة الإحراقِ لمحْوِ صفات الخلق : التنبيهُ علىٰ أن حقيقةَ الخلق ترابٌ ، وباقي صفات الخلق إنما هي أثرُ تجلِّيات الحقِّ بصفاته[3] ، فلو ظهرَتْ

---

(١) يعني : قبل حصول الإصغاء الآتي ذكرُهُ ، أو استفاد هـٰذا المعنىٰ مما رواه مسلم (٢٤٦٤) عن مسروق قال : كنا نأتي عبد الله بن عمرو ، فنتحدث إليه ، فذكرنا يوماً عبد الله بن مسعود ، فقال : لقد ذكرتم رجلاً لا أزال أحبه بعد شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « خذوا القرآنَ من أربعةٍ : من ابن أم عبد ـ فبدأ به ـ ومعاذ بن جبل ، وأبي بن كعب ، وسالم مولىٰ أبي حذيفة » ، وذلك من قول سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : (فبدأ به) ، وإلا فبعد ما صحَّ عنه عليه الصلاة والسلام أنه الأقرأ . . فلا سبيل للاجتهاد في مثل هـٰذا .

(٢) قال العلامة الطيبي في « شرح المشكاة » (٥/ ١٦٨٤) : (ولا نعلم أن أحداً شاركه في هـٰذه المنقبة) .

(٣) وأصل معنى التجلي : الظهور ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ [الليل : ٢] أي : =

صفاتِهُ رجع الخلقُ إلىٰ أصله تراباً ، كما أن النار أيّ شيء أحرقته جعلَتْهُ رماداً ، وأزالَتْ جميعَ صفاته .

تربيـة[1]

[في معرفة قِبْلة التجلِّي وميقاته ومشرقه]

قد قدمنا أن قولهُ تعالىٰ : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦ـ٢٧] ينبِّهُ علىٰ أن لوجهه الكريم تجليينِ : تجلٍّ بجلاله في حجاب النار ، وتجلٍّ بإكرامه في حجاب النور[2] ، فيحتاج أهلُ المراقبة إلىٰ معرفة قِبْلةِ هـٰذا التجلِّي وميقاتِهِ ومَشْرِقِهِ .

فاعلمْ يا عبدَ الله : أن قِبْلةَ هـٰذا التجلي : **القلبُ** ، وميقاتَهُ : **الصلاةُ** ، ومَشْرِقَ الجلال : **سبحانَ الله** ، ومَشْرِقَ الإكرام : **الحمدُ لله** .

فمن أراد شهود وجهِ ربِّهِ الباقي : فليجعل **قِبْلتَهُ** قلبَهُ ، **وميقاتَهُ** صلاتَهُ ، ثم **له حالانِ :**

الأوَّلُ : أن يغلبَ علىٰ قلبه تنزيهُهُ ممَّا سوى الله سبحانه وتعالىٰ ، **فهـٰذا مشرقُهُ** : (سبحانَ الله) ، ووجهُ ربِّهِ يتجلَّىٰ عليه بجلاله في حجاب النار ؛ كما

= ظهر ووضح ، وقال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، وفي حديث مسلم (١٩١) : « فيتجلَّىٰ لهم يضحكُ » ، وفي حديث الترمذي (٣٢٣٣) : « فتجلَّىٰ لي كلُّ شيءٍ » ، فلا تحسب هـٰذه اللفظة من بدع القوم المحكية ، بل هي كلمة أثرية .

(١) كذا في النسخ المعتمدة ، وفي (ب) وحدها : (تنبيه) بدل (تربية) ، ولعله أراد بهـٰذا الاصطلاح ما ينطوي علىٰ تخلُّق وتأديب .

(٢) تقدم الحديث عن هـٰذا (ص ١٧٢) .

تجلَّىٰ علىٰ موسىٰ عليه السلامُ ؛ ولهٰذا أمرَ اللهُ تعالىٰ أتباعَهُ أن يقتدوا به في ذلكَ بقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [يونس : ٨٧] ، **فهٰذه القبلةُ والميقاتُ**[1] .

ونبَّهَ أيضاً : علىٰ تجلِّيه عليه **في مشرقٍ** (سبحانَ الله) في حجاب النار بقوله : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [النمل : ٨ـ٩] .

والحالُ الثاني : أن يغلبَ علىٰ قلبه شهودُ النِّعَمِ والفضلِ لله بلا شريك ، **فهٰذا مَشْرِقُهُ** : (الحمدُ لله) ، ووجهُ ربِّهِ يتجلَّىٰ عليه بإكرامه في حجاب النور ؛ كما تجلَّىٰ بإكرامه لإبراهيمَ عليه أفضلُ الصلاة والسلام ، فكانَتْ **قبلتُهُ** قلبَهُ ؛ ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات : ٨٤] ، وكان **ميقاتُهُ** صلاتَهُ ، **ومشرقُهُ** (الحمدُ لله) ؛ ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ [النحل : ١٢٠ـ١٢١] ، وكان التجلِّي بالإكرام في حجاب النور ؛ وهي أنوارُ الكوكب والقمرِ والشمس ؛ فقال : ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ [الأنعام : ٧٦][2] .

---

(١) فذكر القبلة وأن بيوتهم قبلتُهم ؛ وأصل ذلك أنهم لمَّا خافوا أمَرَهم أن يتخذوا من بيوتهم مصلَّيات ، ثم لا تنسَ أن القوم شاع عنهم قولهم : (القلبُ بيت الرب) ، فالقلب هو القبلة هنا ، وكذا عند المتكلمين : القلب هو بيت معرفة الرب ؛ وهو مراد القوم ، والقلب هو محل الإيمان باتِّفاق من يعتدُّ بقوله ، وحقيقة القبلة : وجه الله تعالىٰ ؛ ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ١١٥] ، وذكر الميقات وأنه عند إقامة الصلاة .

(٢) ويكون التقدير حسب ما يفيده السياق : هٰذا تجلِّي ربي .

إشارة

[إلىٰ تحقيق تجلي الإكرام لسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام]

إذا أردتَ أن تعلمَ أن ربَّهُ تجلَّىٰ له بالإكرام : فتدبَّرْ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ [الذاريات : ٢٤] ، فإذا كان ضيفُهُ بسببه مكرماً[1] . . فما ظنُّكَ به ؟!

وإذا أردت أن تعلمَ أن نظرَهُ كان لنور ربِّهِ ، لا للنجومِ والكواكب : فتدبَّرْ قوله تعالىٰ : ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴾ [الصافات : ٨٨] ، جعل النجومَ ظرفاً للمرئي ، لا نفسَ المرئي[2] ، وكيف لا وقد أُرِيَ ملكوتَ السماوات والأرض ، و﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور : ٣٥] ، ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ١١٥] ؟!

ومن جمعَ بين مشرقِ (سبحانَ الله) و(الحمدُ لله) . . تجلَّىٰ له ربُّهُ بكماله الجامعِ بين التجلِّيينِ ، وأراه آيتَهُ الكبرىٰ ؛ كما تجلَّىٰ لمحمد صلى الله عليه وسلم ليلةَ الإسراء ؛ ونبَّهَ عليه قولُهُ تعالىٰ : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ . . . ﴾ [الإسراء : ١] إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا . . . ﴾ الآيةَ [الإسراء : ١١١] .

ولمَّا تحقَّقَ صلى الله عليه وسلم بـ(سبحانَ الله) أولاً ، وبـ(الحمدُ لله) آخراً . . تجلَّىٰ له وجهُ ربِّهِ بكماله الجامع للجلال والإكرام في مشرقِ (لا إلـٰه

---

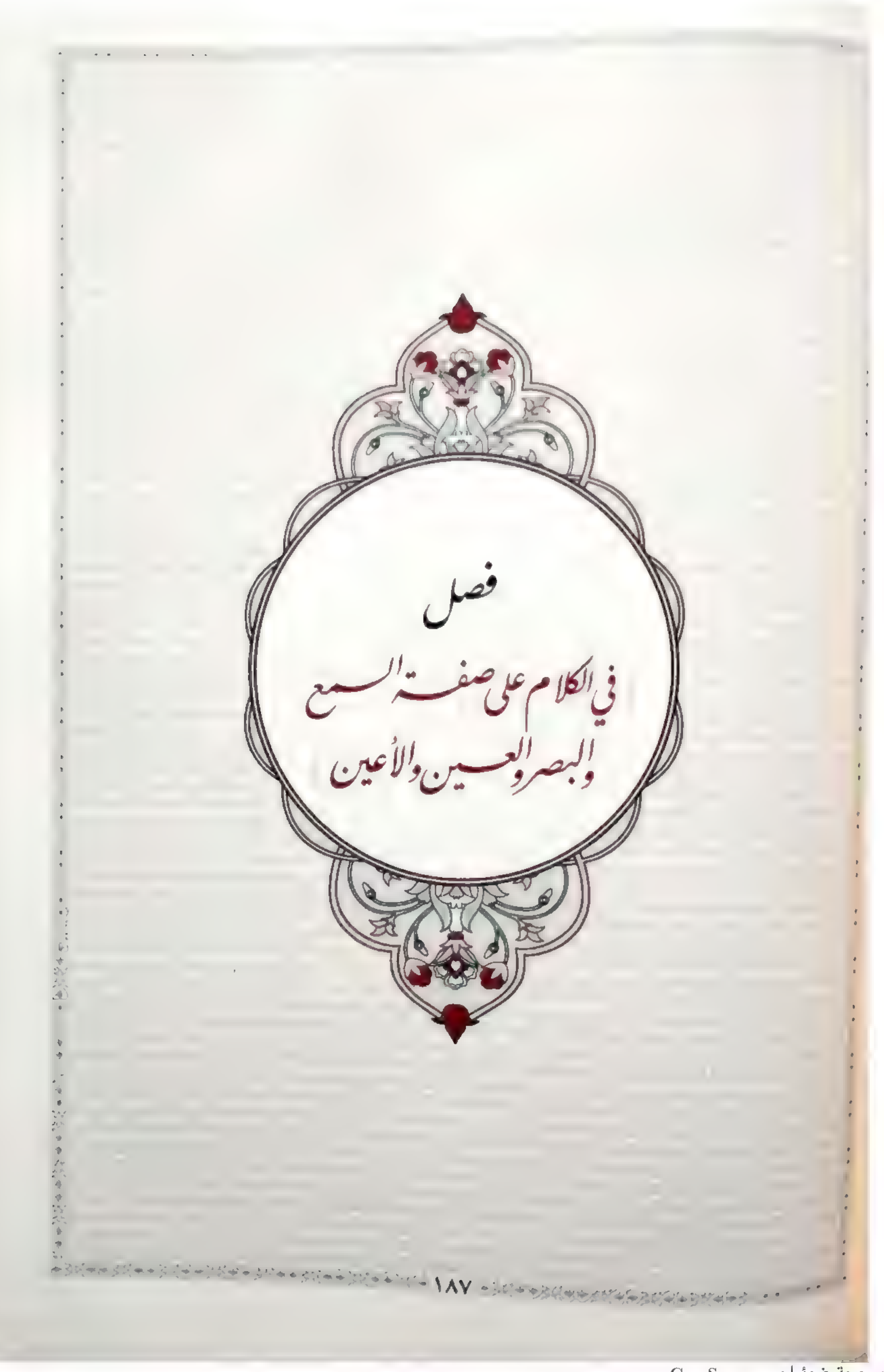
(١) الضيف : الضيوف ؛ وهم الملائكة الكرام الذين زاروه عليه وعليهم الصلاة والسلام .

(٢) فلم يقل سبحانه : (فنظر نظرة إلى النجوم) ، بل ظرَّف النظر بـ(في) ، فالمنظور إليه هنا هو المظروف المعنوي ، لا الظرف الحسي .

إلا الله) الجامعِ لـ (سبحانَ الله) و(الحمدُ لله) ، وهي آيةُ ربِّهِ الكبرىٰ ، ولهٰذا قال آخرَ السورة : ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء : ١١١] ، وسيأتي لذلك مزيدُ بيانٍ في مسألة الإسراءِ إن شاء اللهُ تعالىٰ[1] .

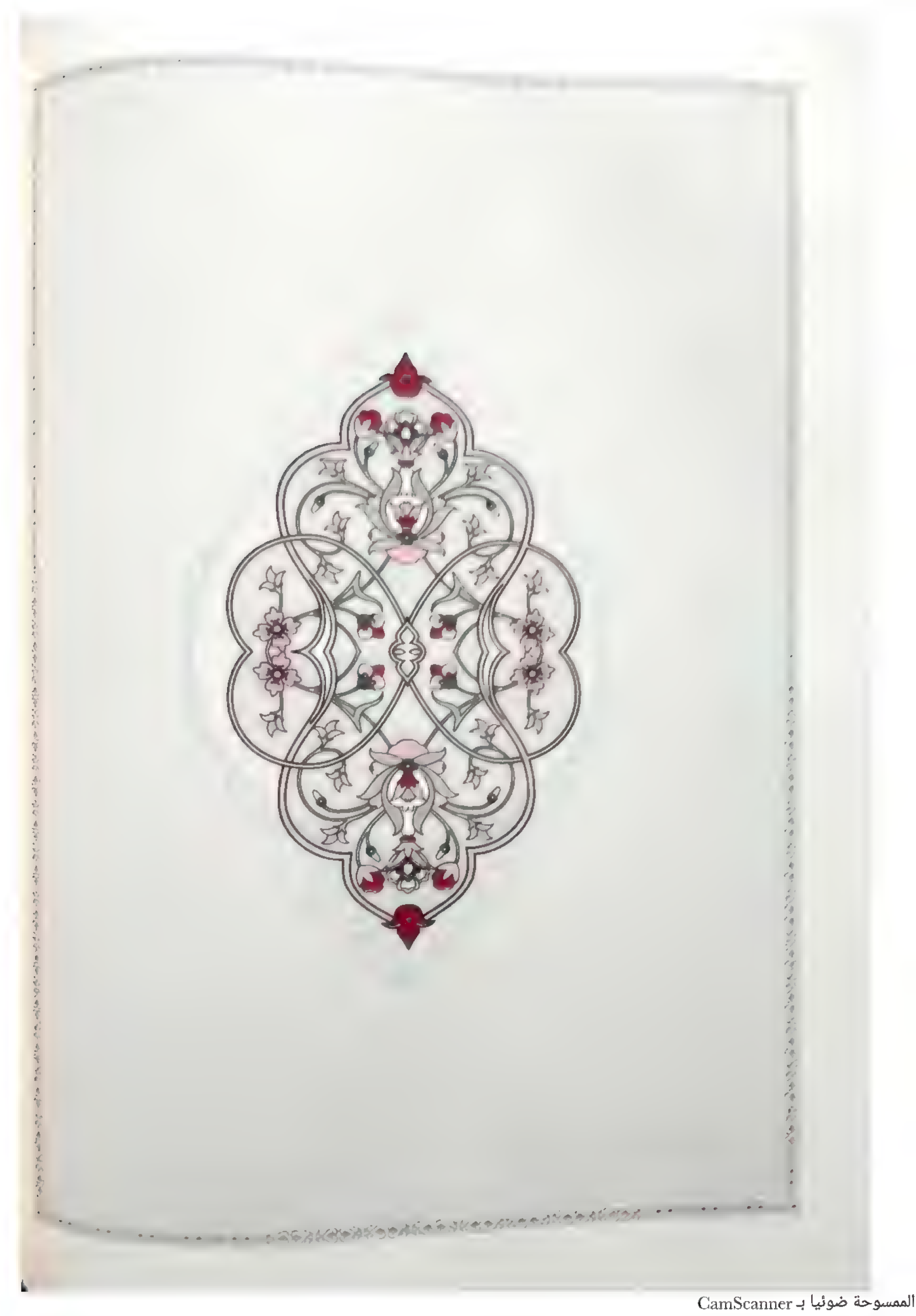
* * *

(١) انظر (ص ٢٦٩) وما بعدها .



فصل

في الكلام على صفة السمع والبصر والعين والأعين



فصل

في الكلام على صفة السمع والبصر والعين والأعين

ومن الآياتِ المتشابهات : آياتُ السمع والبصرِ والإدراك[1] ، والعينِ والأعين :

وقد دلَّ الكتاب والسنة على أنهما قسمان : عاديٌّ ، وحقيقيٌّ .

فالعاديُّ : سمعُ القلب بالأُذُنِ ، وإبصارُهُ بالعين ، وهو عامٌّ في المؤمن والكافر[2] .

والحقيقيُّ : بصرُ العينِ بالقلب ، وسمعُ الأُذُن به أيضاً[3] ، وقد نفاهُ الله سبحانه وتعالىٰ عن الكفَّار في غيرِ ما آيةٍ ؛ منها : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال : ٢١] ، وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٩٨] ، فأثبتَ لهم السمع والبصرَ

---

(١) قوله : (والإدراك) زيادة من (أ ، ج) ، ولم ترد آية ناصَّةٌ علىٰ صفة الإدراك ، والمراد بالإدراك على القول به : الشم والذوق واللمس ، وأثبته جماعة منهم إمام الحرمين الجويني ، والمختار فيه عند المحققين الوقف .

(٢) قال تعالىٰ : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم : ٧] .

(٣) وفرقٌ كبير بين أن تكون الأُذن والعين بالقلب فهما تبعٌ له ، فلهما منه فوق ظاهر مشاهدتهما العبرةُ والبصيرة الباطنة ، وبين أن يكون القلب بهما فهو تبعٌ لهما ، فلا نصيبَ له منهما إلا ظاهر مشاهدتهما ، وخيالات أقيستهما ، وأين من يسمع صوتاً ممَّن يدرك فهماً ؟! قال تعالىٰ : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٧١] ، وسبق للإمام المصنف أن أشار إلى هٰذا المعنىٰ (ص ١٧٨) .

العاديينِ ، ونفىٰ عنهم الحقيقيَّ[1] .

وبهـٰذا يُفهمُ : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾ [طه : ١٢٤-١٢٥] ، مع العلمِ بأن اللهَ سبحانه وتعالىٰ يعيدُهم بأبصارهم العاديَّةِ كحالهم في الدنيا تحقيقاً ؛ لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤][2] .

ولـٰكنَّ الحكمَ في تلك الدارِ للأبصارِ الحقيقيَّة ، **المستفادةِ من نور صفاته بواسطةِ استجابة القلبِ لآياته**[3] ، **وتوجهِهِ بنورِها إلىٰ عالم الغيب** ، وقلبُ الكافر في الدنيا كانَ خالياً من نور التوحيد ، فكان بصرُهُ لا يرجعُ إلىٰ قلبه ؛ لأنه لا مددَ له إلا من نورِ حسِّهِ ، وهو أعمىٰ عن نورِ آياتِ التوحيد ؛ لا جرمَ أنه يحشرُ يومَ القيامة أعمىٰ كما كانَ في الدنيا ؛ ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ [إبراهيم : ٤٣] ، فلذلك إذا قال : ﴿ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ ﴾ ؟ قال : ﴿ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا

---

(١) إذ العبرة تكون بإدراك الشيء علىٰ ما هو عليه في الحقيقة ؛ ولذلك قال الإمام الرازي في « مفاتيح الغيب » (١٧ / ٢٢٢) عند تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ . . . ﴾ الآية [هود : ٢٨] : (واعلم : أن الشيء إذا بقي مجهولاً محضاً أشبه المعمَّىٰ ؛ لأن العلم نور البصيرة الباطنة ، والإبصار نور البصر الظاهر ، فحسن جعل كل واحد منهما مجازاً عن الآخر) .

(٢) وقد قال سبحانه : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم : ٣٨] ، ولو أنهم أبصروا وسمعوا تحقيقاً ، وفقهوا واعتبروا صدقاً . . لانتبهوا وادَّكروا ، ولا تغرَّنَّك كلماتُ الندم والعويل ؛ فهي ثرثرة حالٍ ، ظاهرُها صدق وباطنها كذب ونفاق ؛ قال مولانا جل وعز : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٨] .

(٣) لا يخفاك أنه اتفق المتكلمون والعارفون علىٰ أن نور الإيمان محلُّهُ القلب ، وأنه سبحانه يُعرف بحكيم أفعاله ، وآثارِ تجلِّياتِ صفاته ؛ فالعالَم عَلَمٌ عليه ؛ تتجلَّىٰ فيه صفاته التي نعتها المتكلمون بالعقلية ؛ وهي الحياة والعلم والإرادة والقدرة ، وتلازمها صفات التنزيه المعروفة عند المتكلمين بالسلبية ، وتعلوها صفة الوجود الحقيقي الذي لا يشوبه حدوث وإمكان .

﴿فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه : ١٢٥ـ ١٢٦] أي : لا بصرَ لك في هٰذه الدار إلا من نورِ صفاتي ، المستفادةِ من الاستجابة لآياتي ؛ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور : ٤٠] .

فـائدة

[من عرفَ السمع والبصر الحقيقيين فهمَ تنزُّهَهُ تعالىٰ عن الجوارح]

فإذا صحَّ لك أن السمعَ الحقيقي والبصر الحقيقيَّ عبارةٌ عن سمع القلب وبصره ، وأن الجوارح ـ وهي العينُ والأُذُن ـ تحتاجُ إليه ، وهو غنيٌّ عنها . . **أمكنك حينئذ أن تفهم إثباتَ السمع والبصر لله سبحانه وتعالىٰ ، وكذلك بقية الإدراك**[١] ، مع استغنائِهِ في ذلك عن الجوارحِ وتعاليه عنها[٢] .

[نسبة العين والأعين إليه سبحانه]

وأما **نسبةُ العينِ إليه** : فهي اسمٌ لآياته المبصِرةِ ، التي بها ينظر سبحانه للمؤمنين ، وبها ينظرون إليه ، قال تعالىٰ : ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ [النمل : ١٣] ، فنسب البصرَ للآياتِ علىٰ سبيل المجاز تحقيقاً[٣] ؛ **لأنها المرادةُ بالعين**

---

(١) يعني : على القول بها ؛ وأدلَّتها قياسية ، وانظر ما تقدم تعليقاً قريباً (ص ١٨٩) .

(٢) إذ علمت أن الجوارحَ لا غَناء لها ؛ والعلمَ بها مبتور هزيل ناقص ، ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك : ١٠] ، وهي إلىٰ ذلك فينا وسائط ؛ والافتقار إليها مخرج عن الألوهية .

(٣) تقدم قريباً تعليقاً التنبيه على ذلك ، وقال الإمام الرازي في « مفاتيح الغيب » (٢٤/ ١٨٤) : (قد جعل الإبصار لها ، وهو في الحقيقة لمتأمِّلها ؛ وذلك بسبب نظرهم وتفكُّرهم فيها ، أو جُعلت كأنها لظهورها تبصِرُ فتهتدي ، وقرأ علي بن الحسين وقتادة : « مَبْصَرَة » ، وهو نحو مجبنة ومبخلة ؛ أي : مكاناً يكثر فيه التبصُّر) .

المنسوبةِ إليه ، وقد قال تعالىٰ : ﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ [الأنعام : ١٠٤] .

وعلىٰ هٰذا : يتنزَّلُ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور : ٤٨] أي : بآياتِنا ؛ تنظرُ بها إلينا ، وننظرُ بها إليك .

ويؤيِّدُ أن المرادَ بـ (الأعين) هنا الآياتُ : كونُهُ علَّلَ بها الصبرَ لحكم ربِّهِ ، وعلَّلَهُ بآياتِ القرآنِ صريحاً في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ۝ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ [الإنسان : ٢٣-٢٤] .

وقال تعالىٰ في سفينةِ نوحٍ : ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر : ١٤] أي : بآياتِنا ؛ بدليل قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾ [هود : ٤١] .

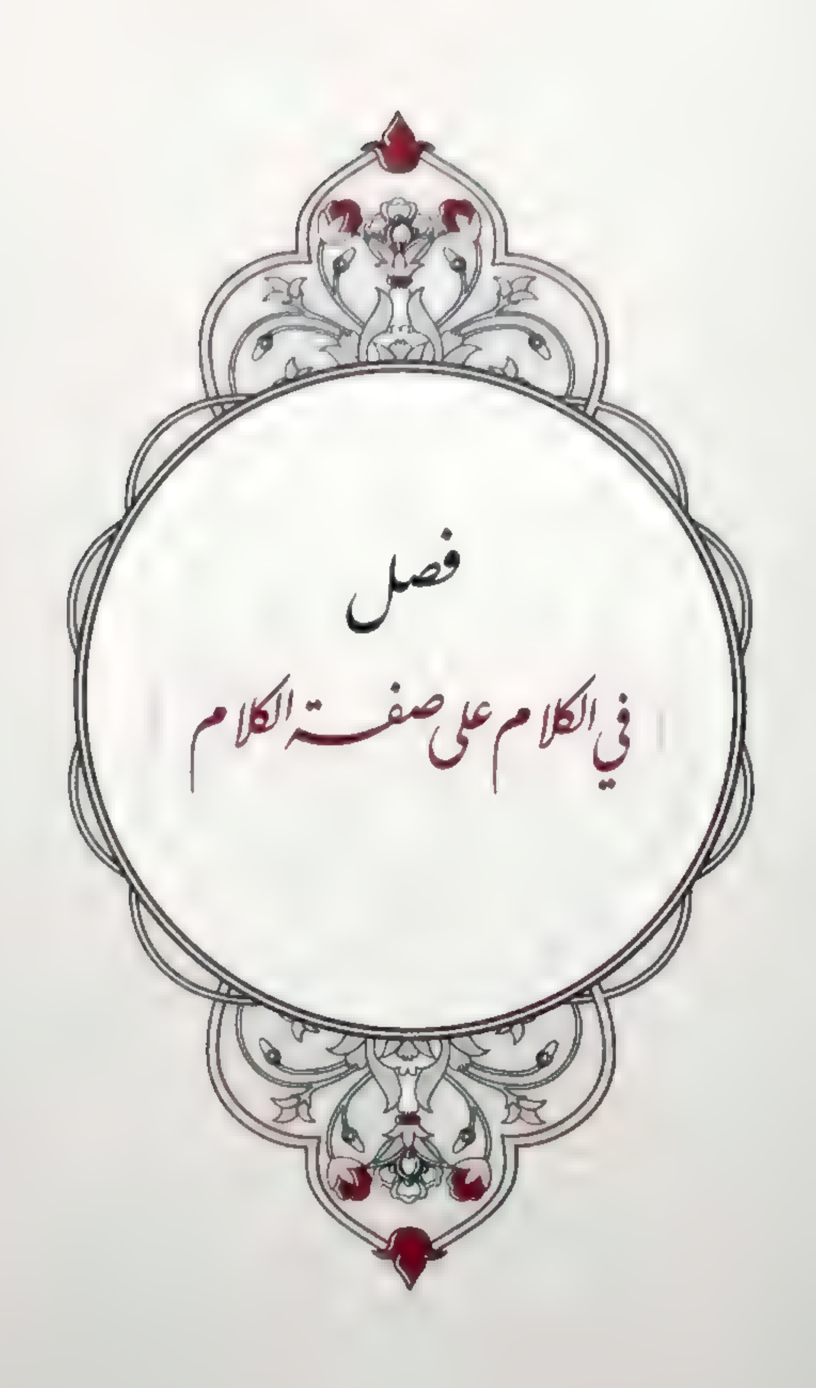
وقال تعالىٰ في موسىٰ عليه السلام : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ [طه : ٣٩] أي : علىٰ حكم آيتي التي أوحيتُها إلىٰ أمِّكَ ؛ ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ . . . ﴾ الآيةَ [القصص : ٧] ، **ويؤيِّدُ أن المرادَ ذلك** : كونُهُ جعل ظرفَ صنعِهِ علىٰ عينِهِ[1] ؛ ﴿ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ [طه : ٤٠] ، ﴿ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ [القصص : ١٣] .

فمَنْ تدبَّرَ ذلك علمَ صحَّةَ ما قلناه ، وفُتحَ له باب عظيمٌ في تفسير كتابِ الله بعضِهِ ببعضٍ .

* * *

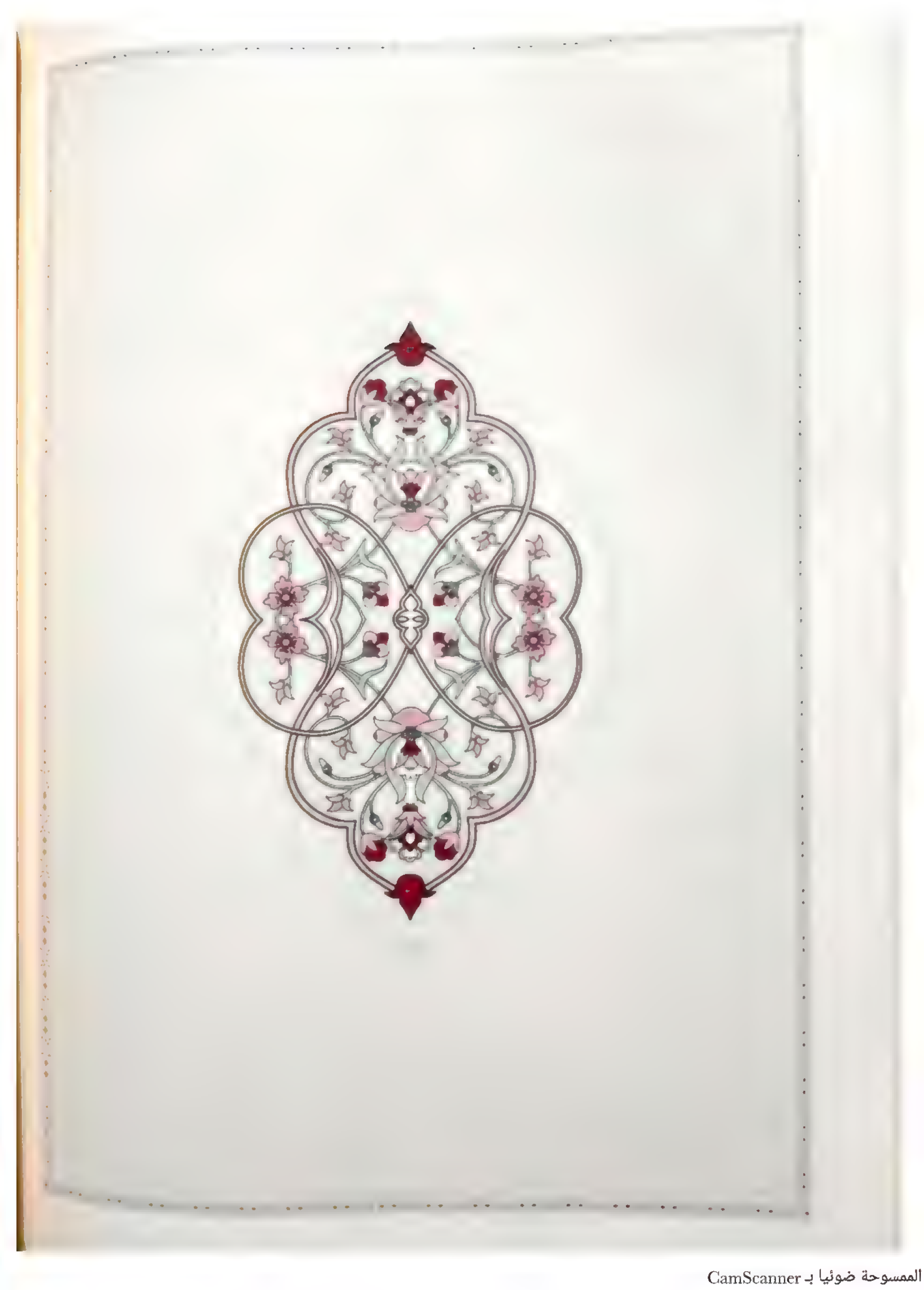
---

(١) قال الإمام الرازي في « مفاتيح الغيب » (٢٢/٥٣) في تفسير هٰذا المجاز : (لتُرىٰ علىٰ عيني ؛ أي : علىٰ وفق إرادتي ، ومجاز هٰذا : أن من صنع لإنسان شيئاً وهو حاضرٌ ينظر إليه . . صنعه له كما يحب ، ولا يمكنه أن يفعل ما يخالف غرضه ، فكذا ها هنا) .



فصل

في الكلام على صفة الكلام



فصل
في الكلام على صفة الكلام

ومنها : صفةُ الكلام :

والمتشابهُ منها نسبةُ الصوتِ والحرف إلىٰ كلامِ الله سبحانه وتعالىٰ ، وقد وردَتْ آياتٌ وأحاديثُ توهمُ ذلك :

فمنها : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٦] ، والمسموعُ إنما هو الحرفُ والصوت .

ومنها : سماعُ موسىٰ عليه السلام كلامَ الله تعالىٰ .

وما رُوِيَ من « أنَّ اللهَ تعالىٰ ينادي بصوتٍ يسمعُهُ مَنْ بَعُدَ كما يسمعُهُ مَنْ قرُبَ »[1] .

ومن قولِهِ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ قرأ حرفاً مِنْ كتابِ اللهِ فلهُ حسنةٌ ، والحسنةُ بعشرِ أمثالِها ، لا أقولُ : (الٓمٓ) حرفٌ ، بل : ألفٌ حرفٌ ، ولامٌ حرفٌ ، وميمٌ حرفٌ »[2] .

---

(١) علَّقه البخاري في « صحيحه » (٩/ ١٤١) ، ورواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤٣٧) من حديث سيدنا عبد الله بن أُنيس رضي الله عنه ، وتمامه : « أنا الملكُ ، أنا الديَّان » ، قال الحافظ القسطلاني في « إرشاد الساري » (١٠/ ٤٢٩) : (« فيناديهم » يقول لهم « بصوت » مخلوق غير قائم بذاته ، ويأمر تعالىٰ من ينادي ، ففيه مجاز الحذف) ، ثم قال : (ولم يثبت لفظ الصوت في حديث صحيح مرفوع غير حديثه) يعني : سيدنا أنيساً .

(٢) رواه الترمذي (٢٩١٠) من حديث سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

وغيرُ ذلك من الأحاديث الثابتة ، وهي مسألةٌ مهمّة ، بعيدةُ الغور ، تزلزلَتْ فيها أقدامُ المتكلّمين .

ومذهبُ أهلِ الحقِّ : أن للهِ تعالىٰ سبحانه كلاماً قديماً قائماً بذاتِهِ ، واحداً في حقيقتِهِ ، مخالفاً لصفتَي علمِهِ وإرادته ، منزَّهاً عن الحروف المرتَّبة والأصواتِ المحدثة ، منزَّلاً علىٰ نبيِّهِ عليه السلام ، مقروءاً بالألسنةِ ، مكتوباً في المصاحفِ ، مسموعاً لموسىٰ عليه السلامُ حقيقةً[1] ولِمَنْ يريد اللهُ إسماعَهُ ، غيرَ مخلوقٍ في الشجرة ولا قائمٍ بالحوادث[2] .

وموضعُ البراهينِ العقلية والسمعيّة علىٰ كلِّ مقام من ذلك : الكتبُ الكلاميّة .

والمقصودُ ها هنا : ما وقعَ من المتشابهِ في الكتاب والسنة من إيهامِ نسبة الصوتِ والحرف إلى الله سبحانه وتعالىٰ ، فلا بدَّ من ردِّها للمحكم من مراجعةِ مقدمة هٰذا الكتاب[3] .

وهو أن كلامَ الله سبحانه وتعالىٰ صفتُهُ[4] ، وصفة القديم قديمة تتقدَّسُ عن الحدوث ، والحروف في إفادةِ الكلام يلزمُها الترتيبُ ، وتقدُّمُ بعضِها على

(١) وهو قول عامة السادة الأشاعرة غير الأستاذ أبي إسحاق الإسفرايني ؛ إذ قوله كقول السادة الماتريدية .

(٢) خلافاً للسادة الماتريدية المانعين من سماع الكلام القديم مع إثباته صفةً لله سبحانه ، مخالفين بذلك المعتزلة النافين للكلام القديم ، والقائلين : إنه تعالىٰ متكلم ؛ بمعنى إيجاد الأصوات والحروف في محلها ، أو إيجاد أشكال الكتابة في اللوح المحفوظ .

(٣) انظر (ص ١٢٠) ، أراد التنبيه علىٰ أن لكلِّ صفة مظهرين ؛ جسماني حادث ، وروحاني حادث أيضاً لٰكنه مجلىً للقديم .

(٤) هٰذا شروع في تحقيق التنزيه ، ورد هٰذا المتشابه إلى المحكم اللائق به .

بعض ، وذلك مستحيلٌ على القديم[1] .

ولكنَّا قدَّمنا أن لصفاتِهِ مظهرينِ ؛ وبه يُعلمُ أن لكلامه مظهرينِ :

مظهرٌ جسماني منسوبٌ للعباد : وهي الألسنةُ والأيدي والأقلام[2] .

ومظهرٌ علويٌّ روحاني : وهو روحُ القُدُسِ ، وقلمُهُ العليُّ .

والحروفُ والأصوات من لوازم المظهرينِ[3] ، وكلامه منزَّهٌ عنهما[4] ؛ كتنزُّهِ القلب في كلامه عن الحروفِ اللسانية والأصواتِ الهوائية وإن كانَتْ مظاهرَ له[5] .

وبهـٰذا يتَّضحُ لك جميعُ المتشابِهِ ، وأنا أفصِّلُهُ لك :

فمنهُ : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٦] أي : بواسطةِ مظاهرِهِ الجسمانيَّةِ ؛ وهي أصواتُ العباد وحروفُهم ، وإطلاقُ كونِهِ سامعاً

---

(١) قال العلامة السعد في « شرح العقائد النسفية » (ص١٩٠) نقلاً عن شيخه العلامة العضد : (القرآنُ : اسم للفظ والمعنىٰ ، شاملٌ لهما ، وهو قديم ، لا كما زعمت الحنابلة من قدم النظم المؤلَّف المترتِّب الأجزاء ؛ فإنه بديهي الاستحالة ؛ للقطع بأنه لا يمكن التلفظ بالسين من « باسم الله » إلا بعد التلفظ بالباء ، بل بمعنىً أن اللفظ القائم بالنفس ليس مترتِّبَ الأجزاء في نفسه ؛ كالقائم بنفس الحافظ من غير ترتُّبِ الأجزاء وتقدُّمِ البعض على البعض ، والترتُّبُ إنما يحصل في التلفُّظِ والقراءة ؛ لعدم مساعدة الآلة ، وهـٰذا معنىٰ قولهم : المقروءُ قديم ، والقراءةُ حادثة ، وأما القائم بذات الله تعالىٰ فلا ترتُّبَ فيه ، حتىٰ إن من سمع كلامَهُ سمعَهُ غيرَ مترتِّبِ الأجزاء ؛ لعدم احتياجِهِ إلى الآلة) .

(٢) أما وجود الكلام ذهناً وتخيُّلاً فهو اعتباري .

(٣) نبَّهَ بذلك : علىٰ أن المظهر العلوي ليس المرادُ منه الصفة القديمةَ القائمة بذاته سبحانه ، بل تجلِّيها ، وقد علمت أن التجلِّيات حادثة ، فهو في الحدوث كالمظهر الجسماني .

(٤) الضمير في (عنهما) راجع إلى الحروف والأصوات كما لا يخفىٰ .

(٥) يعني : وإن كانت الحروف والأصوات مظاهر جسمانية ، والضمير في (له) عائد إلى القلب .

لكلام الله تعالىٰ بذلك . . مجازٌ ؛ لما قدَّمناهُ من أن المظاهرَ الجسمانية ليسَتْ منسوبة إلى الله سبحانه لغةً ولا شرعاً[1] .

ومنهُ : في « صحيح » مسلم والبخاري وغيرِهما عن عائشةَ رضي الله تعالىٰ عنها : أن الحارثَ بن هشام سألَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم : كيف يأتيكَ الوحْيُ ؟ قال : « أحياناً يأتيني مثلَ صلصلةِ الجرسِ ؛ وهو أشدُّهُ عليَّ ، فيُفْصَمُ عنِّي وقد وَعَيْتُ عنهُ ما قالَ ، وأحياناً يتمثَّلُ ليَ المَلَكُ رَجُلاً ، فيُكلِّمُني ، فأعي ما يقولُ »[2] .

وهٰذا يحقِّقُ لك أن لكلامِ الله تعالىٰ في الروحانيَّات مظهرينِ :

مظهرٌ عليٌّ : يتشكَّلُ بالمظاهرِ الجسمانية وأصواتِها وحروفها .

ومظهرٌ آخرُ : له حرفٌ وصوت خفيٌّ روحاني ؛ لأن الجَرْسَ في أصله : هو الصوتُ الخفيُّ[3] ، والصلصلة : صوتُ اليابس الصلب إذا حُرِّكَ[4] .

وتصحُّ نسبةُ المسموع حينئذٍ إلى الله تعالىٰ بالتأويلِ الذي ذكرتهُ لك .

وها هنا سؤالانِ :

أحدُهما : ما السرُّ في مناسبة الصوتِ المسموع للصلصلة ؟

الثاني : ما وجهُ اشتدادِهِ عليه ؟

والجوابُ عن الأول : أن المتنزِّلَ بالوحي هو الروحُ ، وهٰذا الصوت ليس

---

(١) انظر (ص ١٢٠) .

(٢) صحيح البخاري (٢) ، صحيح مسلم (٢٣٣٣) ، سنن الترمذي (٣٦٣٤) .

(٣) قاله ابن دريد ، وانظر « تاج العروس » (ج ر س) .

(٤) أو صوت وقْعِ الحديد بعضه علىٰ بعض ، فيكون كالطنين الذي كأنه يُسمع من كل الجهات ، فيكون هٰذا وجهَ الشَّبه .

هو صوتَ الروح ؛ وإنما الروحُ إذا تجلَّتْ للرؤية أفادَتْ لمن تجلَّتْ عليه الرؤيةَ في مظهرٍ تناسبُ قابليَّتَهُ واستعدادَهُ ، كما قدمناهُ في اختلاف الرائينَ علىٰ حسَبِ صور أخلاقِهم وأعمالهم[1] ، وكذلك إذا تجلَّتْ للأسماع أفادَتِ السمعَ بواسطة مظهرٍ يناسبُ قابليّةَ السامعِ .

ومن المعلوم : أن الإنسانَ قبل نفْخِ الروح فيه كان أصلُهُ من صلصال ؛ وهي صورةُ طين يابس ، إذا نُقِرَ أو داخلَتْهُ الريح . . صلَّ وصوَّتَ[2] ، **ففُهِمَ بذلك أن الصوتَ والحرف المسموع عند تنزُّلِ روح الوحي إنما هو حادثٌ** مناسبٌ لصفة الإنسان[3] ، ظهرَ لتنزُّلِ روح الوحْيِ عليه ، وانفصامُهُ عنه ليس معناه انقطاعَهُ ؛ فإن كلامَ الله تعالىٰ قديمٌ لا يقبلُ الانقطاع[4] ، **وإنما انفصامُهُ غَيبةُ القلب عن تجلِّيهِ بحجاب الحسِّ** ، فهنالك يجدُ نفسه قد وعىٰ ؛ أي : جُمعَ له الوحْيُ بكتابة روحانيَّةٍ في لوح قلبه ؛ تحقيقاً لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٧] .

وأما الجوابُ عن الثاني : فإنما كان ذلك أشدَّ الوحي ؛ لأن روحَ الإنسان لها تعلُّقٌ بالحسِّ ، وارتباطٌ به ارتباطاً جسمانياً ، فإذا جاء الوحيُ بواسطة المَلَكِ وهو علىٰ مثالِ الإنسان . . فقد تطوَّرَ الملكُ[5] ، وبرزَ بالوحي إلى الدائرة الإنسانيَّةِ ، فسهُلَ على الروح تلقيهِ ؛ لمناسبتِهِ للعالم الحسيِّ .

وإذا جاء الوحيُ روحاً مجرداً اقتضىٰ تجرُّدَ القابلِ له من علاقة الحسِّ ،

---

(١) انظر (ص ١٦٦) .

(٢) صلَّ : صوَّت صوتاً كصوت الصنج ، وهو صوت قريب من صوت الحديد إذا حُرِّك .

(٣) في (ب) وحدها : (إنما هما حادثانِ ؛ ليناسبَ صفة الإنسان) بدل (إنما هو . . .) .

(٤) وهو ما يعبر عنه المتكلمون بطروء السكوت أو الآفة ، تعالىٰ ربنا وجلَّ .

(٥) تطوَّر : تمثَّل في طور الإنسانية .

فاشتدَّ تلقِّيهِ كما يشتدُّ عليها التجرُّدُ من الجسد عند الموت[١] .

ومن هـٰذا : يُفهمُ السرُّ في قوله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها في عقب الوحي : « حدِّثيني »[٢] ؛ لأنه يريدُ الرجوعَ بروحه إلىٰ عالم الحسِّ ؛ ليخفِّفَ علىٰ أمته تلقِّيَ ما يلقيهِ إليهم عند التبليغ .

ومنهُ[٣] : في « البخاري » و« الترمذي » واللفظُ له : عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال[٤] : « إذا قضى اللهُ في السماءِ أمراً ضربَتِ الملائكةُ بأجنحتِها خُضْعاناً لقولِهِ ؛ كأنَّها سلسلةٌ علىٰ صفوانٍ ، فإذا فُزِّعَ عن قلوبِهم قالوا : ماذا قالَ ربُّكم ؟ قالوا : الحقَّ ، وهو العليُّ الكبيرُ »[٥] .

وهـٰذا يقتضي : أن هـٰذا الصوتَ المسموع صوتُ أجنحة الملائكة .

---

(١) حتى الأنبياء ، وهي آخر الكُرب ، ولذا قال عليه الصلاة والسلام في مرض موته لسيدتنا فاطمة رضي الله عنها حينما قالت : وا كربَ أباه ، قال : « ليسَ علىٰ أبيك كربٌ بعد اليوم » ، رواه البخاري (٤٤٦٢) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٢) قوله هنا قريب مما في « إحياء علوم الدين » (٥/ ٣٦٥) ، وقال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٧/ ٤٣٣) : (قال العراقي : لم أجد له أصلاً) ، وثبت في « الصحيحين » : أن الوحي أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم وهو في ثوب سيدتنا عائشة رضي الله عنها ، ومن كلامه عليه الصلاة والسلام معها عقبَ تخفيف شدَّة الوحي : ما رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨٣٢٤) أنها رضي الله عنها قالت : أُوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأنا معه ، فقمتُ فأجفتُ البابَ ، فلما رُفِّهَ عنه قال : « يا عائشةُ ؛ إنَّ جبريلَ يقرئُكِ السلامَ » .

(٣) عودٌ للحديث عن متشابه صفة الكلام ، ورده إلىٰ محكمه .

(٤) يعني : النبي عليه الصلاة والسلام .

(٥) صحيح البخاري (٤٧٠١) ، سنن الترمذي (٣٢٢٣) ، وخُضعاناً : مصدر بمعنىٰ خاضعين ؛ أي : منقادين طائعين ، وقوله : (كأنها سلسلة علىٰ صفوان) يعني : القولُ المسموع يشبهُ صوتَ وقعِ السلسلة علىٰ حجر أملس ، أو جرِّها كما سيأتي ، وفُزِّع عن قلوبهم : أزيل الخوفُ عنهم ، وانظر « إرشاد الساري » (٧/ ١٩٢) .

ولـٰكن في بعضِ الروايات ما يقتضي نسبتَهُ إلى الوحي ، وهو يتخرَّجُ على ما قررناهُ ؛ لأنه كما أن الوحيَ يسمعُهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم كصلصلة الجرس باعتبارِ قابليَّتِهِ . . فكذلك تسمعُهُ الملائكة كجرِّ السلسلة على الصفوان باعتبارِ قابليَّتِهم ، لا باعتبارِ نفسه .

وفيه تحقيقٌ : أن أجنحةَ الملائكة ليست كأجنحةِ الطير ، وإنما هي صفاتٌ روحانيَّةٌ كما قالَهُ السهيليُّ[1] ؛ وهي قُوىً تسترسلُ بها فيما يأذنُ الله تعالىٰ لها من التصريف ؛ ولهـٰذا جاء ذكرُ الأجنحة في سياقِ جعلِها رُسُلاً ؛ قال تعالىٰ : ﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ﴾ [فاطر : ١] ، وضربُها بها : إعدادُها لقبول ما يُلقىٰ عليها من روح الأمر[2] ، واسترسالُها في تنفيذِهِ ، وكأنه من (ضَرَبَ في الأرض) إذا سار .

تنبيه

[علىٰ وجه الشبهِ بين رؤيا جدِّ النبي عليه الصلاة والسلام للسلسلة تخرج من ظهره وصوت السلسلة علىٰ صفوان]

من تشبيهِ ما تسمعُ الملائكة عند الوحيِ بالسلسلة . . تفهمُ المناسبةَ في رؤيا عبد المطَّلب قبل مولد النبيِّ صلى الله عليه وسلم : أنه خرجَ من ظهره سلسلةٌ

---

(١) وعبارته في « الروض الأنف » (٧/ ١٧٤) : (وقد قال أهل العلم في أجنحة الملائكة : ليست كما يتوهَّمُ من أجنحة الطير ، ولـٰكنها صفاتٌ ملكية لا تفهم إلا بالمعاينة) ، وهـٰذه المعاينة إما بخرق العادة للأولياء في الدنيا ، أو برؤيتهم قبيل الموت لكل أحدٍ ولو كان الرائي كافراً ؛ تصديقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾ [الأنعام : ٩٣] ، أو تقع يوم القيامة ، جعلنا الله من المبشَّرين من قبلهم في الدنيا ويوم القيامة .

(٢) يعني : وضربُ الملائكة بأجنحتها إنما هو لتهيئتها لقبول ما يُلقىٰ إليها من عالم الأمر ، وفي (و) : (استعدادها) بدل (إعدادها) .

لها طرفٌ بالمشرق وطرفٌ بالمغرب ، وطرفٌ في السماء وطرفٌ في الأرض . ثم صارَتْ شجرةً لها ورقٌ من نور ، تعلّق بها أهلُ المشرق والمغرب ، فأوّلَهُ المعبِّرون بوَلَدٍ[1] .

فانظر مناسبةَ هـٰذه الرؤيا للوحي :

أما مناسبةُ السلسلة : فقد علمتَهُ[2] .

وأما مناسبةُ مصيرِهِ شجرةً للوحي : فخذْهُ من كلامِهِ سبحانه لموسىٰ عليه السلام ، وإسماعِهِ إيَّاه من الشجرة .

وحقيقةُ تلك الشجرةِ : هي الروحُ المحمديَّة القائمةُ بسرِّ (لا إلـٰهَ إلا الله) ، المرادةُ بقوله تعالىٰ : ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ . . . ﴾ الآيةَ [النور : ٣٥] ، وهي الشجرةُ في قوله تعالىٰ : ﴿ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ الآيةَ [إبراهيم : ٢٤] ، وفي قوله تعالىٰ : ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴾ [المؤمنون : ٢٠] ، فالدهنُ : هو حقيقةُ الزيت الذي يكادُ يضيء ولو لم تمسَسْهُ النارُ التي آنسَها موسىٰ عليه السلام ، والصبغُ : هو حقيقةُ الصبغة في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة : ١٣٨] .

تنبيه

[علىٰ أن إفادة الشجرة لإسماعِ كلام الله تعالىٰ بمثابة اللسان]

إفادةُ الشجرة لإسماعِ كلامِ الله تعالىٰ كإفادة ألسنة القرَّاء ، وكلاهما في ذلك بمثابة القلم في إفادةِ المكتوب ، وإلىٰ هـٰذا السرِّ أشارَ قولُهُ تعالىٰ :

---

(١) نقلها العلامة السهيلي في « الروض الأنف » (٢/ ٩٥) ، وفي هامش (ج) : (والورق والنور : الهدى الذي هدى الله به جميع الأمة المحمدية) .

(٢) وهو سماع الملائكة للوحي بما يناسب جبلتهم ؛ وهو صوت السلسلة ، وفيه تهيُّؤهم لقبول الوحي ثم العمل به .

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان : ٢٧] .

وإنما ينكشفُ لك ذلك بمعرفةِ سبب نزولِ هـٰذه الآية ؛ فإن سببَ نزولها : أن اليهودَ قالوا : إنَّا أُوتينا التوراةَ ، فيها موعظةٌ وتفصيلٌ لكلِّ شيء ، فلا حاجةَ إلىٰ ما جاءَ به محمد صلى الله عليه وسلم ، فأنزلَ الله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ . . . ﴾ الآية ؛ أي : لو أن كلَّ ما في الأرض من الأشجار أقلامٌ تفيدُ من كلام الله تعالىٰ ما أفادَتْهُ شجرةُ موسىٰ لموسىٰ عليه السلام . . ما نفِدَتْ كلماتُ الله تعالىٰ ، ولا حصلَ الاستغناءُ عنها .

فانظر كيف أشارَ لشجرة الكلام الموسوية[1] ، وجعلَها بمثابة الأقلامِ في إفادة كلمات الربوبيَّة ، فكما أن المكتوب لا يحلُّ بالمكتوب فيه[2] ، ولا يكون صفةً له ، ولا ينتقلُ به عمَّن هو صفتُهُ ؛ كذلك الكلامُ المسموع لا يحلُّ بالألسنة ولا بالمصاحفِ ولا بالأقلامِ ، ولا يكونُ صفةً للقارئ ، ولا ينتقلُ بالقراءة والكتابة عن موصوفه تبارك وتعالىٰ .

فإن قلتَ : فما معنىٰ كونه منزَّلاً ؟

قلتُ : قد أجاب المتكلِّمون بأن الإنزالَ . . للكتاب والعبارة الدالَّين عليه[3] ، وفيه نظرٌ ؛ لأن المعتزلةَ وصفوه بأنه مخلوقٌ ؛ ففرَّ أهلُ السنة من ذلك إلىٰ وصفه بأنه منزَّلٌ ، فإذا كان الإنزالُ يرجعُ إلى الكتاب والعبارة الدالَّين عليه . . فالكتابُ والعبارة مخلوقةٌ أيضاً ؛ فلا فرقَ بين وصفِها بالخلق أو

---

(١) في (أ ، ج) : (الكلمات) بدل (الكلام) .
(٢) في (ب) ونسخة هامش (أ) : (بالقلم) بدل (بالمكتوب فيه) .
(٣) وهما حادثان ، فلا ضير علىٰ ذلك من اتصافهما بالإنزال الذي هو من صفات الحوادث ، والكتاب بمعنى الكتابة هنا .

الإنزال ، إلا إن رددتَ ذلك إلىٰ أمرٍ تعبُّديٍّ ، أو توقيفٍ سمعيٍّ !

والتحقيقُ : أن وصفَهُ بالإنزال كوصفِهِ تعالىٰ بالنزول ، وأنه نزولٌ بروحِ أمره ، وكذلك إنزالُ القرآن إنزالٌ للروح المحمديَّة به ؛ قال اللهُ تعالىٰ : ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَّسُولًا﴾ [الطلاق : ١٠-١١] ، فأبدلَ الرسولَ من الذكر ، والمقصودُ بالعامل البدلُ ، وذلك نصٌّ في أن إنزالَ الذكر هو إنزالُ الرسولِ بالذكر .

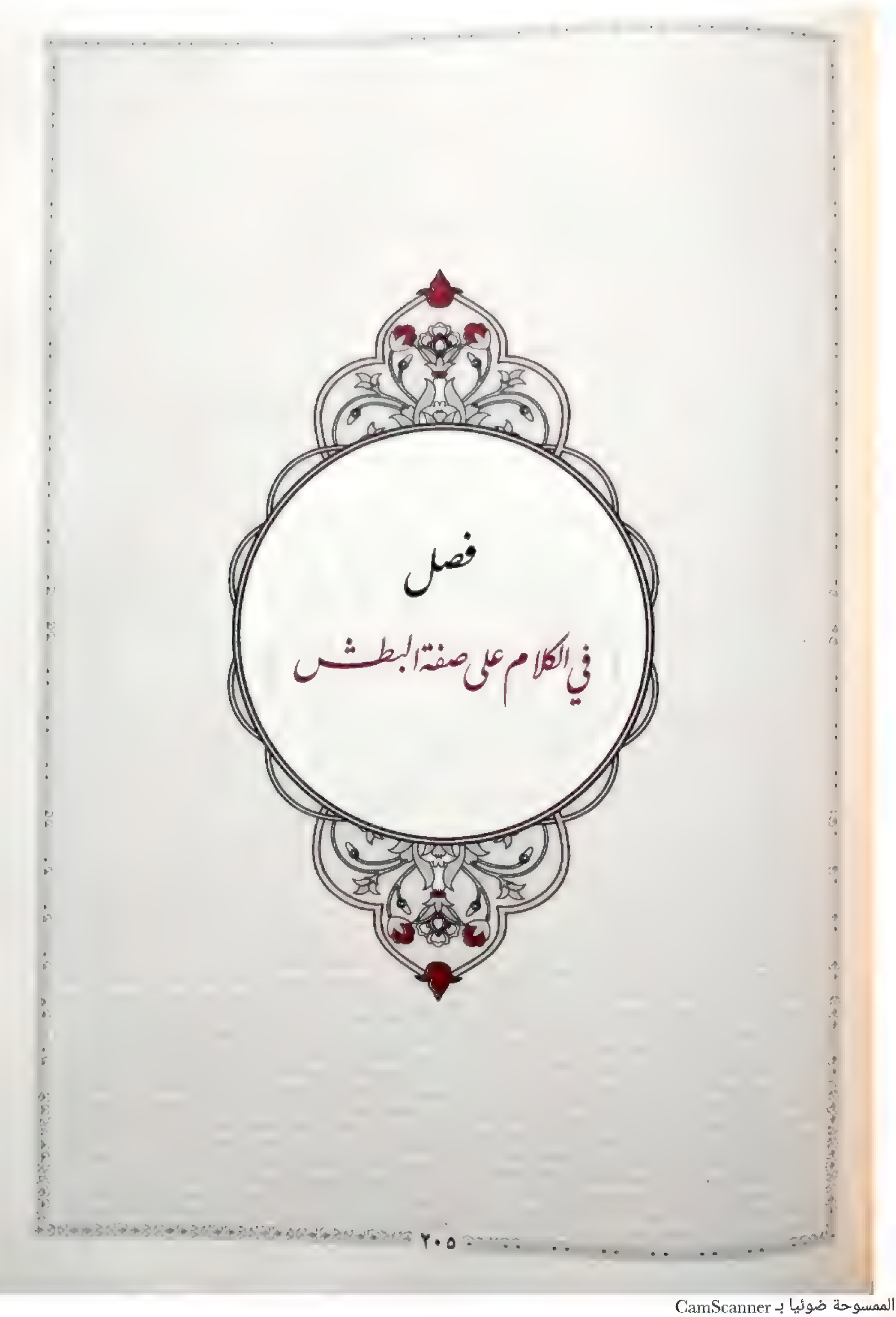
وقالَ تعالىٰ : ﴿وَٱتَّبَعُوا ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل : ٢] ، فجعل الإنزالَ للملائكة بالروح ، وفسَّرَ الروح بكلامه ؛ وهو قولُهُ تعالىٰ : ﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ ؛ ولهٰذا جاء بـ (أن) المفسِّرة ، وسيأتي لذلك مزيدُ بيان في صفة النزول إن شاء الله تعالىٰ[1] .

* * *

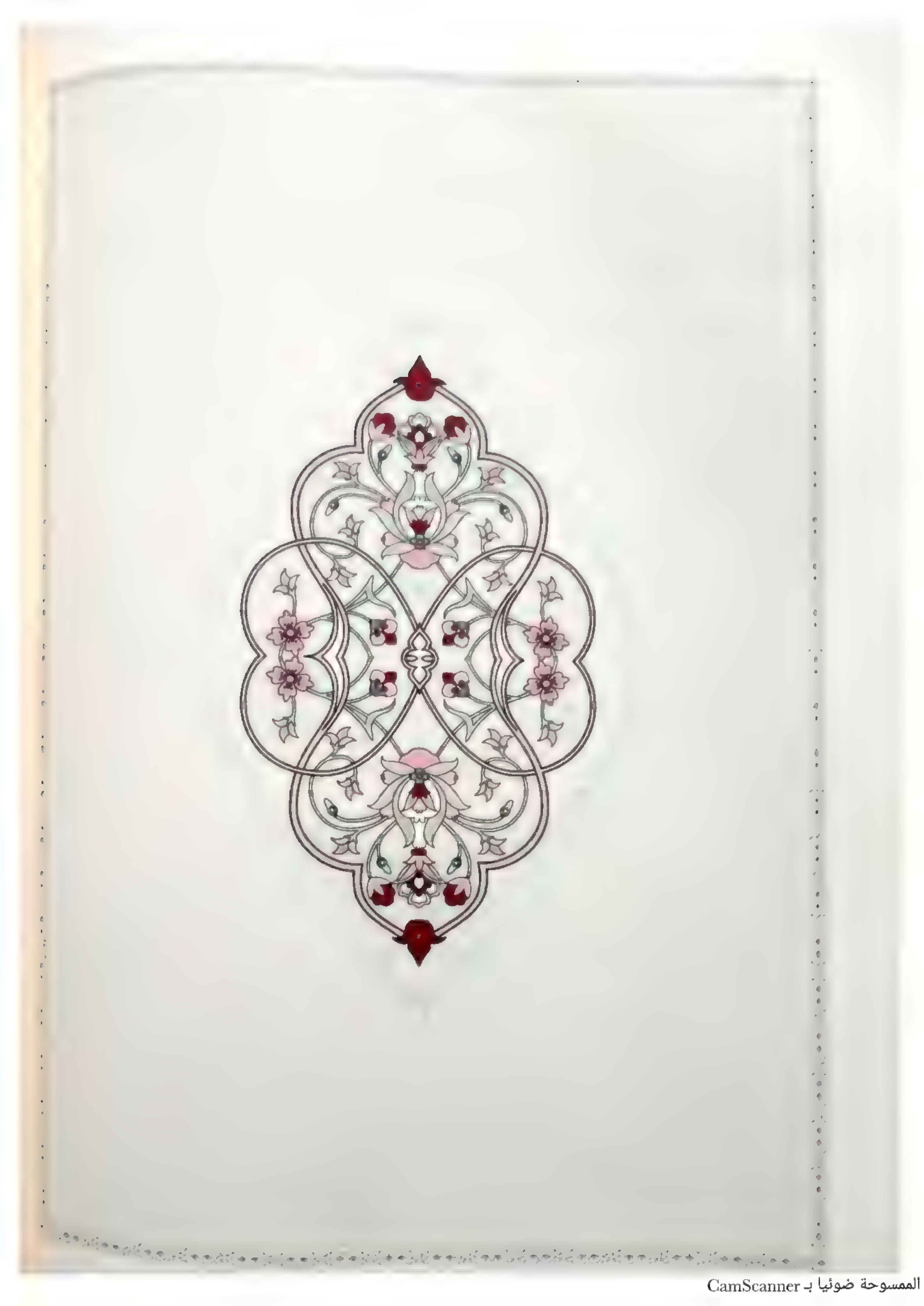
---

(١) انظر (ص ٢٨٥) .



فصل

في الكلام على صفة البطش



فصل

في الكلام على صفة البطش

من صفاته[1] : بطشُهُ سبحانه :

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ [البروج : ١٢-١٣] ، ولا تشابهَ فيه ؛ لأن الآيةَ الثانيةَ تفسِّرُ الأولىٰ ؛ ولذلك جاءَ بها علىٰ وجه البدلِ من غير عطف ؛ تنبيهاً علىٰ أن بطشَهُ عبارةٌ عن تصرُّفِهِ في بدئِهِ وإعادته[2] .

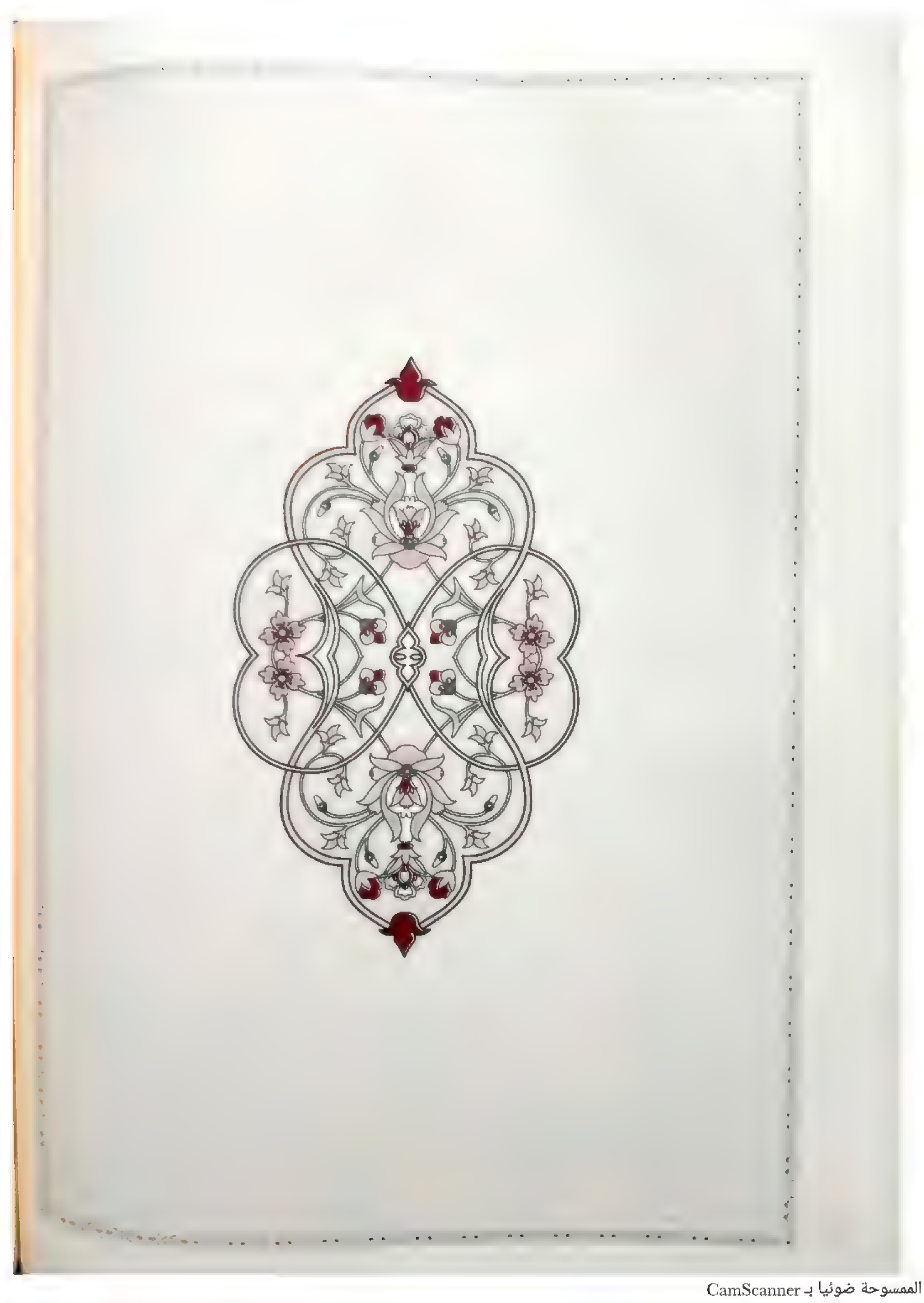
وما من شيءٍ من الكائنات جواهرِها وأعراضِها إلا وهي مفتقرةٌ إلىٰ بدئِهِ وإعادتِهِ ، فبطشُهُ تعالىٰ : اسم شاملٌ لجميع تصرُّفِهِ في مخلوقاته بدءاً وإعادةً .

* * *

---

(١) لم يَذكر أنه من المتشابه ؛ لأنه سينصُّ علىٰ عدم التشابه فيه .

(٢) وعلى الجملة : علىٰ تولِّيه سبحانه الخلق والإيجاد ؛ قال حجة الإسلام الغزالي في « المقصد الأسنى » (ص ٢٥٨) : (لـٰكنِ الإيجادُ إذا لم يكن مسبوقاً بمثله . . سمي إبداءً ، وإذا كان مسبوقاً بمثله . . سمي إعادةً ، والله تعالىٰ بدأ خلق الإنسان ، ثم هو الذي يعيدهم ؛ أي : يحشرُهم ، والأشياء كلُّها منه بدأت وإليه تعود ، وبه بدأتْ وبه تعود) .





فصل

في الكلام على صفة اليد واليدين والأيدي والأصابع والأنامل



فصل

في الكلام على صفة اليد واليدين والأيدي والأصابع والأنامل

نسبةُ الأيدي إليه سبحانه[1] : استعارةٌ لحقائق أنوارٍ علويَّة ، يظهرُ عنها تصرُّفُهُ وبطشُهُ بدءاً وإعادة[2] ، وتلك الأنوارُ متفاوتةٌ في روح القرب ، وعلى حسب تفاوتها وسعة دوائرها تكونُ رتبةُ التخصيص لما ظهرَ عنها .

ألا ترى قولهُ تعالى في حقِّ آدم عليه السلام : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص : ٧٥] كيف يُستفادُ منه تنويهٌ به وتشريفٌ وتكريم وتخصيصٌ ، ولا يستفادُ مثلُ ذلك من قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا ﴾ [يس : ٧١] ؟!

---

(١) كثير من المتكلمين المثبتين لوصفية هذه الأخبار على أن اليد صفة ، وعلى أن اليدين صفتان متباينتان بالمعنى ، وعلى أن الأيدي صفات متباينة بالمعنى ، **والإمام المصنف أرجعها جميعاً إلى أنوار القدرة** ، وهو ما يعبِّر عنه المتكلمون بتعلُّقات القدرة ؛ إذ القدرة إن تعلَّقت بإيجاد الإيمان والطاعات مثلاً .. سمِّيت توفيقاً ، وإن تعلَّقت بالرزق طعاماً وشراباً وكسوة .. سمِّيت إحساناً ، **وكلُّ ذلك مشمول بالفضل** ، وإن تعلَّقت بإيجاد الكفر والمعاصي مثلاً .. سمِّيت خذلاناً ، أو بالبلايا والرزايا والإهلاك .. سمِّيت انتقاماً ، **وكلُّ ذلك مشمول بالعدل** .

(٢) وإنما قال : (عنها) ولم يقل : (بها) لأن قدرة الله تعالى تؤثِّرُ من غير علاج ، ومن غير احتياج إلى الوسائط والآلات ، وقد تكون الباء للملابسة الدالة على العناية .

فإن قلت : هل الخلق حاصل باليدين أو بالقدرة ؟

فالجواب : الخلق منه سبحانه بقدرته ، وسيأتي أن اليدين استعارةٌ لنور القدرة .

وما ذلك إلا لأن حقائقَ أنوارِ الأيدي الخالقة للأنعام ليسَتْ في روح القرب كحقائقِ اليدينِ اللتينِ خُلِقَ بهما آدم .

فإن قلتَ : فما حقيقةُ اليدين اللتينِ خُلِقَ بهما آدم ؟[1] .

قلتُ : اللهُ أعلم بما أراد ؛ ولٰكنِ الذي استثمرتُهُ من تدبُّر كتاب الله تعالىٰ : أن اليدينِ استعارةٌ لنورِ قدرتِهِ سبحانه القائم بصفةِ فضله ، ولنورِها القائم بصفةِ عدلِهِ في عالم الغيب والشهادة[2] .

ويؤيِّدُ ذلك قولُهُ صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « يمينُ اللهِ ملأىٰ سحَّاءُ الليلَ والنهارَ ، لا تغيضُها نفقةٌ ، أرأيتم ما أنفقَ منذُ خلقَ السماواتِ والأرض ، فإنَّهُ لم يَغِضْ ما في يمينِهِ ، وعرشُهُ على الماءِ ، وبيدِهِ الأخرى الميزانُ يخفضُ ويرفعُ »[3] ، فنبَّهَ علىٰ نورِ الفضل والسخاءِ بيمينِهِ السحَّاء المنفقة ، وعلىٰ نورِ العدل باليدِ الأخرىٰ صاحبةِ الميزان .

ونبَّهَ تعالىٰ بقولِهِ عن آدمَ عليه السلام : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ . . علىٰ تخصيصِهِ له ، وتكريمِهِ إيَّاه ؛ بأن جمعَ له في خلقه بين فضلِهِ وعدله ، بمقتضىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [الحجر : ٢٩] ، فتسويتُهُ من عدله ، ونفخُ روحه من فضله ؛ ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ [آل عمران : ٧٣] .

وممَّا يُحقِّقُ لك أن اسم اليدِ استعارةٌ لنورِهِ سبحانه : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ * لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ [فصلت : ٤١-٤٢] ، فاستعارَ اليدينِ للقرآن ، ثم نبَّهَ علىٰ أنه استعارَهما لما اشتملَ عليه من نورِ الفضل ونورِ

---

(١) في (أ) : (في خلق آدم) بدل (اللتين خلق بهما آدم) .

(٢) قوله : (في عالم الغيب والشهادة) مثبت من (ب) .

(٣) رواه البخاري (٤٦٨٤) ، ومسلم (٩٩٣) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

العدل . . بقوله : ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] ، فالحكيمُ : صاحبُ نور العدل ، والحميدُ : صاحبُ نور الفضل .

ونبَّهَ بجمع الأيدي في خلق الأنعام : على أن اليدَ المنسوبةَ إليه ليست جارحةً ، وإلا لم تزد على يدينِ[١] ؛ لأن أفضلَ المخلوقات في الشاهدِ محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو على يدينِ[٢] .

وفي الحديث : « الحجرُ الأسودُ يمينُ اللهِ في الأرضِ »[٣] ، وذلك يفهمُ أن له يميناً سماويَّةً ؛ نسبتُها لأهل السماءِ كنسبة الحجرِ الأسود لأهلِ الأرض .

تنبيه

[على ما ورد من ذكر الأصابع والأنامل في حقِّه تعالىٰ]

في « صحيح البخاري » وغيرِهِ في ذلك أحاديثُ[٤] ؛ منها : حديثُ عَبِيدةَ

---

(١) يعني : لو كانت جارحة لوجب القول بتثنيتها ؛ إذ التثنية في الأيدي هي الكمال في الوجود المقيد الحادث كما سينبّه عليه جدلاً .

(٢) إن قيل : لا مدخلَ للقياس في ذلك ، وإن لسيدنا جبريل مثلاً ستَّ مئة جناح .

فالجواب : ما استدلَّ به الإمام المصنف جارٍ على مذهبه بكون الصورة المحمدية على صاحبها أنمى الصلوات وأبرك التسليمات . . هي صورة حادثةٌ خلقها الله تعالى دالَّة على كمال تجلِّياته كما نبّه على ذلك ، وأما بشأن سيدنا جبريل فالجناح غير اليد ، ومع التسليم فسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو أفضل الخلق على الإطلاق .

(٣) رواه ابن خزيمة في « صحيحه » (٢٧٣٧) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٥٧) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

(٤) كان من صنيع إمام المحدثين البخاري في ذكره لهٰذه الصفات المتشابهات في « صحيحه » أنه رحمه الله تعالى اكتفىٰ بالتبويب لها بنحو قوله : (باب قول الله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾) ، وقوله : (باب قول الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾) ، وقوله : (باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا شخصَ أغيرُ من الله ») ، فيكتفي بحكايتها كعامة سلفنا الصالح رضي الله عنهم ، وقد استشعر الإمام السنوسي سوء فهم بعض=

عن عبد الله رضي الله عنه قال : جاءَ حبرٌ من الأحبار إلىٰ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمدُ ؛ إنَّا نجدُ أن الله يجعل السماواتِ علىٰ إصبعٍ ، والأرضينَ علىٰ إصبعٍ ، والشجرَ علىٰ إصبعٍ ، والماءَ علىٰ إصبعٍ ، والثرىٰ علىٰ إصبعٍ ، وسائرَ الخلائق علىٰ إصبعٍ ، ويقول : أنا الملكُ ، قال : فضحكَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم حتىٰ بدَتْ نواجذُهُ ؛ تصديقاً لقول الحبرِ[1] ، ثم قرأ : « ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ . . . ﴾ الآيةَ [الأنعام : ٩١] »[2] .

قلتُ : هـٰذا الحديثُ شديدُ الاشتباه عند علماءِ الظاهر ، وهو محمولٌ عند بعضهم علىٰ أن اليهودَ مشبهةٌ[3] ، ويزعمون فيما أُنزلَ إليهم ألفاظاً تدخلُ في التشبيه[4] ، ليس القولُ بها من مذاهبِ المسلمين[5] .

= الطلبة بل بعض المتصدرين لتدريس علم العقيدة في عصره فضلاً عن العامة . . لظواهر هـٰذه الأحاديث ، فألَّف كتابه اللطيف : « **تأويل مشكلات البخاري** » ، فرحمه الله تعالىٰ وأحسن إليه .

(١) سيأتي عن الإمام الخطابي أن هـٰذه العبارة من إدراج الراوي ، وتحقيق معناها من قبل الإمام المصنف علىٰ أن الأمر كذلك .

(٢) رواه البخاري (٤٨١١) ، ومسلم (٢٧٨٦) ، **وعَبِيدة** : هو ابن عمرو السلماني المرادي الكوفي ، **وعبد الله** : هو سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

(٣) وقد كان هـٰذا الحبر يهودياً كما صُرِّح به في رواية للبخاري (٧٤١٤) ، ولا منازعةَ من الإمام المصنف في كون أكثر اليهود من المشبِّهة ، ومثلهم النصارىٰ ، وحسبُك بنسبة الأبوة الإضافية في حقه سبحانه المحكية في قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٠] .

(٤) **يعني** : كان من تحريفهم لكتاب الله التوراة أن جعلوا فيها ما هو صريح في التشبيه .

(٥) **اعلم** : أن من شبَّه الله تعالىٰ بخلقه تشبيهاً صريحاً . . فلا خلافَ في كفره ؛ وإنما الخلاف فيمن شبَّه لوجود نصٍّ متشابهٍ .

فمثال الأول : من يثبت لله تعالىٰ مثلاً القفا والشعر والركبة واللهاة والشفاه والأضراس والحدقة ونحو ذلك مما لا ورود له في النصوص الشرعية ، قال الإمام النووي في « شرح =

وبهـٰذا قال الخطابيُّ ، وقال : (إنه روىٰ هـٰذا الحديثَ غيرُ واحد عن عبد الله من طريق عَبِيدةَ ، فلم يذكروا قولَهُ : « تصديقاً لقولِ الحبرِ » ، ولعلَّه من الراوي ظنٌّ وحِسبانٌ ؛ لأن ضحكَهُ صلى الله عليه وسلم يحتمل أنه لتعجُّبِهِ

= المهذب » (٤/ ٢٥٣) : (قد ذكرنا أن من يكفر ببدعته لا تصحُّ الصلاة وراءه ، ومن لا يكفر تصحُّ ؛ فممن يكفر : من يجسِّم تجسيماً صريحاً) .

ومثال الثاني : من أثبت لله تعالىٰ يداً ثم قال : هي ليست كأيدينا في العظمية واللحمية والدموية ونحو ذلك ، لـٰكنها بعضه ! وهـٰذا علىٰ شفا هاوية الكفر ، ولا شكَّ أنه جاهل بربه .

وقوله : (ليس القول بها من مذاهب المسلمين) يعني : وإن انتسبوا للمسلمين ؛ قال الإمام الرازي في « اعتقادات فرق المسلمين والمشركين » (ص ٦٤) في التأريخ لظهور التشبيه بين صفوف المسلمين : (اعلم : أن اليهود أكثرهم مشبِّهة ، وكان بدء ظهور التشبيه في الإسلام من الروافض ؛ مثل بنان بن سمعان الذي كان يثبت لله تعالى الأعضاء والجوارح ، وهشام بن الحكم ، وهشام بن سالم الجواليقي ، ويونس بن عبد الرحمـٰن القمي ، وأبو جعفر الأحول الذي كان يُدعىٰ شيطانَ الطاق ، وهـٰؤلاء رؤساء علماء الروافض ، ثم تهافت في ذلك المحدِّثون ممَّن لم يكن لهم نصيبٌ من علم المعقولات) .

ولا تذهب هـٰذه العبارة الأخيرة بك للإساءة بالسادة المحدِّثين ؛ الذين حفظ الله تعالىٰ لنا بهم نصوصَ الدين ، وشرَّفوا مَنْ بعدهم بالانتساب إلىٰ سيد المرسلين ، وإنما أراد الإمام الرازي مَنِ اشتغل بالرواية وساءَ فهمُهُ لنصوصها ، وهـٰؤلاء لا نصيبَ لهم من الإمامة ؛ ولذلك قال (ص ٦٦) من هـٰذا الكتاب : (اعلمْ : أن جماعة من المعتزلة ينسبون التشبيهَ إلى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله وإسحاق بن راهويه ويحيى بن معين ، وهـٰذا خطأ ؛ فإنهم منزَّهون في اعتقادهم عن التشبيه والتعطيل ، لـٰكنهم كانوا لا يتكلَّمون في المتشابهات ، بل كانوا يقولون : آمنا وصدقنا ، مع أنهم كانوا يجزمون بأن الله تعالىٰ لا شبيهَ له وليس كمثله شيء ، ومعلوم أن هـٰذا الاعتقاد بعيدٌ جداً عن التشبيه) .

وأحسب أنه أراد بالمحدِّثين : مَنْ ذكرَهم حجة الإسلام في « إحياء علوم الدين » (٦/ ٦٦٤) بقوله وهو يتحدَّث عن الغرور : (وفرقة أخرى استغرقوا أوقاتَهم في علم الحديث ؛ أعني : في سماعه ، وجمع الروايات الكثيرة منه ، وطلب الأسانيد الغريبة العالية ، فهمَّةُ أحدهم : أن يدور في البلاد ويرى الشيوخَ ليقول : أنا أروي عن فلان ، ولقد رأيت فلاناً وفلاناً ، ومعي من الإسناد ما ليس مع غيري) .

من كذب اليهود ، ويحتمل أنه لتعجُّبه من صدقهم)[1] .

وقد روى البخاري ومسلم في إثر هٰذا حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يقبضُ اللهُ الأرضَ ويطوي السماواتِ بيمينِهِ ، ثم يقولُ : أنا الملكُ ، أينَ ملوكُ الأرضِ ؟! »[2] .

قال الخطابيُّ : (فهٰذا قولُ النبي صلى الله عليه وسلم ولفظُهُ ، وهو على وَفْقِ قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ . . . ﴾ الآيةَ [الأنعام : ٩١] ، وليس فيه ذكرُ الأصابع ، ولا تقسيمُ الخليقة)[3] .

وقد رواه الترمذي عن ابن عباسٍ رضي الله تعالىٰ عنهما ؛ قال : مرَّ يهوديٌّ فقال : كيف تقولُ يا أبا القاسم إذا وضعَ اللهُ السماواتِ علىٰ ذِهْ ، والأرضَ علىٰ ذِهْ ، والماءَ علىٰ ذِهْ ، والجبالَ علىٰ ذِهْ ، وسائرَ الخلق علىٰ ذِهْ ؟ وأشار محمد بن الصلت بخنصره أوّلاً[4] ، ثم بلغ إلى الإبهام ، فأنزلَ الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ . . . ﴾[5] .

فهٰذا يدلُّ علىٰ أن ذكرَ الأصابع وإيهامَ التشبيهِ إنما جاءَ من لفظ اليهوديِّ ،

---

(١) انظر « أعلام الحديث » للإمام الخطابي (٣/ ١٨٩٩) وهو شرحه لـ « صحيح البخاري » ، والمصنف تصرَّف للاختصار في عبارته .

(٢) صحيح البخاري (٤٨١٢) ، ومسلم (٢٧٨٧) .

(٣) انظر « أعلام الحديث » (٣/ ١٩٠٣) ، وقال : (فدلَّ أن ذلك من تخليط اليهود وتحريفهم ، وأن ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما كان على معنى التعجُّب منه والتنكير له ، والله أعلم) .

(٤) أبو جعفر محمد بن الصلت أحد رواة سند الترمذي .

(٥) سنن الترمذي (٣٢٤٠) ، وقوله : (ذِهْ) أصله (ذي) إشارة للمفرد المؤنث ، ثم أُبدلت اليا هاء وبني على السكون ، ويجوز البناء على الكسر أيضاً ، والكسر باختلاس ، وانظر « همع الهوامع » (١/ ٢٩٥) .

وزاد في هـٰذه الروايةِ الإشارةَ إلىٰ أصابع الجارحة ، وأن اللهَ سبحانه وتعالىٰ أنزلَ بسببه قولَهُ : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾ ، وظاهرُهُ : أنه أنزلها للردِّ عليه ، وأنه تعالىٰ منزَّهٌ عن ذلك .

وعلى الجملة : فقد جاء ذكرُ الأناملِ في حديث آخر عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما ؛ قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « أتاني الليلةَ ربِّي في أحسنِ صورةٍ ـ قال : أحسبُهُ في المنامِ[1] ـ قال : يا محمدُ ؛ هل تدري فيمَ يختصمُ الملأُ الأعلىٰ ؟ قال : قلتُ : لا ، قالَ : فوضعَ يدَهُ بينَ كتفيَّ حتىٰ وجدتُ بردَها بينَ ثدييَّ ، فعلمتُ ما في السماواتِ وما في الأرضِ »[2] .

وفي رواية معاذِ بن جبل رضي الله عنه : « فرأيتُهُ وضعَ كفَّهُ بينَ كتفيَّ ، فوجدتُ بردَ أناملِهِ بينَ ثدييَّ ، فتجلَّىٰ لي كلُّ شيءٍ وعرفتُ »[3] .

وأنت إذا جمعتَ بين هـٰذه الأحاديث تحقَّقْتَ عدمَ إرادة الجارحة ؛ لأنه يستحيلُ أن يكون كلُّ إصبع من يد واحدة جسمانية تسعُ السماواتِ والأرضينَ والجبال ونحوَ ذلك ، وهي مع هـٰذا العِظَمِ مجتمعُ أناملِها بين كتفيه صلى الله عليه وسلم حتىٰ يجدَ بردَها بين ثدييهِ[4] .

---

(١) هو قول لأحد رواة هـٰذا الحديث .

(٢) رواه الترمذي (٣٢٣٣) .

(٣) رواه الترمذي (٣٢٣٥) ، وفي الحديث إشارة بل تصريح بسَعَةِ العلم المحمدي ، وسيأتي للإمام المصنف أن هـٰذا العلم الحاصل هو علم التوحيد الذي هو أصل العلوم تحقيقاً .

(٤) يعني : إبقاء هـٰذه الألفاظ على ظواهرها يؤدي إلىٰ هـٰذا المحال ، أما إن تُؤُوِّلت ، وصرفت عن ظاهرها المخالف لصريح العقول التي أُنيط بها التكليف . . فلا حرج ، وفي اللغة سعة ، وعلىٰ محكم الشرع المعوَّل ، وعلى الله تعالىٰ في الفهم والإفهام المتكَل .

وإنما المعوَّلُ عليه في ذلك : أن تخرِّجَهُ علىٰ ما نبَّهنا عليه ؛ وهو أن اليدَ حقيقةُ نورِ قدرته القائمِ بالعدل في إمساك مخلوقاتِهِ وتدبيرِ مُلْكه ، وهي من عالم الأمر الموصوفِ بصفة القيُّوميَّة .

ويدلُّ علىٰ كونها من عالم الأمرِ : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [الروم : ٢٥] .

وعلىٰ أنَّها من نورِ قدرته الموصوفِ بالقيُّوميَّة : مناسبةُ الاشتقاق ، وكونُها قُرِنَ حصولُ العلم بوضعها بين كتفيهِ صلى الله عليه وسلم حتىٰ علمَ ما في السماوات والأرض ، وعلمَ كلَّ شيء ، وهـٰذا العلمُ هو علم التوحيد ، الذي هو أصلُ العلوم كلِّها .

وقد جعلَ اللهُ سبحانه شهودَ إلـٰهيَّتِهِ مقيداً بحال شهود قيُّوميَّتِهِ ؛ قال اللهُ تعالىٰ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران : ١٨] ، فنصبَ (قائماً) على الحال ، والعاملُ فيه (شهدَ) ، والحال ظرفُ العاملِ ، فلا يصدقُ كونُهم أولي العلم بشهود التوحيد إلا في حال شهودِ قيُّوميَّتِهِ .

فإذا أوَّلنا اليدَ بنور القيُّوميَّة : علمتَ أن الحديث في معناه جاء موافقاً للقرآن ، وهو يرجعُ إلىٰ ما ذكرناهُ في تأويل اليدِ صاحبة الميزان التي تقدَّمَ ذكرها في الحديث[1] .

ويُؤيِّدُ كونَها صاحبةَ العدل : أن السياقَ الذي ذُكِرَ فيه : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ . . . ﴾ [الأنعام : ٩١] إلىٰ آخره . . سياقُ قيامه تعالىٰ يومَ القيامة بفصلِ القضاء والعدل .

---

(١) انظر (ص ٢١٢) .

فإن قيلَ : فقد سمَّاها باليمين في قولِهِ سبحانه : ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر : ٦٧] ، واليمينُ هي صاحبةُ الفضل المنفقةُ كما تقدم[١] .

قلتُ : لا تنافيَ في ذلك ؛ لأن كلتا يديه يمينٌ[٢] .

تنبيـه

[على معنى الطيِّ باليمين]

قولُهُ تعالىٰ : ﴿ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر : ٦٧] أشبهُ شيء ذكره المفسِّرون في معنى الطيِّ : أنه بمعنى الإخفاء ؛ أي : والسماواتُ قد خَفِيَتْ حقائقُها بيمينِهِ في نور تجلِّيها[٣] ، فليس لأهل الموقف سماءٌ إلا نورُها ، ويؤيِّدُ ذلك : قولُهُ سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ [الزمر : ٦٩] ، فلا سماءَ لأهل الموقف إلا حجابُ نوره ، ولا ظلَّ إلا ظلُّ عرشه[٤] .

والطيُّ علىٰ هـٰذا موافقٌ لمعنى الكشْطِ في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴾ [التكوير : ١١] أي : كُشفَتْ وخفيَتْ تحت أشعة أنوارِ يمينه المقدَّسة .

---

(١) انظر (ص ٢١٢) .

(٢) روىٰ مسلم (١٨٢٧) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو مرفوعاً : « إن المقسطينَ عند الله علىٰ منابرَ من نور ، عن يمين الرحمـٰن عز وجل ، وكلتا يديه يمينٌ ؛ الذين يعدلون في حكمِهم وأهليهم وما وَلُوا » ، ولا يشتبه علىٰ عاقل أن اليمين هنا لا يراد بها الجهة قطعاً ، وهي في اللغة غير مختصة بالجهة كذلك .

(٣) يعني : لأهل الموقف يومئذ مشاهدةً ، وإلا فهي مطويات بنور قدرته إفناءً وإبقاءً في كلِّ جزء زماني لا يتجزأ ، إلا أن حقيقتها الفناء ، والإبقاء عارض لها ، وبه تعلُّق القدرة عند المحقِّقين ؛ إذ لا التفاتَ إلى الفناء الأصلي من حيث القدرة الأزلية ، ولا يخفاك أنه لا تغيُّر في صفات الله سبحانه ، ألا ترىٰ أنه سبحانه قال : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر : ١٦] ، ثم الملك له بالأمس والآن والغد على السواء ؟!

(٤) ومثل الموقف تكون الجنة ؛ قال تعالىٰ : ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ [الإنسان : ١٣] .

وأما استعارةُ الأنامل والأصابعِ لها فاعلمْ : أن حقيقةَ ذلك ترجعُ إلىٰ أنه ما من نورٍ من أنواره تعالىٰ إلا وله حجابٌ صوري ، يتعرَّفُ إلىٰ عباده بواسطتِهِ[1] ؛ بدليل قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . . ﴾ الآيةَ [النور : ٣٥] ، فضربَ المشكاةَ والزجاجة والشجرةَ أمثلةً لحُجُبِ أنواره الصُّوريَّةِ ، وقد قدمنا عند ذكر الصورة ما يُفهمُ به معنىٰ قوله صلى الله عليه وسلم : « أتاني ربِّي في أحسنِ صورةٍ »[2] .

وأن الصورةَ التي تجلَّىٰ لنبيِّهِ صلى الله عليه وسلم فيها ، وتجلَّىٰ فيها بنور يده العليا . . هي صاحبةُ الأنامل ؛ وهي ظُلَّةُ شريعتِهِ السمحة التي هي أحسنُ الشرائع ، وحقائقُ صفاتها كلُّها متنوعةٌ من روح (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) .

فيدُهُ العليا : هي صاحبةُ الخير في قوله تعالىٰ : ﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ﴾ [آل عمران : ٢٦] ، وبقولِهِ : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] ، وأناملُها الخمسُ : هي الخمسُ التي بُنِيَ الإسلامُ عليها ، ومنها أنملةُ الشهادة ، وبهـٰذا يُفهمُ السرُّ في وضعها بين كتفيهِ ؛ وهو موضعُ خاتم النبوَّة ، وفي إثمارِها العلمَ بكلِّ شيء ؛ لأن جميعَ العلوم فروعٌ لعلمِ (لا إلـٰهَ إلا اللهُ) ، ويُفهمُ السرُّ في وجوده لبردِها بين ثدييه ؛ وهو صدرُهُ الزكيُّ الطاهر ؛ لانشراحه للإسلام[3] ، فهو علىٰ نورٍ من ربِّهِ ، وعلىٰ برد الرضا والتسليمِ للقضاء ، ولا امتناعَ في

---

(١) لا لاحتياج من قِبَلِهِ جلَّ شأنه ، بل لكون الحادث في رتبةٍ لا يمكنه أن يجاوزها ؛ فهو ملازم للإمكان دوماً ، وللحدوث وجوداً ، وأنَّىٰ للحادث الباطل الهالك أن يرقىٰ منصة القِدم الأزلية الأبدية ؟! فحظُّهُ من ربِّه هو تلك الحُجُب الصورية التعرُّفيّة ، بلَّغنا الله رضاه بخير وأمنٍ وعافية .

(٢) انظر (ص ٢١٧) .

(٣) بنص قوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الانشراح : ١] .

تجسُّدِها وتشكُّلها على هيئة الصورة كما بيّنّا[1] .

وفي صورة هذه اليد الإسلاميّة[2] ظهرتْ يدُ قيّوميّته بالسماوات والأرضِ في قوله تعالى : ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [آل عمران : ٨٣] .

وفيها ظهرَ سرُّ المبايعة والعهدِ في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح : ١٠] .

وفيها ظهرَ سرُّ إجارته وعصمته بقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ [المؤمنون : ٨٨] لأن من قال : (لا إلٰه إلا الله) . . عصمَ دمَهُ ومالَهُ[3] .

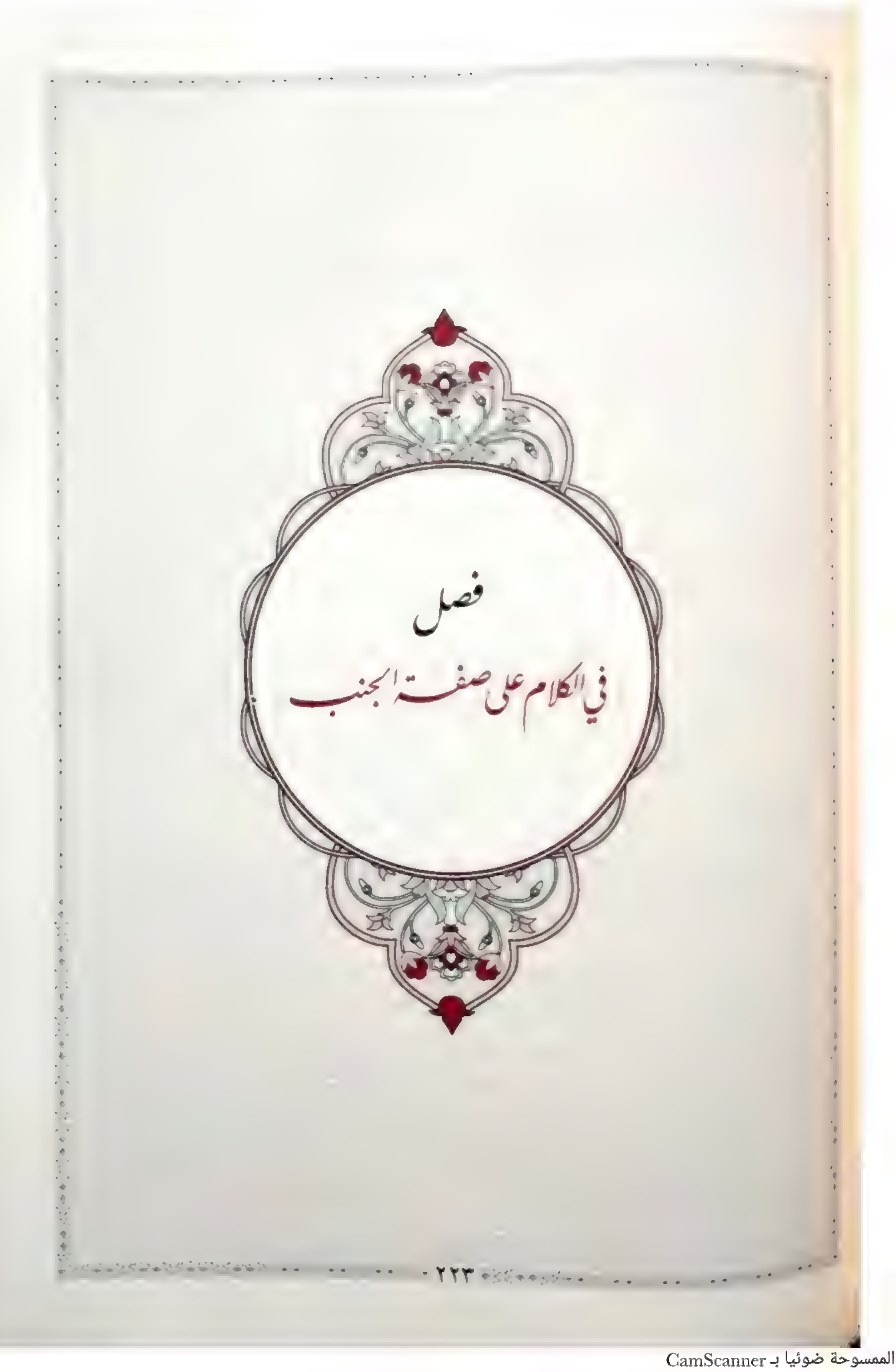
* * *

(١) ولا تنسَ أن الصورة مخلوقة ، وأنها نوع علم وإدراك بالنسبة للحادث ، وأن الذات القديمة جلَّت أن تحلَّ فيها ، وأنها راجعة لآيات الله سبحانه ، وأن من تمام المعرفة رؤيةَ الله فيها مع اعتقاد تنزُّهه عنها .

(٢) سمّاها كذلك لرمزيّة الأصابع الخمس لأركان الإسلام الخمسة .

(٣) روى البخاري (٢٥) ، ومسلم (٢٢) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً : « أُمرتُ أن أقاتلَ الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءَهم وأموالَهم إلا بحقِّ الإسلام ، وحسابُهم على الله » .





فصل
في الكلام على صفة الجنب



فصل

[في الكلام على صفة الجنب]

ومن المتشابهِ : الجَنْبُ :

في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر : ٥٦] ، وهو أيضاً يتخرَّجُ علىٰ ما مهَّدناه[١] ؛ وذلك أن الصورةَ إذا كانت ظُلَّةَ غمام الشريعة **فرأسُها** : كتابُ الله ، **وجنبُها** : سنَّةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، **ومظهرُها** : متابعتُهُ ومتابعةُ خلفائِهِ الراشدين ، وعلماءِ الأمة المتقين .

وممَّا يدلُّكَ علىٰ ذلك : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ [الزمر : ٥٥] ، مع قوله في أثناء السورة : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ [الزمر : ٢٣] ، فعُلِم أنه كتابُ الله تعالىٰ ، وكذا سنةُ رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لا ينطقُ عن الهوىٰ ؛ ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[٢] [النجم : ٤] .

فلمَّا مهَّدَ الأمرَ بالمتابعة لكتابِهِ وسنَّةِ رسوله.. حذَّرَ من إتيان عذابه قبلَ ذلك[٣] ؛ ومن قولِ النفس : ﴿ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ ، وذلك كالصريحِ في أن الجنبَ هو سنةُ رسولِهِ وعلماءِ أُمَّتِهِ المتقين ؛ لأنهم

---

(١) يعني : في مسألة الصورة ، وانظر (ص ١٤٣) .

(٢) ولما روى الدارمي في « سننه » (٦٠٨) عن حسان بن عطية رحمه الله تعالىٰ أنه قال : (كان جبريلُ ينزلُ على النبي صلى الله عليه وسلم بالسنة كما ينزلُ عليه بالقرآن) .

(٣) وذاك في قوله سبحانه : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الزمر : ٥٥] .

كانوا يسخرون من الذين آمنوا في اتباعِهم لرسولِه صلى الله عليه وسلم[1].

فلهٰذا أردفَتْ حسرتَها بقولها : ﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ [الزمر : ٥٦] .

وبقولها : ﴿ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزمر : ٥٧] ، فردَّ الله عليها بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر : ٥٩][2] .

تنبيه

[علىٰ رفعة المتَّبعين ، وحسرة الساخرين]

قد سبقَ في أثناء السورةِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِى ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر : ١٧ـ ١٨][3] ، ثم بيَّنَ

---

(١) يعني : كان هٰؤلاء المتحسِّرون يومَ القيامة يسخرون في الدنيا من المؤمنين المتزيِّنين بالسنة ؛ وقد ذكرهم تعالىٰ بقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ۝ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾ [المطففين : ٢٩ـ ٣٢] ، وروىٰ مسلم (٢٦٢) عن سيدنا سلمانَ رضي الله عنه قال : قال لنا المشركون ـ يعني : بعضَهم وعلىٰ سبيل الاستهزاء ـ : إني أرىٰ صاحبكم يعلمكم حتىٰ يعلمكم الخِراءة ! فقال : أجل ؛ إنه نهانا أن يستنجي أحدُنا بيمينه ، أو يستقبل القبلة ، ونهىٰ عن الروث والعظام ، وقال : « لا يستنجي أحدُكم بدونِ ثلاثةِ أحجار » .

(٢) واعلم : أن ترك السنة ومتابعةِ الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم. . من أعظم أسباب التحسُّر يومَ القيامة كما قال الإمام المصنف ، وهو راجع لكفرٍ خفيٍّ أو حُمق جليٍّ كما قال الإمام الغزالي في « الأربعين » (ص ١٩٧) ، وقال في « إحياء علوم الدين » (١/ ٥٨٦) : (لا ينبغي أن يكون حظُّكَ من ممارسة الفقه أن تتميَّزَ لك السنةُ من الفرض ، فلا يعلقُ بفهمك من أوصاف السنة إلا أنه يجوز تركها ، فتتركها !) ، فمن تمسَّك بالسنن كلِّها ؛ مؤكَّدها ومستحبِّها ، في العبادات أو العادات بل في شؤونه جميعِها . . فقد تصوَّرَ بصورة الكمال الإمكاني الذي لا مرامَ لعبدٍ فيه من غير هٰذا السبيل ، وحازَ مفتاحَ السعادة الأبدية بإكسيرِ الاقتداء والاتِّباع ، فنسأل الله تعالىٰ أن يعظِّمَ علينا المنَّة بالتلبُّس بالسنَّة .

(٣) قوله (عبادي) بإثبات الياء في جميع النسخ ، وهي قراءة السوسي ، وانظر « النشر في =

بأنهم الذين اتقوا بقوله : ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ ﴾ ، ثم بيَّنَ بقوله : ﴿ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ ﴾ [الزمر : ٢٠] أن ذلك هو الذي وعدهم به في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [البقرة : ٢١٢] لأنهم يكونون في الدركِ الأسفل ، والذين اتقوا في الغرف .

ولذلك حُقَّ لهم أن يتحسَّروا علىٰ ما فرَّطوا في جنب الله ؛ وهو صحبةُ رسوله صلى الله عليه وسلم ومتابعته ، حتىٰ يسعدوا به وبصحبته كما سعدَ به المتَّقون من أتباعه واهتدوا باتباعه ، وفي ذلك اليومِ تظهرُ لهم حقيقةُ سخريَّتهم في قولِهِ : ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا . . . ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾ [محمد : ١٦ـ ١٧][1] .

تبصرة

[في الصاحب الحسي والصاحب المعنوي]

إذا تقرَّرَ لك بهٰذا : أن الجنبَ جنبانِ : جنب حسيٌّ ، وجنب معنويٌّ حقيقي ؛ فكذلك الصاحبُ بالجنب صاحبانِ : صاحبٌ في السفر الحسي ، وصاحبٌ في السفر المعنوي الغيبيِّ القلبي[2] .

وبذلك فافهم السرَّ في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ

القراءات العشر » (٢/ ١٨٩) .

(١) والآيتان بتمامهما : ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ۝ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾ .

(٢) في (أ ، ج) : (العلمي) بدل (القلبي) .

شَيْـًٔاۖ . . . ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [النساء : ٣٦][1].

فإن تنزَّلتَ فاعتبرْ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم . . . ﴾ الآيةَ [النساء : ٦٩] ، وإن ترقَّيتَ فاعتبرْ قولَهُ تعالىٰ عن رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ [النجم : ٢] ، ثم اعتبرْ قول الرسول صلى الله عليه وسلم في سفره : « اللهمَّ ؛ أنتَ الصاحبُ في السفرِ ، والخليفةُ في الأهلِ »[2] .

بيان

[في جلوسه صلى الله عليه وسلم علىٰ عرش الرحمٰن]

قد رَوىٰ أبو عبد الله الحكيمُ الترمذيُّ بسنده إلىٰ عبد الله بن سلام رضي الله عنه : أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم يجلسُهُ اللهُ تعالىٰ معه على العرش[3] .

---

(١) والآية بتمامها : ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ .

(٢) رواه مسلم (١٣٤٢) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

ووجه الاعتبار في ذلك : أن العبد اليَقِظَ في حال تنزُّله يكون مع الصديقين والشهداء والصالحين ، وفي حال ترقيه لا يني عن صحبة النبي عليه الصلاة والسلام ؛ باتِّباع سنته إلى رؤيته يقظةً ، ولا يغفُلُ عن صحبة الله جلَّ جلاله بمقام المراقبة إلىٰ مقام الشهود ، والله أعلم .

(٣) رواه في « نوادر الأصول » (١٣٧٩) بنحوه ، وقال قبل إيراده : (ولذلك قال مجاهد في قوله تعالىٰ : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٩] ، قال : يجلسه على عرشه ، وروي لنا : أنه يُنشِئ ناشئةً من العرش كهيئة الشجنة ، فيحملُهُ من الموقف إلى العرش ، حتىٰ ينظر إليه الخلق في تلك الوقفة ، فيتلهَّفون علىٰ ما فاتهم من أداء حقِّهِ إذا رأوا له تلك المنزلة عند ربه) ، والشجنة : الشعبة من كل شيء .

واعلم : أن عامة أئمة المسلمين قد أنكروا روايةَ جلوسه عليه الصلاة والسلام على العرش بلفظ المعية ؛ وأنه هو المقصود من المقام المحمود ؛ إذ أسانيدُها دون أسانيد تفسيره

وذلك يتخرَّجُ على ما مهَّدناه(١) ؛ لأننا بيَّنَّا أن الصورةَ التي يتجلَّى الله سبحانه وتعالىٰ فيها هي ظُلَّةُ غمامِهِ ؛ وهي أنوارُ آياته ، وفي تلك الصورة يتجلَّى على العرش ، ونبيُّنا صلى الله عليه وسلم يتجلَّى لأمته في ظُلَّةِ سنته ، وكتابُ الله تعالىٰ وسنةُ رسولِهِ صلى الله عليه وسلم لا يفترقانِ ، كما لا تفارقُ (لا إلٰهَ إلا اللهُ) (محمدٌ رسولُ اللهِ)(٢) .

= بالشفاعة ؛ فهـٰذه الأخيرة مستفيضة ، وبعضهم حسَّن الظنَّ براويها ، فتأوَّلها كما فعل الإمامُ المصنف هنا ، وقد قال الإمام القاضي عياض في « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » (ص ٢٧٣) : (وبذلك جاءت الشفاعة مفسَّرةً في صحيح الأخبار عنه عليه الصلاة والسلام ، وجاءت مقالةٌ في تفسيرها شاذَّةٌ عن بعض السلف يجب ألا تثبت ؛ إذ لم يعضدها صحيحُ أثر ولا سندُ نظر ، ولو صحَّتْ لكان لها تأويل غيرُ مستنكر ، لـٰكن ما فسَّرَهُ النبي صلى الله عليه وسلم في صحيح الآثار يردُّهُ ، فلا يجب أن يلتفت إليه ، مع أنه لم يأتِ في كتاب ولا سنة ، ولا اتفق على المقال أمة ، وفي إطلاق ظاهره منكرٌ من القول وشُنْعة) .

(١) يعني : في مسألة الصورة ، وانظر (ص١٤٣) .

(٢) ومتىٰ وُجِدَ تردُّدٌ في فهم المعية والمجالسة ، بل وأيِّ نصٍّ متشابه . . فاعلمْ أن ذلك راجع لأمور :

الأول : أنه لا تزالُ في نفس المتردِّد بقيةُ تشبيهٍ : إذ هو يفهم من استواء الرحمـٰن على العرش ، أو جلوسه إن صحَّ بهـٰذا اللفظِ الخبرُ . . ما يفهم من استواء الحادث وجلوسه ؛ وجلَّ ربُّنا عمَّا تحكم به الأوهام .

الثاني : الهيبةُ من النصوص الشرعية الناطقةِ بهـٰذه المتشابهات : فهو يحكمُ بكثرتها وصرائحِ ظواهرها بأنها غالبةٌ على المعنى المُفاد من التأويل ؛ بحجة تقديم النقل على العقل ، وتقديم الحقيقة على المجاز .

وهـٰذه آفةٌ سببُها غلبةُ الوهم ، وانتشار فكر التشبيه في عصرٍ لم تعدْ فيه للعلماء كلمةٌ مسموعة ؛ وهـٰذه الشُّبهُ لا تتشبَّثُ إلا بخالي الفؤاد عن الاعتقاد ، أو خالي الوفاض عن العلم ؛ إذ مثالُ الممنوع من تقديم العقل على النقل : أن يُقدِّم أحدهم مدَّعياً المصلحة وملاءمةَ العصر حكماً وضعياً علىٰ حكم شرعي رصين ؛ كقول بعضهم : لليافع حقٌّ اختيار أي دين يشاء وإن كان ولداً للمسلم ، ومثالُ الممنوع من تقديم المجاز على الحقيقة : أن تدَّعيَ في ألفاظ النصِّ الشرعي معاني تخالف قطعيَّاته ، فتصيرَ إلى المجاز مع إمكان العمل =

بالحقيقة لغةً وشرعاً ، كتأوّل بعضهم قوله تعالى في تحريم الخمر : ﴿فاجتنبوه﴾ أي اجعلوه على جنبكم ، وليس المراد تحريمه ! وهذا عبثٌ وهزء ! ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [التوبة : ٦٥] .

ثم اعلم : أنه ما هاب الشريعة وصاحبَها كما هابَهم العلماءُ العاملون الربّانيون ؛ إذ هم الذين جمعوا بين مُحكمها ومتشابهها ، وجمعوا بين أسرار ظواهرها وبواطنها ؛ فأحسنوا الاعتقادَ بعقائدها ، وعملوا بأوامرها وانتهَوا عن نواهيها ، وهـٰكذا تكون الهيبةُ منها .

الثالث : الحيرةُ في إثبات المعنى المراد : فهو يصرف النصَّ عن ظاهره ، ولـٰكنه بعد ذلك تحدّثه نفسه وتقول : إن لم يكن الظاهرُ هو المرادَ فما المرادُ إذاً ؟ وجوابها : وما عليكِ ألا تعلمي أمراً لم تكلّفك الشريعة معرفته ؟! وإنما كُلِّفنا بردِّ ذلك إلى الله ورسوله ، فآمنتُ بهـٰذه النصوص على مراد الله ومرادِ رسوله ، وهـٰذا موقفٌ مؤيَّد .

وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٠٧٢٩) عن سيدنا أنس رضي الله عنه : أن عمر قرأ على المنبر : ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس : ٣١] ، ثم قال : هـٰذه الفاكهةُ قد عرفناها ، فما الأبُّ ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : إن هـٰذا لهو التكلُّفُ يا عمر .

الرابع : مداراةُ الضعفاء الذين يُخشى عليهم عند التأويل هجرُ الإيمان : قال حجةُ الإسلام الغزالي في « ميزان العمل » (ص ٣٠٦) : (إن وقعَ له مسترشدٌ تركيٌّ أو هندي أو رجلٌ بليدٌ جلفُ الطبع ، وعلم أنه لو ذُكِرَ له أن الله تعالى ليس ذاتُهُ في مكان ، وأنه ليس داخلَ العالم ولا خارجه ، ولا متصلاً بالعالم ولا منفصلاً عنه ؛ لم يلبثْ أن ينكرَ وجود الله تعالى ويكذِّبَ به . . فينبغي أن يقرَّرَ عنده : أن الله تعالى على العرش ، وأنه ترضيه عبادة خلقه ويفرحُ بها ، فيثيبهم ويدخلُهم الجنة عوضاً وجزاء .

وإن احتمل أن يذكر له ما هو الحقُّ المبين ويكشفَ . . فالمذهبُ بهـٰذا الاعتبار يتغيَّرُ ويختلف ، ويكون مع كل واحد على حسب ما يحتمله فهمه) ، وما أكثر الحاجةَ إلى هـٰذا اليوم مع العامة ! وهـٰذا مأجورٌ إن صدقت نيّته ، ورجَّحَ بعد تردُّده السيِّئَ على ما هو أسوأ ، وسبحان من عمَّت رحمته كلَّ شيء .

الخامس : المداهنة والمصانعة : حيث ترى بعض من سلمت عقيدته ، وعلم أن الحق ما قرَّره الراسخون في العلم ، وأن تلك المتشابهات ليست على ظواهرها . . يردِّدُ بين لسانه وقلبه ؛ فهو يصانعُ أهل الدنيا لدنياهم ، ويجاملُهم في اعتقاداتهم ، لا جمعاً للكلمة ، ولا حبّاً لترصيص الصفوف ، بل طمعاً في مالهم ، أو في جاههم ، وعبيدُ الجاه أكثرُ من عبيد المال .

فمن ها هنا صحَّتِ المجالسةُ له مع ربِّهِ تعالىٰ علىٰ عرشه[1] ، كما وضحَ بهٰذا حسرةُ النفوس التي شقيَتْ بمخالفته علىٰ تفريطِها في جنب الله ؛ لأنها تشهدُ هنالك حقيقةَ معيَّةِ ربِّهِ له ومجالسته .

اعتبار
[في لمعة من أسرار اتّباع السنة]

ذكر أبو عبد الله الترمذي في « نوادر الأصول » له حديث رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهوال يوم القيامة ، وفيه : « ورأيتُ رجلاً مِنْ أمَّتي

= واعلم أن من الدنيا : رؤوساً متعمِّمة ، طاعَ له بعضُ العلم ، وحفظَتْ بعضَ الأخبار والآثار ، وعَدَتْ علىٰ صنعة الحديث فاحترفتها ، فكان لها وجاهةٌ بين الناس ، وقبولٌ عند بعض أهل التنفُّذ ، قد اتَّخذوا من أمثال هـٰؤلاء خولاً لهم ، عافانا الله وإياهم ، وردَّنا جميعاً إلىٰ ديننا ردّاً جميلاً .

السادس : عدم إتقان علمي أصولِ الدين وأصولِ الفقه : فيتوهَّم غير الممارس لهما جوازَ وجود تعارضٍ بين العقل والنقل ، حتىٰ إنك ترىٰ بعضَ من له صلة بالتصوف ويدَّعيه يفهم من كلام الصوفية مثلَ هـٰذا ، ويدَّعي قصور العقل عمَّا أُمرَ به ! ولا نزاع في وجود طوريَّة وراء العقل ، ولـٰكن النزاع في هدم هـٰذه النعمة ، وإسقاط كرامة العقل باحتمالات طائشة لكلامٍ فضفاض حمَّال أوجه لبعض الصوفية ! فتراه يعتقد التجسيم في باطنه ، ويخاف المجاهرة به ، أو يتردَّد في ذلك ، ويحسب أنه بلغ رتبة معرفية قَصُرت العقول عن دركها ، ومن هزالة العلم أُتي ، ومحققو الصوفية وعلم الكلام علىٰ وفاق في سلامة الاعتقاد .

السابع : التقليد الأعمىٰ : وهو داءٌ استشرىٰ حين هانَ الدينُ علىٰ أهله ، فلم يعدْ في مقدمة ما يهتمُّون به ، مع أنه أهمُّ عند العاقل من النفس والأهل والمال ، والعجبُ أن كثيراً من أهل عصرنا يقلِّدون في الأصول ، ويجتهدون في الفروع ! مع أن التقليدَ للكتاب والسنة في الأصول حرام ، والاجتهادَ فيهما في الفروع لمن لم يحكم أدواته حرامٌ أيضاً ، ولا عجبَ بعد إخبار سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم بكثرة الهالكين والمفتونين آخر الزمان ، لا جعلنا الله منهم ، ومنَّ علينا جميعاً بحفظه وكلاءته من كلِّ ما لا يرضيه سبحانه .

(1) فهي عنديَّة خاصَّة بالنبي عليه الصلاة والسلام ، ومن علم أنه تعالىٰ منزَّهٌ عن الحدود في ذاته ، وعن الحدوث في صفاته . . لا يُشكل عليه فهمُ هـٰذه الأخبار إن صحَّت .

والنبيُّونَ حِلَقٌ حِلَقٌ ، كلَّما دنا إلىٰ حضرةٍ طُرِدَ ، فجاءَهُ غسلُهُ من الجنابة ، فأخذَ بيدِهِ فأقعدَهُ إلىٰ جنبي »[1] .

وهو أيضاً يتخرَّجُ علىٰ ما مهَّدناه[2] ؛ لأن اتِّباعَ السنة تارةً يكون فيما يقتضي التنزيهَ ، وتارةً يكون فيما يقتضي الحمدَ ، وبهما تملأُ الميزانَ[3] ، كما ثبتَ في الصحيح : « الطُّهورُ شطرُ الإيمانِ ، والحمدُ لله تملأُ الميزانَ »[4] ، وصاحبُ غسلِ الجنابة إذا شهدَ نور المتابعةِ المحمديَّةِ في الغسل . . حصل له شطرُ الإيمان ؛ فلذلك فاز بصحبتِهِ للجنب المحمديِّ ومجالسته[5] .

* * *

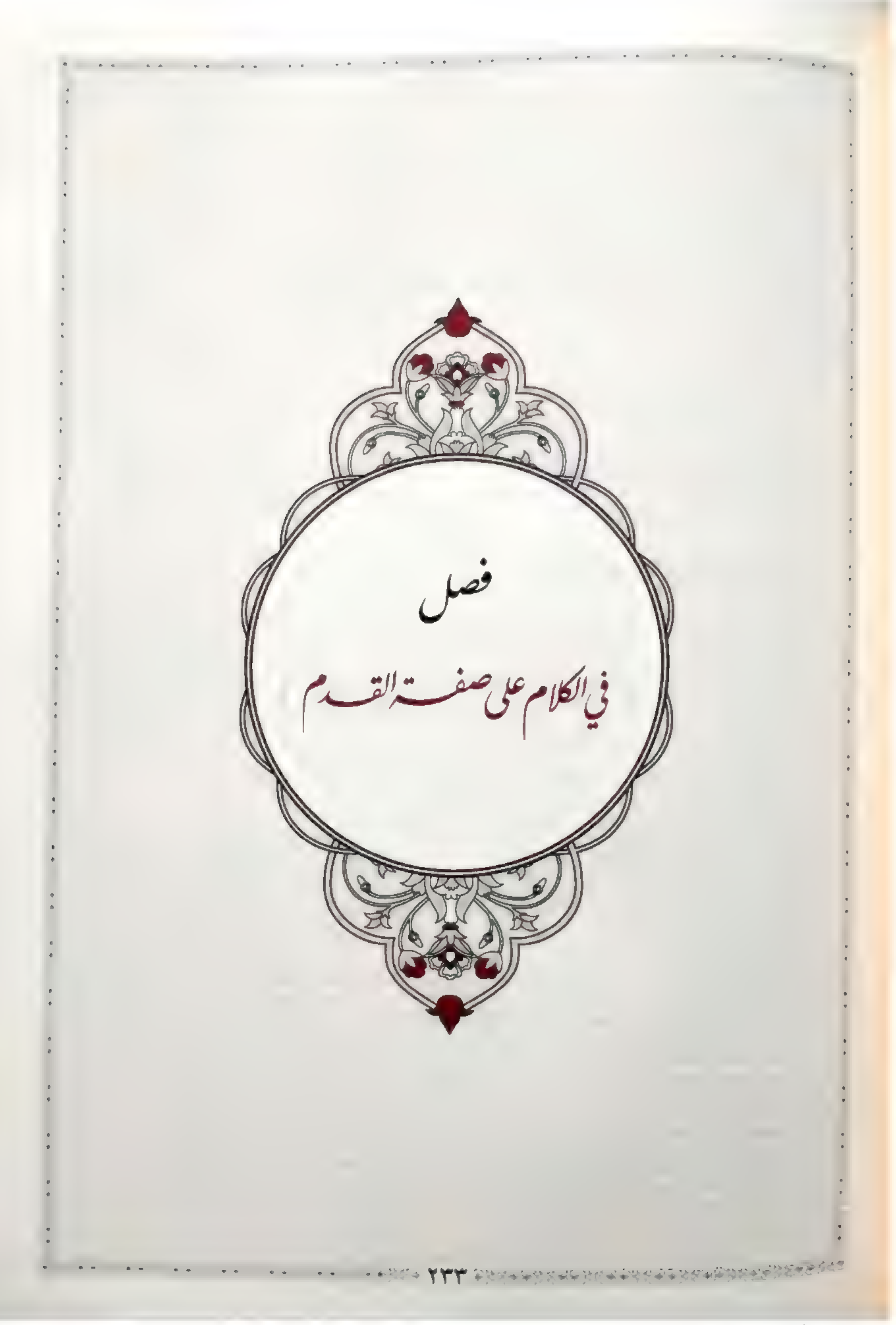
(١) نوادر الأصول (٦/ ٤٣) ، وهو قطعة من الحديث (١٣٢٤) .

(٢) يعني : في مسألة الصورة ، وانظر (ص ١٤٣) .

(٣) في (أ ، ج) : (يكمل) بدل (يملأ) .

(٤) رواه مسلم (٢٢٣) من حديث سيدنا أبي مالك الأشعري رضي الله عنه .

(٥) قال العلامة الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (٦/ ٤٤) : (هـٰذا الجُنُبُ لو لم يكن يغتسل في الدنيا لمنعه فقد طهارته عنهم ـ يعني : الأنبياء ـ ، فلما اغتسلَ في الدنيا صارت منزلته بطهارته بحيث صلح وجاز أن يقعد إلىٰ جانب سيد الرسل عليه السلام ، وبالطهارة وجد السبيل إلىٰ ذلك) .



فصل

في الكلام على صفة القدم



فصل

[في الكلام على صفة القَدَم]

ومن المتشابهِ : صفةُ القَدَمِ :

فإنه ثبتَ في « الصحيحين » من حديث أنسِ بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « لا تزالُ جهنَّمُ تقولُ : هل مِنْ مزيدٍ . . حتىٰ يضعَ فيها ربُّ العزَّةِ قَدَمَهُ ، فتقولُ : قَطْ قَطْ وعزَّتِكَ »[1] .

وهٰذا أيضاً يرجعُ إلى المحكم ؛ قال اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس : ٢] ، وقد مهَّدْنا أن الصورةَ المنسوبة إلى الله تعالىٰ هي ظُلَّةُ غمامِ الشريعة ، وأن وجهَهُ منها : بارقُ نورِ التوحيد ، ومظهرَهُ : الإخلاص[2] .

وعلىٰ هٰذا : فالقَدَمُ منها[3] : هو نورُ الإيمان ، ومظهرُهُ : الصدق ، **وهٰذا هو القَدَمُ الذي تستغيثُ النارُ من نوره** ؛ كما جاء في حديث أبي سميَّة

---

(١) صحيح البخاري (٦٦٦١) ، وصحيح مسلم (٢٨٤٨) ، **وتمامه** : « ويُزوىٰ بعضُها إلىٰ بعض » ، وقوله : (قط قط) قال الحافظ القسطلاني في « إرشاد الساري » (٩/ ٣٨٤) : (بسكون الطاءين وكسرهما مع التخفيف فيهما ، والتكرار للتأكيد ؛ أي : حسب حسب ، قد اكتفيت) .

(٢) انظر (ص ٢٢٥) .

(٣) يعني : من الصورة المنسوبة له سبحانه ، والراجعة لآياته .

قال : سألتُ جابرَ بن عبد الله رضي الله تعالىٰ عنهما عن الورود ، قال : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الورودُ الدخولُ ، لا يبقىٰ برٌّ ولا فاجرٌ إلا دخلَها ، فتكونُ على المؤمنِ برداً وسلاماً كما كانَتْ علىٰ إبراهيمَ عليهِ السلامُ ، حتىٰ إنَّ للنارِ ضجيجاً مِنْ بردِهم »[١] .

وفي حديث يعلىٰ قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ النارَ لتنادي : جُزْ يا مؤمنُ ؛ فقد أطفأَ نورُكَ لهبي » ، أخرجهما أبو عبد الله محمد الترمذيُّ الحكيم[٢] ، وذكر القرطبيُّ حديثَ يعلىٰ عن أبي بكرٍ النجاد[٣] .

تحقيق

[في أن القَدَم راجع لنور الإيمان]

ممَّا يحقِّقُ أن القَدَمَ ما ذكرناه أمرانِ :

أحدُهما : أن نورَ الإيمان يكفِّرُ جميعَ أسباب الكفر والمعاصي[٤] ؛ وهي أسبابُ النار ؛ فكما يطفئ أسبابَها في الدنيا ، فكذلك حقيقتُهُ تطفئُ حقيقتَها في الآخرة .

الثاني : نسبتُهُ إلىٰ ربِّ العزَّة[٥] ؛ وهو صاحب العزَّة ومالكُها ، والعزَّةُ وإن

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٣/٣٢٨) ، والحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (٩٩) ، وسيأتي أنه أخرجه بعد الحديث الآتي .

(٢) سبق بيان الأول ، والثاني رواه في « نوادر الأصول » (١٠١) من حديث سيدنا يعلى بن أمية رضي الله عنه ، ويقال له أيضاً : يعلى ابن منية بنت غزوان أخت عتبة بن غزوان .

(٣) انظر « التذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة » (٢/٧٥٩) .

(٤) **يكفِّرُ** : يمحو ، وكذا شُكلت في (ج) ، وعلى التخفيف : يستر ويغطي ، وكلاهما صواب .

(٥) حيث استغاثت جهنم فقالت : (وعزَّتك) .

كانت جميعاً لله تعالىٰ بمقتضىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر : ١٠] . لٰكنه قد نسبَها لرسولِهِ صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بقوله : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : ٨] ، فما من مؤمن إلا وهو صاحب العزَّة ، فإذا وضعَ قدمَهُ حُقَّ للنار أن تضجَّ منه وتنزويَ[1] ، وتنطفئ نارُها بما له من نور العزَّة .

مـا عليـهِ مِـنْ نـارِهـا فهْـوَ نـورٌ هكذا النورُ [مخمدُ] النيرانِ[2]

فـائـدة

[النبيُّ عليه الصلاة والسلام الأصلُ الجامع لكلِّ نور من أنوار صفاته تعالىٰ وأسمائه]

في « الشفا » للقاضي عياض : أن من أسمائِهِ صلى الله عليه وسلم : (قدمَ الصدقِ)[3] ، وهو يقتضي أنه الأصلُ الجامع لكلِّ نور من أنوار صفاتِهِ وأسمائه تعالىٰ .

تنبيـه

[علىٰ معنى الرِّجْل]

جاءَ في حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه عند مسلم : « فأمَّا النارُ فلا تمتلئُ حتىٰ يضعَ اللهُ تباركَ وتعالىٰ رِجْلَهُ ، فتقولُ : قَطْ قَطْ ، فهنالكَ تمتلئُ وينزوي

---

(١) تنزوي : تنكمش ويتقلَّص بعضها إلىٰ بعض .

(٢) البيت من الخفيف ، وأثبت من (ب) وحدها ، وفيها : (يخمد) بدل (مخمد) ، وهو للعارف الحاتمي في « ترجمان الأشواق » (ص ٢٤) ، ضمن قصيدة مطلعها :

مـرضـي مـن مـريضـة الأجفـان عللانـي بـذكـرهـا عللانـي

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم (ص ٢٩١) .

بعضُها إلىٰ بعضٍ ، فلا يظلمُ اللهُ مِنْ خلقِهِ أحداً . . . » وذكر الحديثَ[1] .

وهو غيرُ منافٍ لما ذكرناه ، ومرجعُهُ للحديث الصحيح الذي قدَّمناه : « ولا يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتىٰ أحبَّهُ ، فإذا أحببتُهُ كنتُ سمعَهُ . . . » إلىٰ قوله : « ورِجْلَهُ التي يمشي بها »[2] ؛ فإنه يقتضي تحقُّقَ رِجْلِ المؤمن بنورِ التوحيد ، حتىٰ تكونَ منسوبةً إلى الله تعالىٰ ، وحينئذٍ فهو موافقٌ لما تقدَّم في القدم[3] .

وقوله : (فهنالكَ تمتلئُ) ، أي : بأهلِها من المتكبِّرين .

قوله : (وينزوي بعضُها إلىٰ بعضٍ) **فيه حكمتانِ** :

إحداهما : أنها عندما تضجُّ بسبب نورِ العزَّةِ من أقدام المؤمنين ويخرجون منها . . تخلو مواضعُهم ، فلو بقيَتْ كذلك لما كانت مملوءةً ، وهو منافٍ لقوله تعالىٰ : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ . . . ﴾ الآيةَ [الأعراف : ١٨] ، **وأيضاً** : فربما كانَ في ذلك تخفيفاً علىٰ أهلها[4] ، فاقتضَتْ الحكمة الإلـٰهيَّةُ أنها حينئذٍ تنضمُّ وتجتمعُ علىٰ أهلها وتمتلئُ بهم ؛ تحقيقاً للوعيد ، وزيادةً في العذاب[5] .

والحكمةُ الثانية : أنها لو بقيَتْ مواضعُ أقدام المؤمنين خاليةً من النار . . لم يتمَّ لهم سرورُهم بالأمن منها ؛ لعلمِهم أن اللهَ سبحانه وتعالىٰ وعدَها أنه يملؤُها ، فربما توقَّعوا الإعادةَ فيها[6] ، فكان في انزوائِها وانضمامِها على

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٤٦) ، ورواه البخاري أيضاً (٤٨٥٠) .

(٢) تقدم (ص ١٢١) .

(٣) انظر (ص ٢٣٥) .

(٤) **يعني** : بوجود السعة فيها ، وقد قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ [الفرقان : ١٣] .

(٥) **تحقيق الوعيد** : بامتلائها ، **وزيادة العذاب** : بضيقها ، نسأل الله العافية .

(٦) للإمكان العقلي ، والنظر في حضرة الإطلاق ، مع الاستحالة الشرعية .

أهلها وامتلائِها بهم . . تأمينٌ للمؤمنين ، كما ذُبِحَ الموت بين الفريقينِ تحقيقاً للخلود[1] .

وقوله : (فلا يظلمُ اللهُ مِنْ خلقِهِ أحداً) أي : لا يملؤُها بغيرِ أهلها[2] ؛ تحقيقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ * يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق : ٢٩-٣٠] .

تبصرة

[في علاقة القَدَم بالتثبيت]

بهٰذا القَدَمِ تفهمُ السرَّ في قوله تعالىٰ : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ . . . ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال : ١١][3] ، وفي قولِ الرِّبِّيين : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ [آل عمران : ١٤٧] .

فنبَّهَ تعالىٰ علىٰ أن تثبيتَ الأقدامِ بالماء المطهَّر ، المنزَّل على القلب بروح نورِ التوحيد ؛ بدليل قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] ؛ **وذلك الماءُ المطهِّرُ هو القرآن** ؛ بدليلِ قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ١٠٢] .

---

(١) انظر (ص ١٤٩) .

(٢) وما ورد بخلاف ذلك فالروايةُ فيه على القلب كما نبَّه عليه الشرّاح .

(٣) والآية بتمامها : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَـٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ .

فانظرْ كيف أُضيفَ الروحُ للقُدُسِ ـ وهو الطهارة ـ ، وجعلَها المثبِّتَةَ بالقرآن لأقدام الذين آمنوا ، وهدىً وبشرىٰ لهم ؛ أي : بقدم الصدق ؛ بدليل تصريحِهِ به في سورة (يونس) كما قدمناه[1] .

تنبيه

[على اختصاص سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ببرد النار ، وأُنْس سيدنا موسىٰ عليه الصلاة والسلام بالنار]

بهٰذا القدمِ الصدْقِ الذي تستغيثُ النارُ من نوره . . تفهمُ السرَّ في تخصيص إبراهيم عليه السلام ببرد النار وسلامِها ؛ لإيمانِهِ في قوله تعالىٰ : ﴿ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ . . . ﴾ الآيةَ [الأنعام : ٨١ـ٨٢][2] .

وكذلك تفهمُ السرَّ في أُنْسِ موسىٰ صلى الله عليه وسلم بالنار ، وقولِهِ تعالىٰ له : ﴿ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ [طه : ١٢] لأنه كان له قدمُ الصدقِ الإيماني بمقتضىٰ قوله : ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣][3] .

---

(١) انظر (ص ٢٣٥) ، وهو قوله تعالىٰ : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس : ٢] .

(٢) يعني : لحديثه عن إيمان نفسه وإظهاره له ، لا لانفراده فيه كما لا يخفىٰ ؛ إذ العلة يجب اطرادها وانعكاسها ، والأنبياء يشاركونه في هٰذا الإيمان ، وعلى أي حال فلا يُعرف نبيٌّ آذته النار ، وما ذكره الإمام المصنف هنا هو ما رمزَ له عصريُّهُ مولانا جلال الدين الرومي بقوله في « المثنوي » : (فلتجعلْ من نور إبراهيم أستاذاً لك) .

(٣) والخلاصة من هٰذا التنبيه : أن أهل الإيمان الراسخ تستغيث منهم النار وتقول : جُزْ يا مؤمن ؛ فقد أطفأ نورُكَ لهبي ، ولا يكون بينهم وبين النار وحشة ؛ لانتفاء أذاها عنهم .

إشارة

[إلىٰ بيان معنى النعلين اللذينِ أُمرَ سيدنا موسىٰ عليه الصلاة والسلام بخلعهما]

قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ ﴾ [طه : ١٢] له ظاهرٌ وباطنٌ :

فأما الظاهرُ : فالحكمةُ في الأمر بخلع النعلين الظاهرينِ : أن سيرَ الأنبياء عليهم الصلاةُ والسلام في الأرض كان سيرَ اعتبار وادِّكارٍ ونظر إلىٰ ما أُودعَ فيها من سرِّ البدْءِ والإعادة ؛ بمقتضىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ﴾ [العنكبوت : ٢٠] ، **وكان المرادُ التعرُّفَ لموسىٰ بسرِّ الإعادة وقيامِ الساعة**[١] ؛ ولهـٰذا كانت مناجاتُهُ في الجانب الغربي ؛ لأن من أكبر آياتِ الساعة طلوعَ الشمسِ من مغربها[٢] ، وقيل له في أوّلِ المناجاة[٣] : ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ * إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾ [طه : ١٤ـ١٥] .

ومن المعلوم : أن بعْثَ الخلائق وحشرَهم يكون من الأرض المقدسة ، وقد فُسِّرَ قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴾ [ق : ٤١] أي : من صخرةِ بيت المقدس[٤] ، فمِنْ ها هنا قيلَ لموسىٰ عندما سارَ بأهله ، وبلغَ بيت

---

(١) **يعني** : التعرُّف في هـٰذه الصورة ؛ من الوادي المقدس والجانب الغربي والنار النورانية .

(٢) روى البخاري (٤٦٣٥) ، ومسلم (١٥٧) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه : « لا تقومُ الساعةُ حتىٰ تطلعَ الشمس من مغربها ، فإذا رآها الناسُ آمنَ من عليها ، فذاك حين ﴿ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ ﴾ [الأنعام : ١٥٨] » .

(٣) هـٰذا بيان وتأكيد لحصول التعرُّف في الصور المذكورة .

(٤) رُوي ذلك عن كعب وبريدة ويزيد بن جابر ، وانظر « الدر المنثور » (٧/ ٦١١) ، وقوله : (**ينادي المنادي**) هو بإثبات الياء فيهما ، وهي قراءة ابن كثير ، وانظر « الدر المصون » (١٠/ ٣٦) .

المقدس ، وكشفَ له عن سرِّ ما أُودعَ فيه من قيامِ الساعة : ﴿ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ [طه : ١٢] تنبيهاً على أنه انتهى سفرُكَ ، وبلغَ ما كان المرادُ بك من التعرُّف[١] .

ولهـٰذا قيلَ له : ﴿ إِنَّكَ بِٱلْوَادِى ٱلْمُقَدَّسِ ﴾ [طه : ١٢] أي : هـٰذا هو الوادي المقدَّس الذي أُودعَ فيه سرُّ قيامِ الساعة[٢] ، ورجوعِ الخلائق إلى الله تعالى ، فاخلعْ نعليك وألقِ عصاك ؛ فإن لُبْسَ النعل وأخْذَ العصا . . من توابعِ السفر ، وخلْعَ النعل وإلقاءَ العصا . . من أعلام الإقامة ؛ قال الشاعر[٣] : [من الطويل]

فألقَتْ عصاها واطمأنَّ بها النوىٰ ... كما قرَّ عيناً بالإيابِ المسافرُ

وأما الباطنُ : فإن حقيقةَ النعلِ ما يكون وقايةً لقَدَم الصدقِ من عوائقِ طريق القلب إلى الله تعالى ، وما فيه من وَعرٍ وشوك[٤] ، كما نبَّهَ عليه قوله صلى الله عليه وسلم : « تعسَ عبدُ الدينارِ ، تعسَ عبدُ الدرهمِ ، تعسَ وانتكسَ ، وإذا شِيكَ فلا انتقشَ »[٥] ، فنبَّهَ بهـٰذا على أن افتتانَ القلب بزينة الدنيا يَعوقُ قَدَمَ صدقِهِ عن السيرِ إلى الله تعالى ، فإن عظُمَ في عينِهِ منها شيءٌ . . تعسَ به ، وإن احتقرَهُ واستهان به . . كان بمثابة الشوكِ يدخل في قدمِ السائر[٦] ، فإن انتقشَ - أي : أخرجَهُ بمنقاش الاستغفار ، وألقاه بالزهد فيه - سَلِمَ ، وسارعَ بقدَمِ

---

(١) وهـٰذا صار كالعرف في استقبال الكريم للضيف .

(٢) قوله : (بالوادي) هو بإثبات الياء في النسخ ، وهي قراءة يعقوب في الوقف ، انظر « البدور الزاهرة » (ص ٢٠٢) .

(٣) البيت لمعقر البارقي كما في « مجمع الأمثال » (١/ ٣٦٤) .

(٤) الوَعر بسكون العين وفتحها : المكان الحزن ذو الوعورة ، ضد السهل .

(٥) رواه البخاري (٢٨٨٧) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٦) في سياقه تنبيهٌ على أن عدم استعظام الأغيار لا يقضي باستحقارها ؛ إذ ما أخرجها الله تعالى إلى دائرة الوجود إلا لحكمة ؛ ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

صدقه إلى الله سبحانه وتعالىٰ ، وإن أهملهُ كان بمثابة الشوكة التي يهملُها صاحبُها حتىٰ تتمكَّن ويفسُد بها الدمُ ، ويحصل المرضُ والوقوفُ عن السير[1] ، وربما تمكَّنَتْ فكانت سبباً للموت ، أو لزمانة القدم ، **والنعلانِ يقيانِ من ذلك ؛ وهما الرجاءُ للهِ ، والخوفُ منه** .

فموسىٰ عليه السلام لمَّا خرجَ خائفاً يترقَّبُ ، وقال عند التوجُّهِ : ﴿ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [القصص : ٢٢] .. علم أنه انتعلَ الخوف والرجاء وركبَهما في سيره ؛ لأن من انتعلَ فقد ركب ؛ لحديث جابرِ بن عبد الله رضي الله عنهما في « صحيح مسلم » قال : كنَّا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفرٍ ، فقال : « أكثروا مِنَ النعالِ ؛ فإنَّ الرجلَ لا يزالُ راكباً ما انتعلَ »[2] .

فلمَّا بلغ حضرةَ المناجاة والتأنيس ، وحلَّ في وادي التقديس .. قيلَ له : ﴿ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ لأن الرجاء والخوف لأرباب السلوك ، لا لمَنْ وصل وخُصَّ بمجالسة الملوك .

ومما يُحقِّق لك أن الرجاء والخوفَ هما نعلا قَدَمِ الصدق .. حديثانِ :

أحدُهما : [ما] رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه : أنه صلى الله عليه وسلم قال لبلال رضي الله عنه : « أخبرْني بأرجىٰ عملٍ عملتَهُ في الإسلام ؛ فإنِّي سمعتُ دَفَّ نعليكَ بينَ يديَّ في الجنَّةِ ... » ، وذكر الحديثَ[3] .

---

(1) في (ب) : (الضرر) بدل (المرض) .
(2) صحيح مسلم (٢٠٩٦) .
(3) صحيح البخاري (١١٤٩) ، **والدَّفُّ** : التحريك ، **وتمام الحديث** : قال : ما عملتُ عملاً أرجىٰ عندي أنِّي لم أتطهَّرْ طُهوراً في ساعةِ ليل أو نهار .. إلا صلَّيتُ بذلك الطُّهورِ ما كُتِبَ لي أن أصلي .

فأفهَم بقوله : « أخبرني بأرجىٰ عملٍ » أن الرجاء هو نعلُ قَدم الصدق ؛ ولهـٰذا قال : « فإنِّي سمعتُ دفَّ نعليك » فأتىٰ بـ (إنّ) والفاء ، وهما يفيدان سببيَّةَ الوصفِ للحكم ؛ أي : أن سبب سماعه دفَّ نعليه هو رجاؤهُ لله بعمله .

الحديثُ الثاني : ما رواه مسلم عن العباسِ رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « أهونُ أهلِ النارِ عذاباً أبو طالبٍ ، وإنَّ في قدميهِ لنعلينِ يغلي منهما دماغُهُ »[1] .

وإنما خُصَّ بالنعلين ؛ لأنه كان له قَدَمٌ في تصديق محمد صلى الله عليه وسلم ومحبَّتِهِ ونصرته والذبِّ عنه ، ولـٰكنَّهُ كان لا يدينُ بدينِهِ خوفاً من سُبَّةِ العرب .

ولهـٰذا قال لقريشٍ عند الموت في وصيتِهِ : (أوصيكم بمحمد خيراً ؛ فإنه الأمين في قريش ، والصِّدِّيق في العرب ، وقد جاء بأمرٍ قَبِلَهُ الجَنانُ ، وأنكرَهُ اللسان ؛ مخافةَ الشنآن) ، ثم قال في آخرِ كلامه : (واللهِ ؛ إن مَنْ سلك سبيلَهُ رشِدَ ، ومَنْ أخذَ بهديه سعِدَ)[2] .

فانظرْ كيف كانَ له قَدَمُ صدق في محبَّتِهِ وقبول أمره ، ولـٰكنَّهُ انتعلَ الخوفَ

---

(١) صحيح مسلم (٢١٢) ، ورواه البخاري (٣٨٨٥) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بلفظ مقارب .

(٢) أورد هـٰذه الوصية بطولها العلامة السهيلي في « الروض الأنف » (٤/ ٢١) حكاية عن هشام بن السائب أو ابنه ، وقوله : (وأنكره اللسان) يدلُّ أنه كان آبياً ، وحكم الآبي عند المحقِّقين : أنه مؤمنٌ عاصٍ ، وإنما النطق لإجراء أحكام الدنيا ، وهو ناجٍ عند الله تعالىٰ في الآخرة ، وهو ما استظهره إمامنا الغزالي في « إحياء علوم الدين » (١/ ٤٣٣) ، وقرَّره العلامة الرملي الكبير في « فتاويه » (٤/ ٣٩١) ، وعلىٰ فرض عدم صحة هـٰذا الخبر فإنَّ القرائن تدلُّ علىٰ أنه كان آبياً ، وحُسنُ الظنِّ في مثل هـٰذه المسائل أقربُ للتقوىٰ ، وأصونُ للدين واللسان ، والمسألة فقهية ، والخلاف فيها شهير .

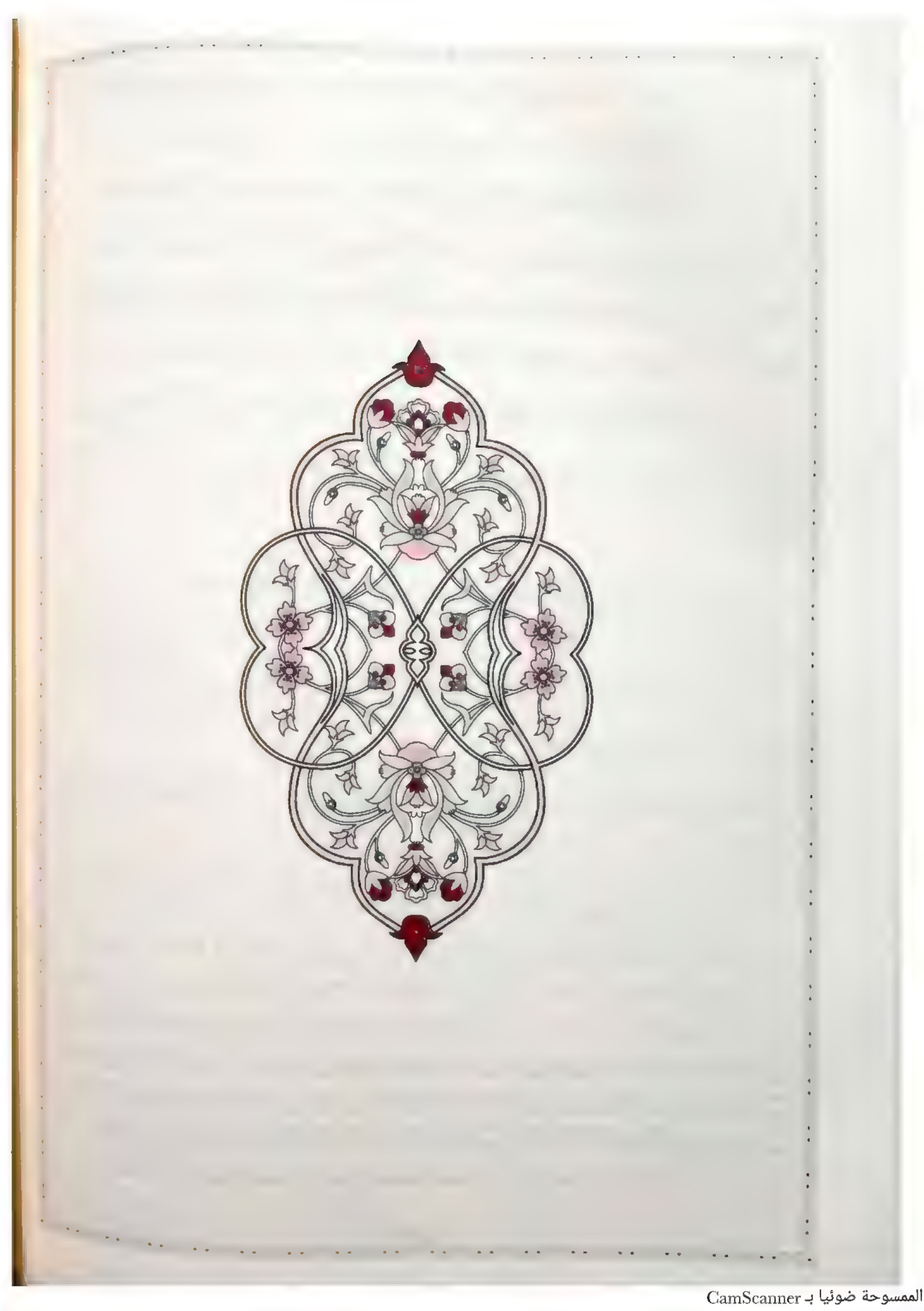
من الخلق والرجاءَ لهم ، فظهرَتْ حقيقتُهُ له بعد الموت بنعلين من نار .

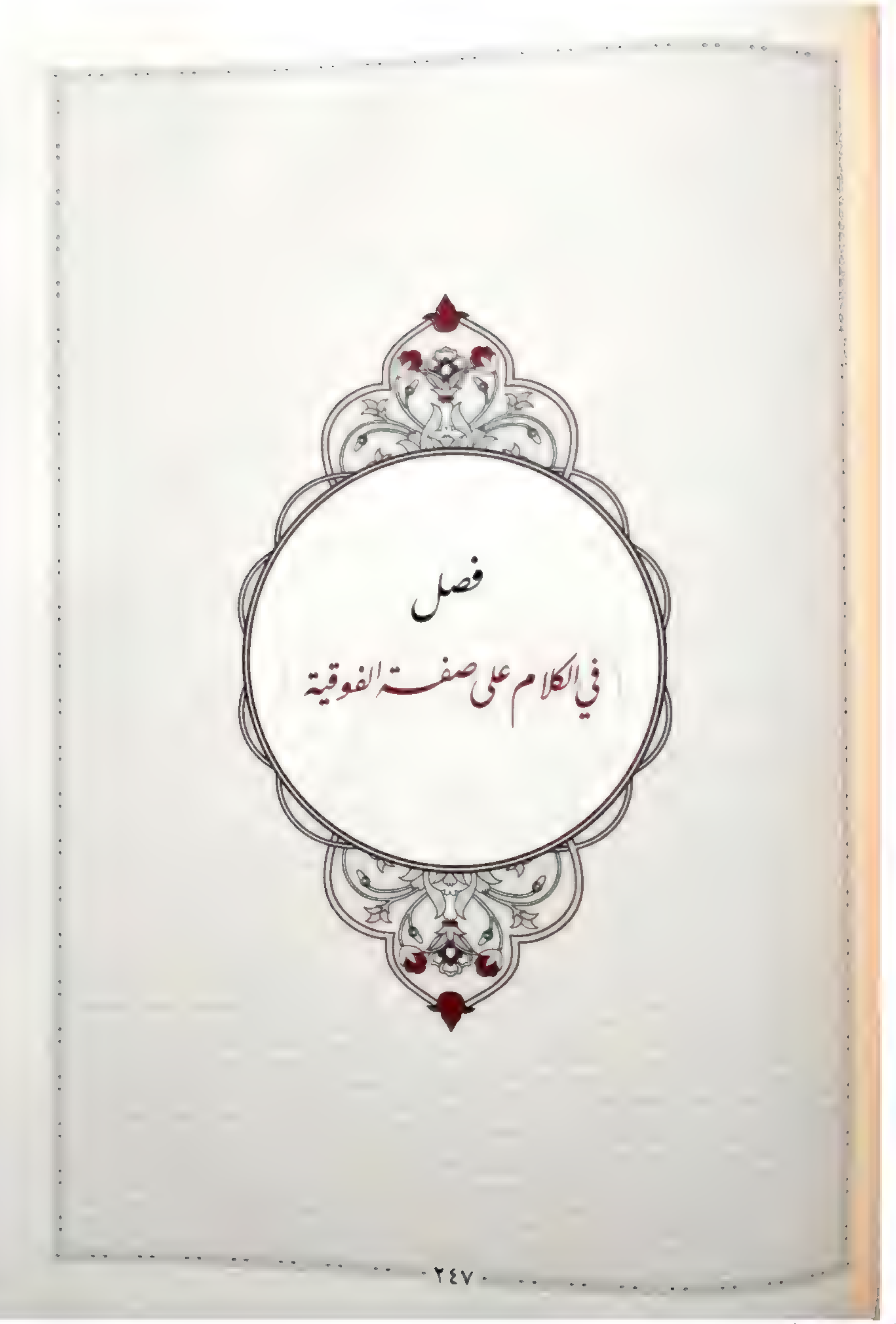
وأما الحكمةُ في كونِهما يغلي منهما دماغه : فلأن في الصحيح : « ألا أخبرُكم برأسِ الأمرِ ، وعمودِهِ ، وذروةِ سَنامِهِ ؟ الجهادُ في سبيل الله »[1] .

ومن المعلومِ : أن أبا طالبٍ كان أشدَّ الناس جهاداً عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، ولـٰكنَّهُ لم يتديَّنْ بدينه خشيةً من السُّبَّةِ ، فكان خوفُهُ لغير اللهِ سبباً لإحباطِ جهاده وإفسادِهِ ، وهـٰكذا تكونُ حقيقةُ خوفه لغير الله ـ وهي نعلُهُ في النار ـ سبباً لإذابة دماغِهِ ؛ وهو لبُّ رأسه ، وإحباطِهِ بالإذابة والإفسادِ .

* * *

(١) رواه ابن ماجه (٣٩٧٣) من حديث سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه ، ورواه الترمذي (٢٦١٦) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (١١٣٣٠) ولفظه : « ألا أخبرُكَ برأس الأمر كلِّهِ ، وعموده ، وذروة سنامه ؟ » ، قلت : بلىٰ يا رسول الله ، قال : « رأسُ الأمر الإسلام ، وعمودُهُ الصلاة ، وذروةُ سنامه الجهاد » .





فصل

في الكلام على صفة الفوقية



فصل
في الكلام على صفة الفوقية

وأما صفةُ الفوقيّة :

فقد جاءَ بها الكتابُ والسنة ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل : ٥٠] ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام : ١٨] ، وآياتٌ كثيرة وأحاديثُ ، وهو معدودٌ من المتشابهِ ؛ وذلك أن (فوق) كلمة موضوعةٌ لإفادة جهة العلو ، والله تعالىٰ منزَّهٌ عن الجهات[1] ، وإنما المرادُ منها حيث أُطلقَتْ في حقِّ ربِّنا سبحانه إفادةُ العلو الحقيقيِّ[2] .

وممَّا يدلُّ علىٰ عدم اختصاصه بجهة فوق : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ﴾ [الأنعام : ٣] .

وقولُهُ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ [الزخرف : ٨٤] .

وقولُهُ : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ١١٥] .

وقولُهُ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ [ق : ١٦] .

---

(١) ولذلك نصَّ الإمام الغزالي في « إلجام العوام » (ص ٨٢) أنه متعيِّن المعنىٰ ، ولا شبهة فيه ؛ لأن الفوقية إما أن تكون حسيةً : وهي منفية بالدليل العقلي والمحكم النقلي ، أو معنويةً : وهي متعيِّنة هنا ؛ ولا ثالث لها .

(٢) والحقيقي : قسيم الإضافي ، والحسي من الإضافي ، وسيأتي بيان معنى العلو الحقيقي (ص ٢٥١) .

وقولُهُ : ﴿ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ ﴾ [المجادلة : ٧] ، وآيات كثيرةٌ يطول ذكرُها[١] .

ولو كان في جهة العلو تعارضَتْ هـٰذه الآياتُ واختلفَتْ ، وهو منافٍ لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ [النساء : ٨٢] .

وفي « مسلم » عن أبي هريرةَ رضي الله عنه : أنه عليه الصلاة والسلام قال : « أقربُ ما يكونُ العبدُ مِنْ ربِّهِ وهو ساجدٌ »[٢] ، فنفىٰ تقييدَهُ بجهة فوق ، وهو لا ينطقُ عن الهوىٰ ، إن هو إلا وحي يوحىٰ .

والذي يجمعُ بين الآيات والأحاديثِ : أن تعلمَ أن العلوَّ له اعتباران : اعتبارٌ إضافي ، واعتبارٌ حقيقي .

فعلوُّ المخلوقات بعضِها علىٰ بعض إنما هو علوٌّ إضافي ؛ لأن ما من مخلوق له جهة علو إلا وهو مستفلٌ بالنسبة إلىٰ مخلوق آخرَ هو فوقه ، إلىٰ ما يشاء الله تعالىٰ .

---

(١) فضلاً عن وجود آيات جاءت فيها كلمة (فوق) لا بمعنى الجهة ؛ فمن ذلك : قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَا ﴾ [البقرة : ٢٦] ، وقوله : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ [البقرة : ٢١٢] ، وقوله : ﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ [آل عمران : ٥٥] ، وقوله : ﴿ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ ﴾ [النساء : ١١] ، وقوله : ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ ﴾ [المائدة : ٦٦] ، وقوله تعالىٰ حكاية عن فرعون : ﴿ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٧] ، وقوله سبحانه : ﴿ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ ﴾ [الأنفال : ١٢] ، وقوله : ﴿ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴾ [يوسف : ٧٦] ، وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ ﴾ [النحل : ٨٨] ، وقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ [الحجرات : ٢] ، وما ضيَّقَ اللغةَ ولا حجَّرَ الفهمَ إلا من هو ضيِّقُ العطن قليلُ العلم .

(٢) صحيح مسلم (٤٨٢) .

وهٰذا العلوُّ الإضافيُّ قسمانِ :

قسمٌ حسيٌّ : وهو المفهومُ بالنسبة إلى الجهات المكانية ، المخصوص بالجواهر المفتقرة إلى الحيز .

وقسمٌ معنويٌّ : وهو المفهومُ بالنسبة إلىٰ درجاتِ الكمال العرفانيِّ لأرباب القلوب ، أو الكمال الوهميِّ لأرباب النفوس ؛ قال تعالىٰ : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ [الزخرف : ٣٢] ، وقال : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٢١] ، هٰذا كلُّهُ في العلوِّ الإضافي .

وأما العلوُّ الحقيقي : فإنما هو لله سبحانَهُ وتعالىٰ ؛ ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وعلوُّهُ هٰذا :

- محقَّقٌ قبل الجهاتِ والأماكن .
- مفهومٌ بدون اعتبار النِّسَبِ والإضافات .
- عامٌّ في جميع تجلِّياتِهِ علىٰ مخلوقاته بأسمائِهِ وصفاته .

وإنما يعرفُهُ ويشهدُهُ أربابُ البصائر والقلوب[١] ، ويتجلَّىٰ نورُ توحيده بعلوِّ فوقيَّة سُبُحاته[٢] ، وله حجابٌ ؛ فسبحتُهُ : صفةُ القهر ، وحجابُهُ : خلوصُ العبوديَّة ؛ قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام : ١٨] .

تنبيه

[علىٰ تحقيق تنزيه فوقيَّته سبحانه عن الجهة والمكان]

إذا أردت أن تحقِّقَ أن فوقيتَهُ ليست فوقيةً مكانية ، وإنما هي الفوقيَّةُ

---

(١) العبارة في (ب) : (وإنما يعرفه مَنْ أُشهده ؛ يشهدُهُ أرباب البصائر والقلوب) .

(٢) انظر الحديث عن السبحات (ص ١٧٧) .

الحقيقية بقهر الربوبية للعبودية ، والمقرر هو أنه تعالىٰ كان ولا شيء معه[1] ، ولم يتجدَّدْ له بخلقه السماوات علوٌّ ، ولا بخلقه الأرض نزولٌ ، ولا بخلقِهِ العرشَ استواءٌ وجلوس[2] ، وإنما عن تجلِّي أسمائه وصفاتِهِ[3] .. نشأَتْ أعدادُ مخلوقاته غيرَ مماسَّةٍ له ، ولا منتسبةٍ إليه بفوق ولا تحت ولا شيءٍ من الجهات ؛ قال تعالىٰ : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ [الأعلىٰ : ١-٢] .

فوصْفُهُ بالأعلىٰ حالَ اتصافه بالخَلْقِ يدلُّ علىٰ أن علوَّه محقَّقٌ قبل الخلق ؛ ولذا قال : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ . . . ﴾ الآيةَ [الزمر : ٦٧] ، ووصفَ نفسَهُ آخرَ الآية بالعلوِّ والتنزيه في قولِهِ تعالىٰ بعد ذكرِهِ قبضَةُ للأرض وطيَّهُ للسماء[4] ، فدلَّ علىٰ أن علوَّهُ علوٌّ حقيقي ، لا مكانيٌّ .

وتأمَّلْ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام : ٦١] مع قولِ فرعونَ عن بني إسرائيلَ : ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٧] ، فهل يفهمُ أحدٌ أن فرعون ادَّعىٰ أنه فوق بني إسرائيل بالمكانِ أو الجهة ؟!

---

(١) روى البخاري (٣١٩١) من حديث سيدنا عمران بن الحصين رضي الله عنهما مرفوعاً : « كانَ اللهُ ولم يكنْ شيءٌ غيرُهُ » ، ومن جملة ما لم يكن معه : العماء المذكور في حديث الترمذي (٣١٠٩) : « كان في عماءٍ ، ما تحتَهُ هواء ، وما فوقَهُ هواء ، وخلق عرشَهُ على الماء » ، ونقل عن يزيد بن هارون : العماء ؛ أي : ليس معه شيء .

(٢) قوله : (وجلوس) ليس في (ب) ، وتقدم الحديث عن المجالسة (ص ٢٣١) ، وانظر « شرح العقيدة الطحاوية » للعلامة الغنيمي (ص ٥٦) ؛ حيث قال : (« ما زال » سبحانه وتعالىٰ « بصفاته » أي : معها « قديماً » من « قبل خلقه » الخلْقَ « لم يزدد بكونهم » أي : بسبب وجودهم « شيئاً لم يكن قبلهم » أي : قبل وجودهم « من صفاته ») .

(٣) في (ب) : (وإنما هو تجلي . . .) ، وحرف الجر متعلق بقوله بعدُ : (نشأت) .

(٤) والآية بتمامها هي : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر : ٦٧] ، فقوله : (سبحانه) للتنزيه ، وقوله : (وتعالىٰ) للعلو ، فهو سبحانه عليٌّ قبل الخلق ، ولم يزده خلقُهُ الخلقَ صفة لم تكن له قبلُ .

وإنما لمَّا ادَّعى الربوبية بقوله : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات : ٢٤] . . كان من لازم دعواه ادعاءُ الفوقيَّةِ اللائقة بالربوبيَّة وهي الفوقية الحقيقيَّةُ بالقهر ؛ فلذلك قال : ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ ، لا جرمَ كذَّبَهُ الله سبحانه وتعالىٰ في الأمرين :

فكذَّبَهُ في قوله : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ بقوله سبحانه لموسىٰ : ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [طه : ٦٨][1] .

وكذَّبَهُ في قهرِهِ بقوله : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۞ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ [طه : ٧٨ـ٧٩] .

تنبيه
[علىٰ معنىٰ رفيع الدرجات]

قولُهُ تعالىٰ : ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ﴾ [غافر : ١٥] يرجعُ إلى العلوِّ والفوقية الحقيقيَّةِ ، وليس المراد أن العلوَّ الحقيقي له درجاتٌ وتفاوت ، وإنما المرادُ : أن للعباد في ترقِّيهم إلىٰ معرفتِهِ وخُلوص التحقُّق به . . درجاتٍ :

الأولىٰ : درجةُ الإيمان .

الثانيةُ : درجةُ التقوىٰ .

الثالثةُ : درجةُ الاتِّباع .

الرابعةُ : درجةُ العلم[2] .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] .

---

(١) وإنما كان علوُّ سيدنا موسىٰ علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام . . بالمعجزة المشتملة على الحُجَّة والبرهان .

(٢) والآياتُ الآتيات أدلَّةُ هـٰذه الدرجات علىٰ حسَبِ ترتيبها .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [البقرة : ٢١٢] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ [آل عمران : ٥٥] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٧٦] .

تنبيه

[علىٰ معنى البيوت في قوله تعالىٰ : ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾]

قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ . . . ﴾ الآيةَ [النور : ٣٦] ، قد فُسِّرَتْ بالمساجد[١] ، وفُسِّرَتْ بالقلوب[٢] ، وكيفما كان فرفعُها تحقُّقُها[٣] ، واشتمالُها علىٰ ما ذكرناهُ من الدرجات المذكورة ، وتمامُ الآية يحقِّق ذلك[٤] .

فائدة[٥]

[في الردِّ علىٰ فرعون حين ادَّعى الألوهية واعتقد الجهة]

لمَّا ادَّعىٰ فرعونُ الربوبيةَ ، واعتقد الجهةَ لله سبحانه وتعالىٰ . . قال : ﴿ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۞ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ [غافر : ٣٦ ـ ٣٧][٦] ، فردَّ الله تعالىٰ عليه ،

---

(١) هو قول ابن عباس والحسن ومجاهد ، وانظر « المحرر الوجيز » (٤/ ١٨٥) .

(٢) قال الإمام القشيري في « لطائف الإشارات » (٢/ ٦١٤) : (المساجدُ بيوت العبادة ، والقلوبُ بيوت الإرادة ؛ فالعابد يصل بعبادته إلىٰ ثواب الله ، والقاصد يصل بإرادته إلى الله) .

(٣) في (أ) : (تحقيقاً) ، وفي (ج) : (تحقيقها) بدل (تحقُّقها) .

(٤) والآية بتمامها : ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ [النور : ٣٦] .

(٥) في (أ ، ج) : (تنبيه) بدل (فائدة) .

(٦) في (أ ، ج) : ﴿ لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ [القصص : ٣٨] .

وسخَّفَ سوءَ رأيِهِ . . بقوله جل جلاله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [غافر : ٣٧] أي : عدلَ عن سبيل القرب والدنو من إلـٰه موسىٰ ؛ فإنه تعالىٰ يتنزَّهُ عن علوِّ المكان ، وإنما يصعدُ إليه الكلمُ الطيب ، والعملُ الصالح يرفعُهُ .

أين هو من قولِ موسىٰ عليه السلام : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ [طه : ٨٤]؟! مع أنه لم يُبْنَ له صرحٌ ، ولا احتاجَ في الدنوِّ والقربِ إلىٰ صعود السماء .

وكذلك إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام حيث جاءَ ربَّهُ بقلبٍ سليم ، ووَهِبَ له لسانُ صدق عليٍّ ، فكان مجيئُهُ إليه ووصوله وعلوُّهُ . . بسلامةِ القلب وصدْقِ اللسان ، لا بالتسوُّرِ والصعود للمكان .

وقد ثبتَ إيواءُ الله تعالىٰ للمؤمنين في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ ﴾ [الأنفال : ٢٦] .

وفي « صحيح البخاري » عن أبي واقدٍ الليثي : أن ثلاثةً حضروا لحَلْقةِ ذكر ، فدخلَ أحدُهم الحلقةَ ، والثاني جلسَ خلفَهم ، والثالثُ أدبرَ ذاهباً ، فقالَ عليه الصلاةُ والسلام : « أمَّا أحدُهم فأوىٰ إلى اللهِ فآواهُ اللهُ ، والآخرُ استحيا فاستحيا اللهُ منهُ ، والآخرُ أعرضَ فأعرضَ اللهُ عنهُ »[1] .

فنبَّهَ صلى الله عليه وسلم علىٰ أن الداخلَ أوىٰ إلى الله فآواهُ الله ، مع العلمِ بأنه ليس الإيواءُ في الآية والحديثِ باعتبارِ مكانٍ .

وفي « صحيح مسلم » وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم رأىٰ نخامةً في القبلة ، فقال : « ما بالُ أحدِكم يقومُ

---

(١) صحيح البخاري (٦٦) ، ورواه مسلم (٢١٧٦) أيضاً .

مستقبلَ ربِّهِ فيتنخَّعُ أمامَهُ ؟! أيحبُّ أحدُكم أنْ يُستقبلَ فيُتنخَّعَ في وجهِهِ ؟! »[1] .

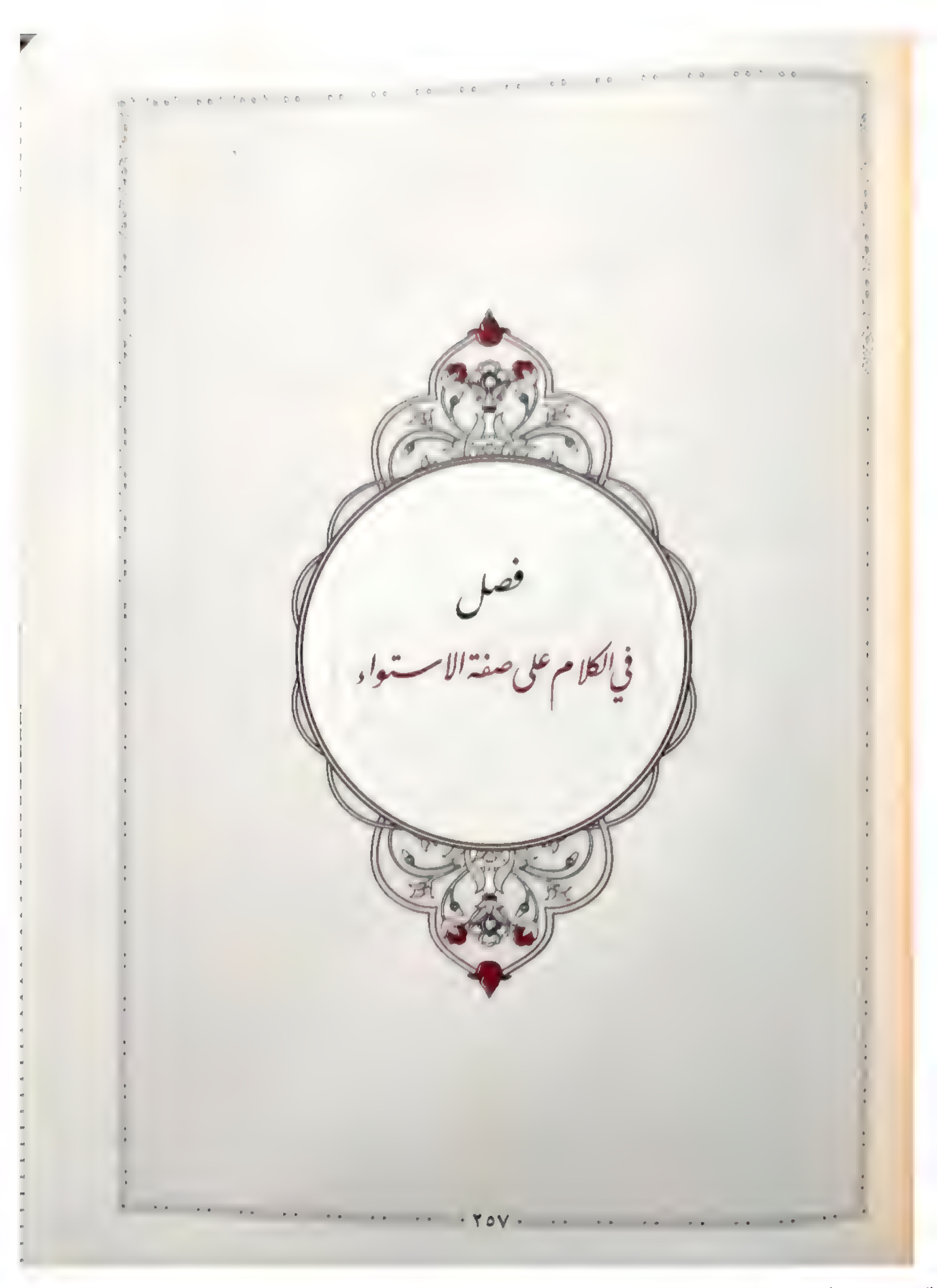
فدلَّ علىٰ أنه ليسَ مخصوصاً بجهةِ فوق ، وإلا لما كانَ قبلةَ المصلِّي وأمامَهُ .

وبالجملةِ : فالأحاديثُ الدالَّةُ علىٰ عموم إحاطةِ ربِّنا بجميع الجهاتِ ، وعدمِ اختصاصه . . كثيرةٌ ، والقصدُ قد حصلَ بما ذكرناهُ[2] .

* * *

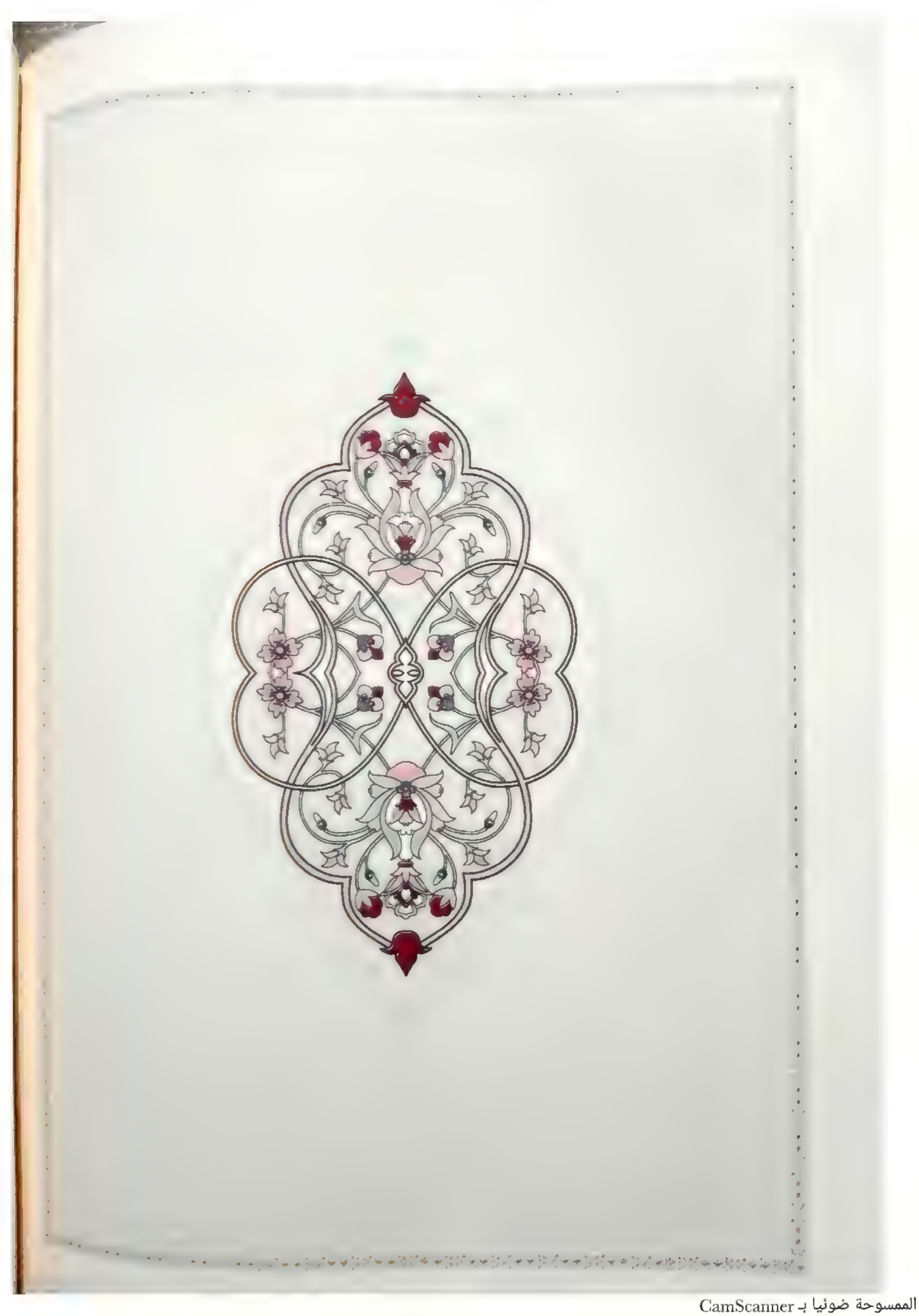
(١) صحيح مسلم (٥٥٠) ، وفي هامش (ج) : (بلغ مقابلة) .

(٢) قال العارف الحاتمي في « الفتوحات المكية » (١/ ٢٦٤) : (إنما أُمرتِ الملائكةُ والخلقُ أجمعون بالسجود ، وجعل معه القربة ؛ فقال : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أقرب ما يكون العبد من الله في سجوده » . . ليعلموا أن الحقَّ في نسبة الفوق إليه من قوله : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ ، و﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ كنسبة التحت إليه ؛ فإن السجود طلب السفل بوجهه ، كما أن القيام يطلب الفوق إذا رفع وجهه بالدعاء ويديه ، وقد جعل الله السجود حالة القرب من الله ، فلم يقيِّده سبحانه الفوقُ عن التحت ، ولا التحتُ عن الفوق ؛ فإنه خالق الفوق والتحت ، كما لم يقيده الاستواء على العرش عن النزول إلى السماء الدنيا ، ولم يقيده النزول إلى السماء الدنيا عن الاستواء على العرش ، كما لم يقيده سبحانه الاستواء والنزول عن أن يكون معنا أينما كنا ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ بالمعنى الذي يليق به ، وعلى الوجه الذي أراده ، كما قال أيضاً : « ما وسعني أرضي ولا سمائي ، ووسعني قلب عبدي » ، كما قال عنه هود عليه السلام : ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ ، وقال تعالىٰ أيضاً في حق الميت : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ ، فنسب القرب إليه من الميت ، وقال أيضا عز وجل : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ يعني : الإنسان ، مع قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾) ، وهو كلام في غاية التحقيق .



فصل

في الكلام على صفة الاستواء



فصل (1)

في الكلام على صفة الاستواء

ومن الآياتِ المتشابهة : آياتُ الاستواء والأحاديثُ الواردة فيه :

ومرجعُها عند المحقِّقينَ إلى الآياتِ المحكمات .

وأوَّلُ ما ينبغي تقديمُهُ : معنى الاستواء لغةً : وأصلُهُ افتعال من السواء ، والسواءُ في اللغة : العدلُ والوسط ، وله وجوهٌ في الاستعمال ترجعُ إلىٰ ذلك :

منها : استوىٰ بمعنىٰ أقبلَ ، نقلَهُ الهرويُّ عن الفراء ، قال : (العربُ تقول : استوىٰ إليَّ يخاصمُني ؛ أي : أقبل عليَّ)(2) .

الثاني : بمعنىٰ قصدَ ، قاله الهرويُّ(3) .

الثالثُ : بمعنى استولىٰ(4) .

الرابعُ : بمعنى اعتدلَ(5) .

---

(1) في (ب) زيادة : (ذكر الاستواء) ، وفي هامش (ج) : (بلغ مقابلة) .

(2) انظر « الغريبين » (٣/ ٩٥٧) ، و« معاني القرآن » للفراء (١/ ٢٥) .

(3) نقله في « الغريبين » (٣/ ٩٥٧) .

(4) قاله الإمام الزجاج في « معاني القرآن » (٣/ ٣٥٠) .

(5) حكاه الجوهري في « الصحاح » (س وا) ، وهو من خصائص الجسماني ؛ إذ هو قريب من معنى استقام ، وقد جمع بينهما العلامة الكفوي في « الكليات » (ص ١٠٩) إذ قال : (الاستواء : هو إذا لم يتعدَّ بـ « إلىٰ » يكون بمعنى الاعتدال والاستقامة ؛ وإذا عدي بها صار بمعنىٰ قصد الاستواء فيه ، وهو مختص بالأجسام) ، ولكن سيأتي (ص ٢٦٣) أن الإمام المصنف سيختار أن (اعتدل) بمعنى العدل ، وهو صفة معنىً لا ضيرَ من وصفه تعالىٰ بها .

الخامسُ : بمعنى استقام[1] .

السادسُ : بمعنىٰ علا[2] ، قال الشاعر[3] : [من الطويل]

ولمَّا علونا واستوينا عليهمُ ... تركناهمُ صرعىٰ لنَسْرٍ وكاسرِ

قاله الحسنُ ابن سهل[4] .

وإذا عُلِمَ أصلُ الوضع وتصاريفُ الاستعمال. . فنزِّلْ علىٰ ذلك الاستواءَ المنسوب إلىٰ ربِّنا سبحانه وتعالىٰ .

وقد فسَّرَهُ الهروي بالقصد[5] ، وفسَّرَهُ ابن عرفة بالإقبال كما نقل عن الفراء[6] ، وفسَّرَهُ بعضُهم بالاستيلاء[7] ، وأنكرَهُ ابنُ الأعرابي وقال :

---

(١) قاله العسكري في « الوجوه والنظائر » (ص ١١٦) ، وذكر أن الاستواء أكثر ما يستعمل في الاستقامة .

(٢) حكاه الجوهري في « الصحاح » (س و ا) ، وحكاه العسكري في « الوجوه والنظائر » (ص ١١٦) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما كما سيأتي قريباً .

(٣) أورد هـٰذا البيت إمامُ الحرمين الجويني في « الشامل » (ص ٥٥٣) ، إلا أنه ساقه على أن معنى (استوى) : الاقتدارُ والقهر والغلبة ، فيحمل كلام الإمام المصنف على العلو بهـٰذا المعنىٰ ، ولا سيما مع وجود كلمة (علونا) ، والأصل في العطف أن يكون للمغايرة ، والله أعلم .

(٤) يعني : الإمام أبا هلال العسكري في « الوجوه والنظائر في القرآن الكريم » (ص ١١٧) ، وحمله علىٰ معنى الاستيلاء .

ويستعمل الاستواء أيضاً بمعنىٰ : التساوي ، والتوسط ، والتسطُّح ، والغلبة والقهر ، وبلوغ الأمر نهايته ، والاستقرار ، والتماثل ، وكمال الصورة ، ولا تعسر شواهدها .

(٥) كما تقدم قريباً .

(٦) انظر « الغريبين » (٣/ ٩٥٧) ، وقال : (قال ابن عرفة : الاستواءُ من الله : الإقبال على الشيء ، والقصد له) ، ومن ذلك قولك : (إذا صليتُ الفجر استويتُ إليك) ، وانظر « مشارق الأنوار » (٢/ ٢٣١) للقاضي عياض .

(٧) كما تقدم عن أبي هلال العسكري قريباً تعليقاً .

(العربُ لا تقولُ : « استولى » إلا لمن له مضاددٌ)[1] ، وفيما قاله نظرٌ ؛ لأن الاستيلاءَ من الولْيِ ؛ وهو القُرْبُ ، أو من الولايةِ[2] ، وكلاهما لا يفتقرُ إطلاقُهُ لمضاددٍ .

ونقل الحسنُ ابن سهلٍ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما : أنه فسَّر قوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [فصلت : ١١] قال : (علا أمرُهُ)[3] .

وهـٰذه التفاسيرُ كلها محتملة ، وهي علىٰ وَفْقِ اللغة والمعاني اللائقة بربِّنا سبحانه[4] .

وأما (استوىٰ) بمعنى (استقرَّ) ؛ ومنه قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ ﴾ [هود : ٤٤]، وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ . . . ﴾ الآيةَ [الزخرف : ١٣] : فلا يليقُ نسبةُ مثلِهِ إلى استواء ربِّنا سبحانه على العرش ، مع أنَّا نقولُ : قد علمتَ أصلَ اشتقاق الاستواء ، ولا مدخلَ فيه لمعنى الاستقرار ، وإنما الحقُّ أن معنى (استوىٰ على الدابة) جاءَ على الأصل ، ويكون معناهُ (اعتدلَ) ، أو (علا عليها) ، والاستقرارُ من لازم ذلك بحسب خصوصيَّة المحلِّ ؛ لا أنَّ للاستقرار مدخلاً في معنى اللفظ مطلقاً ، وحينئذٍ فلا يصحُّ نسبةُ مثلِهِ إليه تعالىٰ ؛ لاستحالتِهِ في حقِّهِ ، وعدم وضْعِ اللفظ له[5] .

---

(١) انظر « الغريبين » (٣/٩٥٨) ، وقوله : (مضادد) كذا بالفكِّ هنا وفيما سيأتي في جميع النسخ .

(٢) انظر « تاج العروس » (و ل ي) .

(٣) انظر « الوجوه والنظائر في القرآن الكريم » للعسكري (ص ١١٦) .

(٤) في (ب) وحدها : (العظمة) بدل (اللغة) .

(٥) وهـٰذه الفقرة من بدائع هـٰذا الكتاب ، ومن تحقيقات مصنفه رحمه الله تعالىٰ ؛ إذ بيَّن أن حمل لفظ (الاستواء) على (الاستقرار) هجرٌ للحقيقة ؛ إذ الاستقرار مجازٌ منه مستفادٌ من المحل المضاف إليه ؛ كظهر الدابة المشار إليه في الآية الكريمة ، وتعالى المولىٰ عن المكان =

وقد ثبت عن الإمام مالكٍ رحمه الله أنه سُئِلَ : كيف استوىٰ ؟ فقال : (« كيف » غيرُ معقول[1] ، والاستواءُ غيرُ مجهول ، والإيمانُ به واجبٌ ، والسؤالُ عنه بدعةٌ)[2] .

فقولُهُ : (« كيف » غيرُ معقول) أي : (كيف) من صفاتِ الحوادث[3] ، وكلُّ ما كان من صفاتِ الحوادث فإثباتُهُ في صفات الله تعالىٰ ينافي ما يقتضيهِ العقل ؛ للجزمِ بنفيهِ عن الله تعالىٰ[4] .

وقولُهُ : (والاستواءُ غير مجهول) أي : أنه معلومُ المعنىٰ عند أهل اللغة، والإيمانُ به على الوجه اللائقِ به تعالىٰ واجبٌ ؛ لأنه من الإيمان باللهِ وبكتبِهِ[5] .

= يُبقي اللفظ على أصل معناه الاشتقاقي .

وقد قال العارف الحاتمي في « الفتوحات المكية » (١/ ٤٤) : (والاستواء : حقيقةٌ معقولة معنوية ، تنسبُ إلىٰ كلِّ ذات بحسب ما تعطيه حقيقةُ تلك الذات ، ولا حاجةَ لنا إلى التكلُّف في صرف الاستواء عن ظاهره ؛ فهٰذا غلط بيِّنٌ لا خفاءَ به ، وأما المجسمة فلم يكن ينبغي لهم أن يتجاوزوا باللفظ الوارد إلىٰ أحدِ محتملاتِهِ مع إيمانهم ووقوفهم مع قوله تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾) .

(١) في نسخة هامش (ج) : (الكيف) بدل (كيف) .

(٢) رواه ابن المقرئ في « معجمه » (١٠٢٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٢٥) .

(٣) يعني : يُسأل بها عن الحادث ؛ لعدم انفكاكه عن مقولة الكيف ؛ حتىٰ على القول بالمجرَّدات ؛ إذ لها أعراضٌ مجرَّدة لائقة بها هي من تكيُّفاتها .

(٤) في (أ ، ج) : (فيجزم) بدل (للجزم) ، قال حجة الإسلام الغزالي في « قانون التأويل » (ص ١٩) : (ومن كذَّب العقل فقد كذَّب الشرع ؛ إذ بالعقل عُرف صدق الشرع ، ولولا صدقُ دليل العقل لما عرفنا الفرق بين النبي والمتنبي ، والصادق والكاذب ، وكيف يُكذَّب العقل بالشرع وما ثبت الشرع إلا بالعقل ؟!) ، وقال فيه أيضاً (ص ٢١) : (والوصية الثانية : ألا يُكذِّب برهانَ العقل أصلاً ؛ فإن العقل لا يكذِبُ ؛ ولو كذب العقل فلعله كذب في إثبات الشرع ؛ إذ به عرفنا الشرع) .

(٥) في (ب) زيادة : (ورسله) .

(والسؤالُ عنه بدعة) أي : حادثٌ ؛ لأن الصحابةَ رضي الله تعالىٰ عنهم كانوا عالمينَ بمعناه اللائقِ بحسَبِ اللغة ، فلم يحتاجوا للسؤال عنه ، فلمَّا جاءَ من لم يُحِطْ بأوضاع لغتهم ، ولا له نورٌ كنورهم يهديه لصفات ربِّهِ تعالىٰ . . شرعَ يسألُ عن ذلك ، فكان سؤالُهُ سبيلاً لاشتباهِهِ على الناس[1] ، وزيغِهم عن المراد ، وتعيَّنَ على العلماء حينئذٍ ألا يهملوا البيانَ ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ [آل عمران : ١٨٧] .

ولا بدَّ في إيضاح البيان من زيادة ، فنقول : قد قرَّرنا أن (استوى) افتعلَ من السواء ، وأصلُهُ العدل[2] ، وحينئذٍ فالاستواءُ المنسوب إلىٰ ربِّنا تعالىٰ في كتابه بمعنى (اعتدل) أي : قام بالعدل[3] ، وأصلُهُ من قولِهِ تعالىٰ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ . . . ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران : ١٨][4] ، فقيامُهُ بالقسط والعدلِ : هو استواؤُهُ ، ويرجعُ معناهُ إلىٰ أنه أعطىٰ بعزَّتِهِ كلَّ شيءٍ خَلْقَهُ[5] ، موزوناً بحكمتِهِ البالغة في التعرُّفِ لخلقِهِ بوحدانيَّته ؛ ولذلك

---

(١) في (ب) ونسخة هامش (ج) : (سبباً) بدل (سبيلاً) .

(٢) وذاك قوله (ص ٢٥٩) : (معنى الاستواء لغةً : وأصلُهُ افتعال من السواء ، والسواءُ في اللغة : العدلُ والوسط) .

(٣) نقل هـٰذه العبارةَ العلامةُ الكفوي في « الكليات » (ص ١٠٩) عن الإمام المصنف ابن اللبَّان .

(٤) والآية بتمامها : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

(٥) إشارة لقوله سبحانه حكاية عن سيدنا موسىٰ : ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه : ٥٠] ، ومعنىٰ (خَلْقَهُ) : قال العلامة الواحدي في « الوجيز » (ص ٦٩٦) : (الهيئة التي بها ينتفع ، والتي هي أصلحُ وأحكمُ لما يُراد منه) ، والمراد : عين كمال كلِّ شيء ؛ ألا ترىٰ أن الإبرة كمالُها في أن تكون مخرومة الرأس ؟!

قرنَهُ بقوله : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1] .

والاستواءُ المذكور في كتابه استواءانِ : استواءٌ سماوي ، واستواءٌ عرشي .

فالأوّلُ[2] : معدّىً بـ (إلىٰ) ، قالَ تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾ [البقرة : ٢٩] ، وقال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت : ١١] .

ومعناهُ والله أعلم : اعتدلَ ؛ أي : قام بقسطه وتسويتِهِ إلى السماء ، فسواهن سبعَ سماوات ، ونبَّهَ علىٰ أن استواءَهُ هـٰذا هو قيامُهُ بميزان الحكمة ، وتسويتُهُ بقوله تعالىٰ أوّلاً عن الأرض : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [فصلت : ١٠] ، وبقولِهِ تعالىٰ آخراً : ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [فصلت : ١٢] .

وأما الاستواءُ العرشيُّ : فهو أنه تعالىٰ قامَ بالقسط متعرِّفاً بوحدانيّتِهِ في عالمينِ : عالم الخلق وعالم الأمر ؛ وهو عالمُ التدبير ؛ ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف : ٥٤] ، وكان استواؤُهُ على العرش للتدبيرِ بعدَ انتهاء عالمِ الخلق ؛ لقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ﴾ [يونس : ٣] ، وبهـٰذا يُفهمُ سرُّ تعدية الاستواء العرشي بـ(علىٰ) لأن التدبيرَ للأمرِ لا بدَّ فيه من استعلاءٍ واستيلاء .

---

(١) فأشار باسمه الحكيم إلىٰ أن شيئاً من خلقه لا ينفكُّ عن حكمة ، فصار مشيراً لوحدانية الصانع .

(٢) يعني : الاستواء السماوي .

اعتبار

[في أحوال الإنسان الكامل]

اعتبرْ بعد فهمِ هـٰذا قولَهُ تعالىٰ في خطابِهِ لنبيِّنا صلى الله عليه وسلم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ * ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ * فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار : ٦ـ٨] (١) .

واعتبرْ ما أثمرَتْهُ هـٰذه التسويةُ والتعديل بقوله تعالىٰ عنه ليلةَ الإسراء : ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النجم : ٦ـ٧] ، مع قوله صلى الله عليه وسلم : « بلغْتُ إلىٰ مستوىً أسمعُ فيه صريفَ الأقلامِ »(٢) ، ومن المعلوم أن القلمَ إنَّما جرىٰ بالقدرِ ؛ كما ثبتَ في حديث عبادةَ بن الصامت رضي الله عنه : « إنَّ أوَّلَ ما خلقَ اللهُ القلمُ ، فقالَ لهُ : اكتبْ ، قالَ : وما أكتبُ ؟ قالَ : اكتبِ القدرَ ؛ ما كانَ وما هو كائنٌ إلى الأبدِ »(٣) .

---

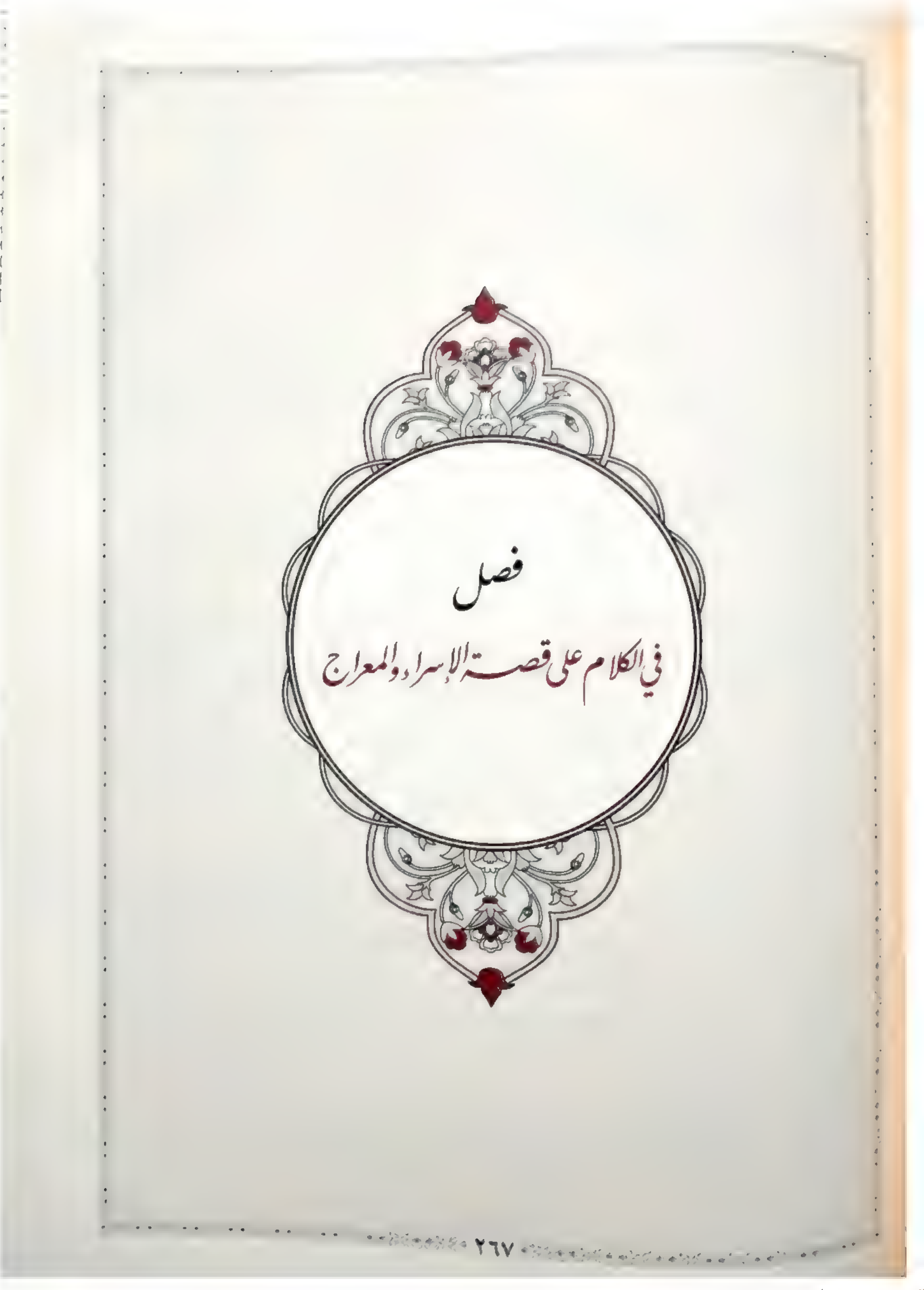
(١) **ووجه الاعتبار** : أن الإنسان بعد التسوية والتعديل قد تهيَّأ لمعرفة مولاه سبحانه ، ثم نُفخ فيه سرُّ الروح الإلـٰهي ، فتصوَّر في صورة الإنسان الكامل الذي له خلافةُ الله في أرضه ، فما كلَّفه معرفتَهُ وخلافته إلا بعد تعديل صورته ، فرجع ذلك لمعنى الاستواء بمعنى التعديل والتسوية ، والله أعلم .

(٢) رواه البخاري (٣٤٩) ، ومسلم (١٦٣) من حديث سيدنا أبي ذر رضي الله عنه .

(٣) رواه أبو داود (٤٧٠٠) ، والترمذي (٢١٥٥) ، **ووجه الاعتبار** : أن هـٰذا الإنسان الكامل كان له نصيب من رتبة الاستواء ؛ إذ صار إلىٰ محلٍّ علوي هو محلُّ التصريف والتدبير والأمر ؛ إذ الأقلام تكتبُ الأقدار ، وقد قال الإمام الغزالي في « مشكاة الأنوار » (ص ٥١): (والأنبياءُ إذا بلغ معراجُهم المبلغَ الأقصىٰ ، **وأشرفوا منه إلى السفل ، ونظروا من فوق إلىٰ تحت** . . اطَّلعوا أيضاً علىٰ قلوب العباد ، وأشرفوا علىٰ جملة من علوم الغيب ؛ إذ من كان في عالم الملكوت كان عند الله تعالىٰ ؛ ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ ﴾ [الأنعام : ٥٩] أي : من عندها تنزلُ أسبابُ الموجودات في عالم الشهادة) ، والله أعلم .

وبهذا الاعتبارِ تعلمُ أن الاستواءَ عبارةٌ عمّا قرّرناهُ لك من أن استواءَهُ قيامُهُ بالقسط ، وتقديرُ المقادير في عالم خلقِهِ وعالمِ أمره .

* * *



فصل

في الكلام على قصة الإسراء والمعراج



فصل

في الكلام على قصة الإسراء والمعراج

قصَّةُ الإسراء وإن كانَتْ مشتملةً على الترقِّي بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم إلى السماوات ، فليسَتْ منافيةً لما ذكرناهُ ، ولا مستلزمةً لإثبات الجهة[1] ، ويدلُّ علىٰ ذلك أمورٌ :

منها : افتتاحُ السورة بـ ﴿ سُبْحَٰنَ ﴾ المقتضي للتَّنزيهِ ؛ تنبيهاً علىٰ تعاليه عن التحيُّزِ بالجهات ، وعلىٰ عدمِ اختصاصِهِ بجهة .

الثاني : قوله تعالىٰ : ﴿ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ [الإسراء : ١] ، فأتىٰ بباء الإلصاق المفيدةِ للمصاحبة في تعديةِ الفعل[2] ؛ تنبيهاً علىٰ مصاحبتِهِ له في حالةِ إسرائه ، وأنه ليس نائياً ولا بعيداً عنه فيُحتاجَ في قربه إلىٰ قطعِ مسافةٍ مكانية ، وتحقيقاً لقولِهِ صلى الله عليه وسلم : « اللهمَّ ؛ أنتَ الصاحبُ في السفرِ »[3] .

الثالثُ : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ بِعَبْدِهِۦ ﴾ تنبيهاً علىٰ أنه علىٰ حسَبِ التحقُّق بخضوعِ العبودية[4] ؛ يكونُ الترقِّي إلىٰ حضرةِ الربوبية .

---

(١) في (أ ، ج) : (ملتزمة) بدل (مستلزمة) .
(٢) ومعنى الإلصاق لا ينفكُّ عن الباء في العربية .
(٣) تقدم تخريجه (ص ٢٢٨) .
(٤) قوله : (التحقق) كذا في (و) وحدها ، وفي سائر النسخ : (التحقيق) .

الرابعُ : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ لَيْلًا ﴾ وإن كان لفظُ الإسراء مفيداً لذلك[1] ؛ تنبيهاً علىٰ أن كلَّ ما تضمَّنَهُ الإسراء كان خارجاً عن العادة في مثلِهِ ؛ فإنه جعلَ العلَّة فيه أن يريَهُ من آياته ، والإراءةُ العاديَّةُ سلطانُها النهار ، فقال : ﴿ لَيْلًا ﴾ ليُعلِمَ أن الرؤيةَ المقصودة ليسَتْ عاديةً ، بل هي رؤيةٌ بنور ربَّاني سلطانُهُ الليلُ دون النهار .

الخامسُ : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ [الإسراء : ١] نبَّهَ به علىٰ أن الإسراءَ لو كان لضرورة رؤيةِ ربِّهِ عز وجل لكونه مخصوصاً بجهة العلو . . لم تكن حاجةٌ بالذهاب إلى المسجد الأقصىٰ ، ولأمكنَ الترقِّي من مكةَ إلى السماء ، فدلَّ علىٰ أن الإسراء والترقِّيَ من مكان لمكان . . لحكمةٍ وراءَ ما زعم مثبتُ الجهة .

والسرُّ فيه وفي كونه ذكرَهُ تعالىٰ في كتابه : التنبيهُ علىٰ أن العبدَ لا يصلُ إلى الله تعالىٰ إلا فرداً ؛ تحقيقاً لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم : ٩٥] ، ولا يتحقَّقُ له الفرديَّةُ إلا بعد مفارقةِ الحوادث وتجرُّدِهِ عنها ، فهنالك يصلُ إلىٰ حضرة عنديَّتِهِ[2] .

وقد جاء الكتابُ العزيز بالتنبيهِ علىٰ أن حضرةَ عنديَّتِهِ وراءَ دوائر السماواتِ والأرض ؛ قال تعالىٰ : ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ ﴾ [الأنبياء : ١٩] ، فعطفَ (من عنده) علىٰ (من في السماوات والأرض) ، والعطفُ يقتضي المغايرة ، فدلَّ علىٰ أن حضرةَ العنديَّةِ وراءَ السماوات والأرض ؛ وهي مع ذلك محيطةٌ بحضراتِ السماوات والأرضِ كإحاطة ربِّنا بذلك كلِّهِ ، مباينةٌ لها

---

(١) إذ الإسراء لا يكون إلا بليل ، ومع هـٰذا ذكر الليل للحكمة الآتية .
(٢) انظر الكلام على العندية (ص ٣١١) .

كمباينتِهِ[1] ، فمن أرادَها فعليه بفُرقة الحوادث ومباينته لها[2] .

ثم اعلمْ : أن الفُرقة فُرقتانِ : فُرقة قلبيّةٌ غيبيّة[3] ، وفُرقة حسيّة .

فإن فارقَها بقلبه وصلَ إلى الله سبحانه بقلبه ، وإن فارقها بحسّه تبعاً لقلبِهِ وصلَ إلى الله سبحانه بحسِّهِ وقلبه ؛ فلذلك كان الإسراءُ مرّتين : مرّةً بالروح ، ومرّةً بالجسد[4] ؛ تنبيهاً على أنه صلى الله عليه وسلم شرعَ لأمّته فراقَ الحوادث مرّتين ؛ مرّةً بالروح ؛ وهو الإسراءُ الأول ، ومرّةً بالجسد حسّاً ؛ وهو الإسراءُ الثاني ، ومن المعلوم أنه لا تحقُّقَ بفُرْقة الحوادثِ حسّاً إلا بمجاوزة دوائرِ الأفلاك كلِّها ؛ كما ثبتَ ليلةَ الإسراء .

وأما ترتيبُ نُقْلتِهِ وترقّيه في توجُّهه : ففيه أسرارٌ بديعة ؛ أظهرُها وأجلاها : أنَّ فرضَ الصلاة كان ليلةَ الإسراء[5] ، والصلاة حضرةُ القرب والمناجاةِ والمراقبة المثمِّرةِ لنعيم الرؤية .

---

(1) فلا توصف تلك الحضرة بأنها داخلَ العالم ولا خارجه ، ولا أنها متصلةٌ به ولا منفصلة عنه .

(2) وليقع بعضُ تفهيمٍ لما هنا ، وتمهيدٌ لما سيأتي . . بنقل ما ذكره حجةُ الإسلام في « مشكاة الأنوار » (ص ٥٠) إذ قال : (لا تظنَّ أنّا نعني بالعالم العلويِّ السماواتِ ؛ فإنها علوٌّ وفوقٌ في حقِّ عالم الشهادة والحسِّ ، ويشاركُ في إدراكه البهائمُ ، وأما العبدُ فلا يفتحُ له بابُ الملكوت ولا يصيرُ ملكوتياً إلا ويبدَّل في حقِّهِ الأرضُ غير الأرض والسماوات ؛ فيصير كلُّ داخلٍ تحت الحسِّ والخيال أرضَهُ ومن [جملته] السماوات ، وكلُّ ما ارتفع عن الحسِّ فهو سماؤه ، وهٰذا هو المعراج الأول لكلِّ سالك ابتدأ سفرَهُ إلىٰ قرب الحضرة الربوبية ، فالإنسان مردودٌ إلىٰ أسفل السافلين ، ومنه يترقّىٰ إلى العالم الأعلىٰ ، وأما الملائكة فإنهم [من] جملة عالم الملكوت ، عاكفون في حضرة القدُّوس ، ومنها يشرفون إلى العالم الأسفل) .

(3) غيبية : نسبة لعالم الغيب ، لا نسبة للغَيْبة .

(4) انظر « شرف المصطفىٰ » للخركوشي (٢/ ١٣٩) ، و« فتح الباري » (٧/ ١٩٧) .

(5) رواه البخاري (٣٤٩) من حديث سيدنا أبي ذر رضي الله عنه .

ومن المعلوم : أن التوجُهَ توجُّهانِ : روحانيٌّ وحسِّيٌّ[1] :

فقبلة التوجُّه الروحانيِّ : وجهُ الله سبحانه وتعالىٰ ، ولا اختصاصَ له بمكان .

وأما التوجُّهُ الحسِّيُّ فله قبلتانِ[2] : بيتُ المقدسِ والكعبةُ ؛ فبيتُ المقدس هو قبلةُ الأنبياء ، والكعبةُ هي قبلةُ إبراهيمَ عليه السلام .

فجاء الإسراءُ الروحانيُّ أولاً تأسيساً للشريعة في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [البقرة : ١١٥] .

وجاء الإسراءُ الحسِّيُّ مبدوءاً بالتوجُّهِ إلىٰ بيت المقدس ، ثم إلى السماء[3] ، ثم بالرجوع إلى الكعبة . . تأسيساً للشريعة في التوجُّه الحسيِّ في الصلاة أوّلاً لبيتِ المقدس ، ثم للسماء في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [البقرة : ١٤٤] ، ثم بالرجوع إلىٰ قبلة مكةَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ ﴾ [البقرة : ١٤٤] .

---

(١) وهٰذا باعتبار وجود عالمي الغيب والشهادة ؛ وقد قال حجة الإسلام في « مشكاة الأنوار » (ص ٦٥) وهو يتحدَّث عن انقسام العالمِ علىٰ عالمينِ ؛ روحاني وجسماني : (إن شئت قلت : حسِّي وعقلي ، وإن شئت : علوي وسفلي ، والكلُّ متقارب ، وإنما تختلف باختلاف الاعتبارات ؛ فإذا اعتبرتهما في أنفسهما قلت : جسماني وروحاني ، وإن اعتبرتهما بالإضافة إلى العين المدركة لهما قلت : حسِّي وعقلي ، وإن اعتبرتهما بإضافة أحدهما إلى الآخر قلت : علوي وسفلي ، وربما سميت أحدهما : عالم الملك والشهادة ، والآخر : عالم الغيب والملكوت) .

(٢) باعتبار جميع الشرائع والشريعة الإسلامية قبل النسخ وبعده ، وإلا فثَمَّ تفصيل لا داعيَ لذكره .

(٣) روى البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٢/ ٢٨٣) عن ابن سيرين : أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا صلَّىٰ رفع بصرَهُ إلى السماء ، فنزلت آية إن لم تكن : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون : ٢]. . فلا أدري أيُّ آية هي .

إشارة

[إلىٰ أسرار التوجُّه في ترتيب التبليغ على التلقي]

لمّا كان توجُّهُهُ ليلةَ الإسراء إلىٰ مكة بعد خروجه من حضرة القُرْب في تنقُّي إلىٰ حضرة القُرْب في التبليغ . . جاء التشريعُ في التوجُّه إلى الكعبة علىٰ وَفْقِ المناسبة ؛ فقال فيه : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [البقرة : ١٤٩] .

ومن هٰذا يُفهمُ السرُّ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ . . . ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ [الإسراء : ٧٩ـ٨٠] ، وهٰذا المُخْرَجُ للدعوة والتبليغ هو المُخْرَجُ الذي ورثَتْهُ عنه أُمَّتُهُ في قوله تعالىٰ : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ . . . ﴾ الآية [آل عمران : ١١٠] .

تنبيه

[علىٰ دنوِّ التجلي والكشف]

قولُهُ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۞ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم : ٨ـ٩] إيّاكَ أن تفهمَ أن ذلك يشعرُ بتحديدٍ في القرب ، أو تخصيصٍ في جهة ، وإنما هو دنوُّ تجلٍّ وكشف ؛ لأنه ذكرَهُ في قصَّةِ الإسراء بالروح ؛ ألا ترىٰ قولَهُ بعدَهُ : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ [النجم : ١١] ؟! ثم ذكرَ بعدَهُ الإسراء الحسيَّ فقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ . . . ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ [النجم : ١٣ـ١٨] .

فإذا عُلم أنه دنوُّ تجلٍّ روحانيٍّ وكشفٍ عرفاني . . فهمتَ سرَّ قوله تعالىٰ :

﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النجم : ٧] من قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ ﴾ [فصلت : ٥٣] فكان أُفُقُهُ في الرؤية وبيانِ الحقِّ هو الأفقَ الأعلىٰ[1] ، ثم دنا عن الأفق الأعلىٰ في نعيم الرؤيةِ وفي بيان الحقِّ فكان ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ أي : قدرَ قوسين ، والقوسُ في اللغة : يستعملُ للذراع ، وما يُقدَّرُ ويُقاسُ به ؛ وهو المرادُ هنا ، ومن قولِهِ في « الصحيح » : « أنا عندَ ظنِّ عبدي بي ، وأنا معهُ حينَ يذكرُني . . . » الحديثَ ، وفيه : « فإنْ تقرَّبَ إليَّ شبراً تقرَّبْتُ منهُ ذراعاً ، وإنْ تقرَّبَ إليَّ ذراعاً تقرَّبْتُ منهُ باعاً »[2] ، وليس المرادُ فيهما ذراعاً حسيّاً محدوداً ، وإنما المراد تمثيلُ التقريب لدنوِّ الذاكر من المذكور في مجالسِ النجوىٰ والذكر ، وتجلّي سرِّ المعيّة للقلب .

وأدنى الرُّتَبِ في ذلك[3] : تحقُّقُ القلب بسرِّ (سبحانَ الله) وسرِّ (الحمدُ لله) ، وكذلك كانَ صلى الله عليه وسلم ليلةَ الإسراء ، وإذا أردتَ التحقيقَ لذلك فخذْهُ من افتتاحِ سورةِ (الإسراء) بـ ﴿ سُبْحَٰنَ ﴾ ، واختتامِها بقوله : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ [الإسراء : ١١١] .

ثم نبَّهَ على انتفاء التقديرِ في دنوِّهِ بقوله : ﴿ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ وهو التحقُّقُ بالتوحيد في نعيم الرؤية للآية الكبرىٰ[4] ؛ وهي : (لا إلـهَ إلا اللهُ) ولذلك وصفَهُ بقوله آخرَ سورةِ (الإسراء) : ﴿ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا . . . ﴾ [الإسراء : ١١١] إلىٰ قولِهِ تعالىٰ ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء : ١١١] تحقيقاً لقولِهِ عليه الصلاة والسلام : « وما بينَهم

---

(١) قوله : (وبيان الحق) مفادٌ من تتمة الآية ؛ وهي : ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ .

(٢) انظر تخريجه (ص ١٣٦) .

(٣) في (ب) : (وأدنىٰ ـ يعني : أقرب ـ الرتب في ذلك) .

(٤) في (ج) : (التوجُّه) بدل (التوحيد) .

وبينَ أنْ ينظروا إلىٰ ربّهم إلا رداءُ الكبرياء علىٰ وجهه في جنّة عدْنٍ » كما قدمناهُ[1] .

إيضاح
[لسرِّ التدلِّي]

إذا أردتَ أن تفهمَ سرَّ التدلِّي في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَتَدَلَّىٰ ﴾ . . فتأمّلْ ما رواه أبو عيسى الترمذيُّ من حديث العَنانِ ، وفيه ذكر الأرضينَ السبعِ ، وأن بين كلِّ أرض وأرضٍ كما بين السماءِ والأرض ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيدِهِ ؛ لو دُلِّيَ أحدُكم بحبلٍ لوقعَ على اللهِ »[2] .

فنبَّهَ صلى الله عليه وسلم علىٰ عدم تحيُّزِهِ تعالىٰ في السماء ، وأنه ليس مختصّاً بجهةٍ[3] ؛ كما نبَّهَ علىٰ ذلك قولُهُ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ ؛ فإن الإسراءَ كان للعلوِّ ، فربما توهَّمَ المحجوبُ أن الدنوَّ في قوله تعالىٰ : ﴿ دَنَا ﴾ زيادةُ العلوِّ ، فنبَّهَ بقوله تعالىٰ : ﴿ فَتَدَلَّىٰ ﴾ علىٰ أن قربَهُ ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ . . كان ثمرةَ التدلِّي المشعِرِ بالتنزُّل ، **وأنه تعالىٰ لا يختصُّ قربُهُ بجهة العلوِّ** ، بل المُتدلِّي

---

(١) انظر (ص ١٦٨) .

(٢) سنن الترمذي (٣٢٩٨) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، ورواه البيهقي في « الأسماء والصفات » (ص ٣٧٢) ثم قال : (والذي روي في آخر هـٰذا الحديث إشارة إلىٰ نفي المكان عن الله تعالىٰ ، وأن العبد أينما كان فهو في القرب والبعد من الله تعالىٰ سواء ، وأنه الظاهر ؛ فيصح إدراكه بالأدلة ، الباطن ؛ فلا يصح إدراكه بالكون في مكان) .

(٣) فهو سبحانه استوىٰ علىٰ عرشه كما أخبر ، ومع ذلك لو دلِّيَ حبلٌ إلى الأرض السابعة لهبطَ على الله تعالىٰ وجلَّ كما في لفظ رواية الترمذي ؛ لأن التدلي خضوع وهبوط ، فأشبهَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق : ١٩] .

إليه بالخضوع أقربُ ؛ تحقيقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق : ١٩] .
وفي الحديث : « أقربُ ما يكونُ العبدُ مِنْ ربِّهِ وهو ساجدٌ »[١] .

تبصرة

[في تأويل قوله عليه الصلاة والسلام : « لوقعَ على اللهِ »]

قولُهُ : « لو دُلِّيَ أحدُكم بحبلٍ لوقعَ على اللهِ » له تأويلانِ : ظاهر وباطن .

فالظاهرُ : التنبيهُ علىٰ إحاطته سبحانه بكلِّ شيء ، وعلىٰ إحاطةِ حضرتِهِ كما قدمناهُ في الإسراء[٢] .

وأما الباطنُ : فالحبلُ حبلانِ : حادث وقديم .

فالحادثُ : حبلُ الوريد ، وهو الحديثُ النفسانيُّ والنورُ العقلي[٣] ، فلو دَلَّى المتفكِّرُ حبلَ شعاعِ عقلِهِ إلىٰ منتهى المخلوقاتِ السفليَّةِ[٤] .. لوقعَ في كلِّ حضرة من حضرات مدركاتِهِ على الله سبحانه وتعالىٰ ؛ لأنه أقربُ إليه من كلِّ شيء ؛ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [قٓ : ١٦] .

وأما الباطنُ : فهو حبلُ الله المتين ، وكتابُهُ المبين ، فمَنْ تمسَّكَ به شهدَ سرَّ تنزُّلِهِ علىٰ أرض القلوب ، ووقعَ حبلُ أشعتِهِ على الله فيها ؛ لأن القلبَ بيتُ الربِّ[٥] ؛ ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۞ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۞

---

(١) رواه مسلم (٤٨٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) انظر (ص ٢٧٠) .
(٣) أراد حديث المرءِ نفسَهُ ساعة التفكُّر في مخلوقات الله تعالىٰ .
(٤) في (أ ، ج ، د ، هـ) : (قلبه) بدل (عقله) .
(٥) وتحقيق هـٰذه الإضافة : إنما يكون بالنظر إلىٰ عمل القلب وتعلُّقه بالأشياء ؛ وإذا علمت أن=

﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ . . .﴾ إلىٰ قوله : ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾[1] [الواقعة : ٧٤ـ ٨٥] .

تبصرة

[في زيادة تحقيق نفي الجهة عن الله تعالىٰ]

إذا أردتَ زيادةَ التبصُّرِ بأن الإسراءَ ، وعروجَ الملائكة ، ورفعَ عيسىٰ وإدريس عليهم السلام إلى السماء ؛ لا يدلُّ علىٰ أن الله تعالىٰ مخصوصٌ بجهة السماء . . فاعتبرْ فرْضَ الحجِّ على العباد إلىٰ بيت الله الحرام ، وأمْرَ اللهِ تعالى الناسَ بالتوجُّهِ إليه من جميعِ الجهات ، وجعْلَ سكانِهِ جيرانَ الله سبحانه ، وحجَّاجِهِ وفدَهُ وضيفانَهُ ، والحجرِ الأسودِ يمينَهُ ؛ مع أن نسبةَ البيت وغيرِهِ إلى الله سبحانه باعتبار المسافة . . نسبةٌ واحدة[2] .

فعُلِمَ أن القصدَ بالسير إلى البيت ليسَ لأنَّ السيرَ يقتضي القربَ في الوصول

= عمله المعرفة أو الجهل ، والحب أو البغض ، إلىٰ غير ذلك من التعلقات . . علمت أنه بيت المعرفة بالله ، ومحبته سبحانه ، والإيمان به ، والتصديق بما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم ، فلا تُعبِّس ولا تنقبض عند سماعك لنحو هـٰذه العبائر من عبارات القوم المحقِّقين ؛ فهم أقدرُ منَّا ـ نحن الغرقىٰ بشهواتنا ـ على الجري في حَلَبات ميادين المعرفة الإلـٰهية ، والنقولُ الشرعية شاهدة لهم بذلك .

(١) انظر الحديث عن هـٰذه الآية (ص ٣٠٤) .

(٢) إذ ليس بعضُ الحوادث من حيث المسافةُ أقربَ إليه سبحانه من بعض ؛ لأنه سبحانه يتعالىٰ عن المقادير والمسافات والأبعاد ، فهو أقربُ إلىٰ كلِّ شيءٍ من كلِّ شيء ، بل من الشيء إلىٰ نفسه ، فلمَّا أخبرنا سبحانه بأقربية بعض خلقه إليه من بعض مع علمنا بأنه قال : ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [ق : ١٦] . . علمنا أن ثَمَّ أقربيةً غير حسية ؛ وهي ما سيحدِّث عنه الإمام المصنف .

إليه بالمكان[1] ، وإنما لله سبحانه وتعالىٰ تعبُّداتٌ وأسرارٌ في ضمن مشروعاتٍ يقتضيها من عباده لحِكمٍ ظاهرة وخفيّةٍ[2] ، ألا تراهُ كيف ناجىٰ موسىٰ بالوادي المقدّس ، وأسمعَهُ كلامه من الشجرة ، ووصفَهُ بالقُرْب إلىٰ مجلس حضرتِهِ ونجواه[3] ؟! مع الاتفاقِ علىٰ : أنه تعالىٰ لا يختصُّ بجهة الوادي المقدّس ، ولا يحُلُّ كلامُهُ وهو صفتُهُ بالشجرة ، وأن موسىٰ قَرُبَ إليه مع كونِهِ بالأرض ، وسمع نداء ربِّهِ من جانب الطور ، ولم يكنْ ربُّهُ بجانب الطور ، وإنما لتجلّياتِهِ مظاهرُ وحُجُبٌ روحانية وجسمانية لا يشهدُها إلا مَنْ فتقَ الله رتْقَ قلبه ، وفلقَ إصباحَ ليلِهِ ، ونوّرَ مصباحَ مشكاته بزيت شجرةِ توحيده ؛ ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : ٤٠] .

تشكيك[4]

[بذكر آياتٍ وأحاديثَ ظواهرُها تفيد الجهةَ والفوقية في حقِّ المتعالي سبحانه]

قد يُوردُ علىٰ ذلك نحوُ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴾ [الملك : ١٦] ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ

---

(١) في (ب) وحدها : (فعُلِمَ أن القصدَ بالسير إلى البيت ليس هو لمجرَّدِ البيت ؛ لأن السير . . .) ، والصواب المثبت .

(٢) في (ج ، د ، هـ) : (صور) بدل (ضمن) .

(٣) حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم : ٥٢] .

(٤) هو ما نعبِّرُ عنه بقولنا : (تحريجة ، إيرادة . . .) ، وتكون بإيراد قضية أو قضايا تحرجُ الخصمَ ؛ في نحو عدم تعميم ما ذهب إليه ، وعدم اطّراد ما قعَّده ؛ طلباً لهدم قوله ، وتارة تُصاغ بصيغة (الفنقلة) ، ويولع بإيرادها أهل العلم المحقِّقون ؛ تمكيناً لأقوالهم ؛ وذلك لأن المراد لا يدفع الإيراد ، فلا بدَّ من البيان .

﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ [السجدة : ٥] وأمثال ذلك ، وقوله صلى الله عليه وسلم للجارية : « أينَ اللهُ ؟ » ، فقالت : في السماء ، قال : « أعتقْها ؛ فإنَّها مؤمنةٌ »[1] .

والجوابُ : أنه قد قرَّرنا أن تجلِّياتِهِ تعالىٰ بأسمائه وصفاته محيطةٌ بدوائر السماوات والأرضِ ، وأن لها في تصرُّفِها وسائطَ سفليَّة منسوبةً للعباد ، ووسائطَ علويَّة منسوبةً له تعالىٰ[2] ، **فأطلقَ علىٰ نفسِهِ تعالىٰ أنه في السماء باعتبارِ الوسائط ومظاهرِ تجلِّياتِهِ العلويَّة ، وأنه في الأرض باعتبار المظاهرِ والوسائط السفليَّة** ؛ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ [الزخرف : ٨٤] ، وقال اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [النحل : ٥١] .

فإذا كان المقصودُ بالسياق تحذيرَ أهل الأرض وتفخيمَ الأمرِ : جاء التعبير بـ ﴿ مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ ؛ فإن مظاهرَهُ السماويةَ هي القائمةُ بالتصرُّفات الغيبيةِ المنسوبة إليه كما قررناه[3] .

وأما تنزُّلُ التدبير وعروجُهُ : فهو عروجٌ روحاني ، وسرٌّ رحماني ، وكشفٌ عرفاني ، وقد تقدَّم ذكرُهُ في مسألة الاستواءِ[4] .

وأما تقريرُ الجارية علىٰ أن اللهَ تعالىٰ في السماء ، ووصفُها بأنها مؤمنةٌ : فالحقُّ أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم لم يعتمدْ في إيمانها وتقريرها ظاهرَ لفظها ، فإن لفظَها ليس مفيداً لتوحيدِ الله تعالىٰ ؛ لا علىٰ مذهب القائلين بالجهة ، ولا غيرهم .

---

(١) رواه مسلم (٥٣٧) من حديث سيدنا معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه .

(٢) انظر (ص ١٩٧) .

(٣) انظر (ص ٢١١) .

(٤) انظر (ص ٢٦٤) .

أما عند من لا يثبتُ الجهة : فواضحٌ[1] .

وأما عند مثبتِ الجهة : فلأنَّهم موافقون على أنه قد عُبدَتِ الملائكةُ والشمس والكواكب وهي في السماء ، وعُبدَ عيسىٰ وهو حين الإخبارِ في السماء ، **وليس في لفظِها ما يخرِجُ هٰؤلاء عن الإلٰهيَّة**[2] ، ولا ما يقتضي وصفَها بالإيمان .

وأقربُ احتمالٍ في ذلك : أن الجاريةَ أشرقَ لبصيرتها نورُ التوحيد في الآفاقِ السماويَّة ؛ تحقيقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ . . . ﴾ الآيتينِ [فصلت : ٥٣ ـ ٥٤][3] ، فلمَّا قال لها : « أينَ اللهُ ؟ » ، قالت : في السماء ؛ أي : ظهرَ نورُ توحيدِهِ في السماء ، فقال : « أعتقْها ؛ فإنَّها مؤمنةٌ »[4] .

---

(١) إذ المفيد للتوحيد والإسلام هو قولُها : (لا إلٰه إلا الله ، محمد رسول الله) ، واعلم : أن الرواية المجوَّدة لهٰذا الحديث هو ما رواه مالك في « الموطأ » (٢/ ٧٧٧) عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود مرسلاً ، وأحمد في « المسند » (٣/ ٤٥١) : أن رجلاً من الأنصار جاء إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بجارية له سوداءَ ، فقال : يا رسول الله ؛ إن عليَّ رقبةً مؤمنة ، فإن كنتَ تراها مؤمنة أعتقتها ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتشهدينَ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ ؟ » قالت : نعم ، قال : « أتشهدينَ أنَّ محمداً رسولُ الله » ، قالت : نعم ، قال : « أتوقنينَ بالبعثِ بعدَ الموتِ ؟ » ، قالت : نعم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعتقْها » ، وما عُهد عنه عليه الصلاة والسلام أن الإيمان مفتاحُهُ في جواب (أين الله) .

(٢) في (ب) : (العبادة) بدل (الإلٰهية) .

(٣) والآيتان بتمامهما : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ * أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ .

(٤) وهٰذا توجيهٌ على طريقة **أصحاب الأشائر** ، وله شواهدُه من الكتاب والسنة ، وعلى طريقة **أهل الظاهر** : أن هٰذه الجارية رضي الله عنها كانت خرساء ، ولم يتوجَّه لها من حضرة النبي عليه الصلاة والسلام السؤالُ بـ (أين) أصلاً ، بل بـ « أتشهدينَ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ ؟ » كما =

ويُحقِّقُ ذلك : كونُهُ لم يقل : (فإنها مسلمةٌ) لأن الإسلام تتعلَّقُ أحكامُهُ باللسان والجوارح الظاهرة ، ولم يكن ظهرَ منها شيء من ذلك يعتمدُ عليه ، وقال : « فإنَّها مؤمنةٌ » ، والإيمانُ من لوازم القلوب ، فدلَّ على أن اعتمادَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم في تقريرها كان على أمرٍ شهدَهُ منها يرجعُ إلى قلبِها ، لا إلى لفظِها[1] ، مع احتمالِ لفظها له ، فلذلك أقرَّها عليه[2] .

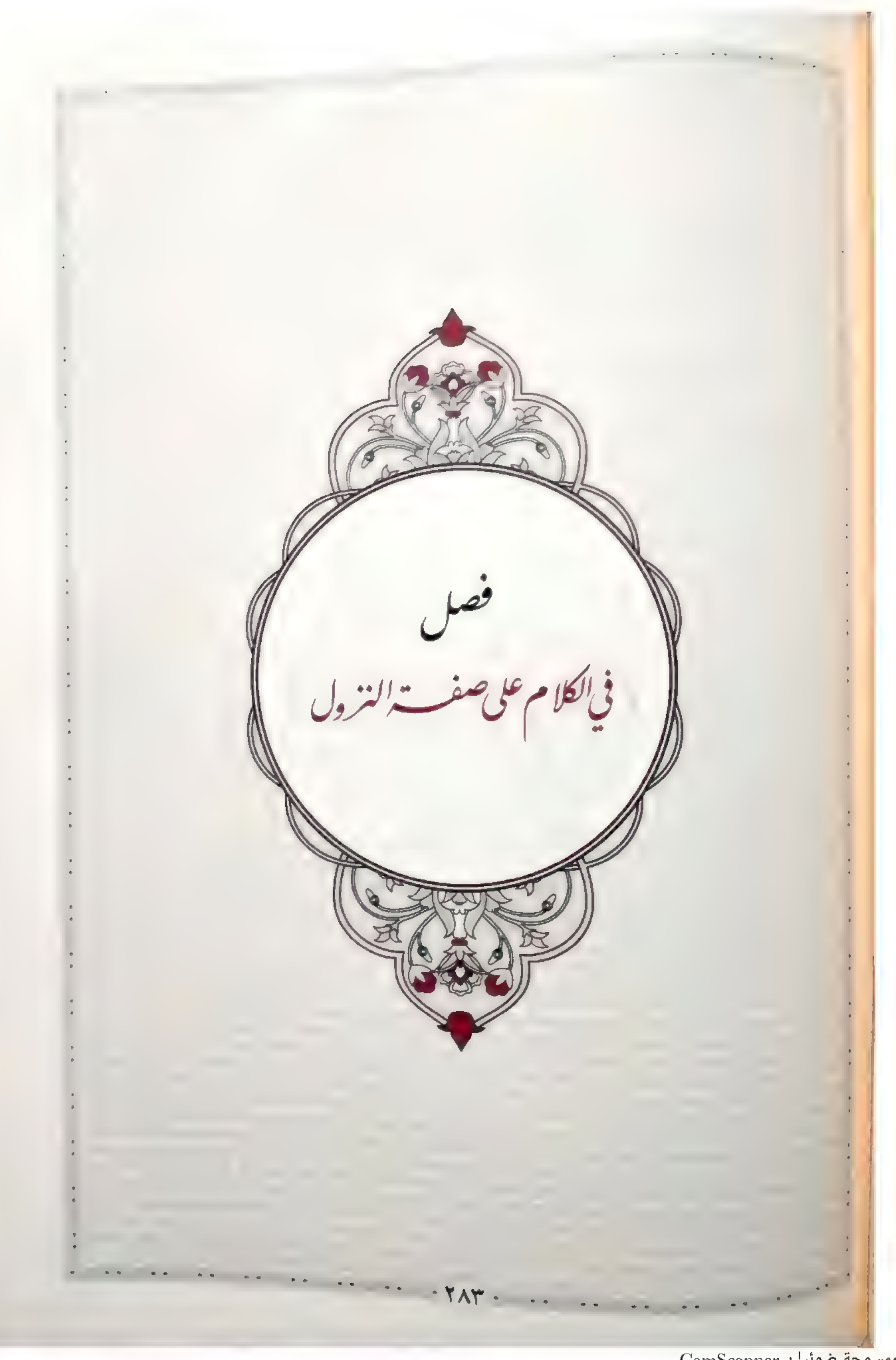
* * *

= علمت ؛ وقوله في الحديث : (قالت : نعم) يعني : أشارت برأسها بما يفيد ذلك ، وهـٰذا التوجيه واجبٌ اقتضاه الجمعُ بين روايات هـٰذا الأثر ، وعرفُ السنة عن مثله في إثبات الإيمان ؛ إذ لا يُعرفُ عنه عليه الصلاة والسلام ولا عن أصحابه الكرام أنهم كانوا يمتحنون من يدَّعي الإسلام أو يهمُّ بالدخول فيه.. بسؤاله : (أين الله ؟) ، بل هو بدعةٌ شنيعة أحدثَها أهل التشبيه والتجسيم .

(1) وتفهم هـٰذا من عكس هـٰذه الصورة ؛ وهو ما رواه البخاري (٢٧) ، ومسلم (١٥٠) من حديث سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : قسم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قَسماً ، فقلتُ : يا رسولَ الله ؛ أعطِ فلاناً ؛ فإنه مؤمنٌ ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « أو مسلمٌ » ، أقولها ثلاثاً ، ويردِّدُها عليَّ ثلاثاً : « أو مسلمٌ » ، ثم قال : « إني لأعطي الرجلَ وغيرُهُ أحبُّ إليَّ منهُ ؛ مخافةَ أنْ يكبَّهُ اللهُ في النارِ » .

(2) والاحتمال في مثل هـٰذا معتبر ، تعصم به الدماء والأموال .





فصل

في الكلام على صفة النزول



فصل

في الكلام على صفة النزول

ومن الأحاديثِ المتشابهة : أحاديثُ نزوله سبحانه وتعالىٰ كلَّ ليلة إلىٰ سماءِ الدنيا :

وهو لا ينافي ما ذكرناهُ ، ولا يستلزمُ إثبات الجهة ، ولا اتصافهُ تعالىٰ بالحركة والنُّقْلة ؛ فإنها عَرَضٌ ، والأعراضُ يلزمُها الحَدَثُ ، والحدثُ على القديم محالٌ علىٰ ما هو مقرَّرٌ في الكتب الكلامية ، ولسنا لهُ الآن[1] ، وإنما

(١) وروى الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٨٦) كلاماً جامعاً بين طريقتي المتكلمين والصوفية في هٰذا ، عن الحسين بن منصور قال : (ألزمِ الكلَّ الحدَث ؛ لأن القدم له ، فالذي بالجسم ظهورُهُ فالعرضُ يلزمه ، والذي بالأدوات اجتماعُهُ فقواها تمسكُهُ ، والذي يؤلِّفُهُ وقت يفرِّقُهُ وقت ، والذي يقيمُهُ غيره فالضرورةُ تمَسُّهُ ، والذي الوهم يظفرُ به فالتصويرُ يرتقي إليه ، ومن آواه محلٌّ أدركه أينٌ ، ومن كان له جنسٌ طالبهُ مكيِّفٌ .

إنه سبحانه لا يظلُّهُ فوقٌ ، ولا يقلُّهُ تحتٌ ، ولا يقابلُهُ حدٌّ ، ولا يزاحمُهُ عندٌ ، ولا يأخذُهُ خلفٌ ، ولا يحدُّهُ أمامٌ ، ولم يُظهِرْهُ قبلٌ ، ولم يفنِهِ بعدٌ ، ولم يجمعْهُ كلٌّ ، ولم يوجدْهُ كانَ ، ولم يفقدْهُ ليسَ .

وصفُهُ لا صفةَ له ، وفعلُهُ لا علَّةَ له ، وكونُهُ لا أمدَ له ، تنزَّهَ من أحوال خلقه ، ليس له من خلقِهِ مزاجٌ ، ولا في فعله علاج ، باينَهم بقِدَمِهِ كما باينوهُ بحدوثهم .

إن قلت : « متىٰ » فقد سبق الوقتَ كونُهُ ، وإن قلت : « هو » فالهاء والواو خلقُهُ ، وإن قلت : « أين » فقد تقدم المكانَ وجودُهُ ، فالحروفُ آياته ، ووجوده إثباته ، ومعرفتُهُ توحيده ، وتوحيده تمييزُهُ من خلقه ، ما تصورَ في الأوهام فهو بخلافه .

كيف يحلُّ به ما منه بدا ، أو يعود إليه ما هو أنشأهُ ؟! لا تماقلُهُ العيون ، ولا تقابلُهُ الظنون . قربُهُ كرامته ، وبعدُهُ إهانته ، علوُّهُ من غير توقُّل ، ومجيئُهُ من غير تنقُّل ، هو الأولُ =

المقصودُ تخريجُ صفة النزول على ما يوافقُ القواعدَ التي مهّدناها في صفاتِهِ سبحانه وتعالى[1] .

وقد أوّلَ بعضُهم نزولَهُ بنزول علمِهِ أو قدرته ونحوه ، وهو غيرُ مُنجٍ[2] ؛ فإن علمه وقدرتَهُ صفاتٌ ؛ **فإن أُريدَ نزولها نفسِها** فهو محالٌ[3] ؛ لأن الصفة قائمةٌ بالموصوف ، فإذا لم يجزْ على موصوفِها النزولُ فصفتُهُ أولى ، **وإن أُريدَ بنزولها تعلُّقُها بما في سماء الدنيا** فتعلُّقُ علمِهِ وقدرته بالموجودات كلِّها لم يزلْ ولا يزال[4] ، فكيف تختصُّ بجزءٍ من الليل أو غيره ؟!

هـٰذا مع القطعِ بأنه تعالى يمسكُ السماوات والأرضَ أن تزولا[5] ، فمَنْ قبضتُهُ لا تزالُ محيطةً بالسماوات كلِّها . . كيف يحتاجُ إلى النزول إليها ، أو يختصُّ تعلُّقُ قدرته وعلمِهِ بها بزمان دون غيره ؟!

وإنما الجاري على القواعدِ والآيات المحكمةِ **قد بيَّنَهُ الله تعالى في كتابه بمَثَلينِ** : مثلٍ فيك ، ومثلٍ خارجٍ عنك .

= والآخر ، والظاهرُ والباطن ، القريبُ البعيد ، الذي ليس كمثلِهِ شيءٌ وهو السميع البصير) .

(١) انظر (ص ١١٩) .

(٢) في نسخة هامش (ج) : (متَّجه) بدل (منجٍ) .

(٣) في (ب) العبارة : (وقدرته وهما صفتان له تعالى فإن أريد نزولهما نفسهما فهو) بدل (أو قدرته ونحوه ، وهو غير منجٍ ؛ فإن علمه وقدرته صفات ، فإن أريد نزولها نفسها فهو محال) .

(٤) العبارة على ظاهرها متَّجهةٌ على قول السادة الماتريدية المثبتين لصفة التكوين ، وإلا فالتعلُّق التنجيزي لصفة القدرة على قول السادة الأشاعرة إنما هو فيما لا يزال ، لا في الأزل ؛ إذ التعلقات حادثة ، ولا يضرُّ حدوثها لكونها اعتبارية ؛ إلا إن أراد الإمام المصنف شمول التعلقات للصُّلُوحي منها .

(٥) إشارة إلى صفة القيومية ؛ وهي عند المتكلمين راجعة إلى دوام التعلقات التنجيزية للقدرة الأزلية ؛ قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر : ٤١] .

الأوَّلُ[1] : قولُهُ تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . . ﴾ الآيةَ[2] [النور : ٣٥] ، ومن المعلوم أن النورَ إذا جُعِلَ محيطاً بدوائرَ شفافة سبعةٍ أو ثمانية بعضُها محيطٌ ببعضٍ . . فأوَّلُ ما يظهرُ أثرُهُ في أدناها إليه وأوسعِها دائرةً ، فيراه أهلُها ، ثم ينفذُ شعاعُهُ إلى الثانية فيظهرُ فيها علىٰ حسَبِ صفائِها ، ثم هٰكذا إلىٰ ثالثة ورابعةٍ إلى السابعة ، وكلُّ من كان في دائرة منها يرى النورَ قد نزلَ إلىٰ دائرتِهِ ، وهو نزولُ ظهور وتجلٍّ ، لا نزولُ حركةٍ ونُقْلة .

فعلىٰ مثل هٰذا تُخرَّجُ صفةُ نزولِهِ سبحانه مع تنزُّهِهِ عن تفاوت نِسَبِ دوائر الأفلاكِ إليه ، وعن بُعدِهِ عن بعض وقربِهِ من بعض ، بل هو أقربُ إلىٰ كلِّ شيء من نفسه .

ولا بدَّ لك حينئذٍ من مراجعة ما تقدَّمَ في الاستواء على العرشِ ، فتعلمُ أن صفةَ النزول من لوازم صفةِ الاستواء ، وقد تقدم أن صفةَ الاستواء هو قيامُهُ تعالىٰ في عالم الأمر بسرِّ التدبير[3] ، فنزولُهُ حينئذٍ هو نزولُ روحِ الأمر بسرِّ التدبير من حضرةِ الاستواء وهو العرشُ . . إلىٰ سائر دوائر الكائنات بحكمةِ التعرُّفِ ؛ قالَ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ [يونس : ٣] ، وقالَ تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ١٢] ، ثم بيَّنَ أن ذلك التنزُّلَ لحكمة التعرُّفِ بقوله : ﴿ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق : ١٢] .

---

(١) وهو المثل الخارج عنك .

(٢) والآية بتمامها : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

(٣) انظر (ص ٢٦٤) .

تنبيه

[على تعليل نسبة النزول له سبحانه]

إنما نُسبَ النزولُ إليه سبحانه ؛ لأن روحَ الأمر هي مظهرُ نور التوحيد ، قال تعالىٰ : ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ [النحل : ٢] ، وقد بيّنّا أن نور توحيده هو وجهُهُ سبحانه ؛ فلهـٰذا جُعلَ نزولُ روحِ أمره بمثابة نزوله ، ومعرفتُها بمثابة معرفتِهِ تحقيقاً ؛ لأنَّ مَنْ عرف نفسَهُ عرف ربَّهُ[1] .

تبصرة

[في اعتبار النزول في العالم الأصغر]

إذا علمتَ معنىٰ نزولِهِ في العالم الأكبر ، فاعتبرْ بذلك استواءَهُ ونزولَهُ في عالم الإنسان ؛ وهو العالمُ الأصغر كما سيأتي بيانُهُ[2] .

المثلُ الثاني[3] : قولُهُ تبارك وتعالىٰ : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ . . . ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ حَسِيرٌ ﴾ [الملك : ١ ـ ٤][4] ، فلا تعتقدْ أن المرادَ منك أن تُرجعَ بصرَكَ في طباق السماوات ؛ فإن اللهَ تعالىٰ يعلم أنك لا تدركُ ببصرك ذلك ؛ لضعفِهِ

---

(١) انظر الحديث عن هـٰذا (ص ١٦١) ، وهـٰذه العبارة كلمة للعارف بالله يحيى بن معاذ ستأتي (ص ٣٢٤) .

(٢) انظر (ص ٢٨٩) .

(٣) وهو المثل الذي فيك .

(٤) **والآيات بتمامها** : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۞ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۞ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۞ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ .

وشدة البعد ، وتأمَّلْ قوله تعالىٰ : ﴿ مَا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ أي : أن الرحمـٰن خلقَكَ وخلقَ السماوات ؛ قال تعالىٰ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن : ١ـ ٤] ، فكما خلقَ السماواتِ خلق فيك أمثلةً لها ، لا تفاوتَ بين تلك الأمثلةِ وبينَها .

فارجعْ بصرَكَ في تلك الأمثلة تعلمْ أنه سبحانه ضربَ قلبَكَ لنفسه مثلاً ؛ وذلك أن قلبَكَ هو صاحبُ دوائر أطوارِكَ ، وله في استوائه عالمانِ : عالَمُ خلقٍ وهو عالم حسِّكَ ، وعالَمُ أمرٍ وهو عالم غيبِكَ[1] .

فإذا أراد تدبيرَ عالم الحسِّ تنزَّلَ بروح أمره[2] ؛ وهو نورُ البصر ، ومن المعلوم عند علماءِ التشريح أن للروح الباصر سبعَ طِباقٍ ، يتنزَّلُ بينها إلىٰ أن يصلَ إلىٰ عالم الحسِّ ، وأنت إذا اعتبرتَ ذلك حكمتَ بسببه أن نزولَهُ تعالىٰ منزَّهٌ عن النُّقْلة والحركة ؛ ألا ترىٰ أن القلبَ يدرك بالبصر ، ويدرك به البصرُ الشيءَ البعيد حسّاً في آنٍ واحد ، من غير تنقُّلٍ ولا فطورٍ في طِباقه التي ينفذُ من بعضِها إلىٰ بعض ، ولا مهلةَ في تنزُّله ورجوعِهِ إليه ، ولا تفاوتَ في نسبتِهِ إليها ؟!

وقد قال المحقِّقون من أهل النظر : (إن العين مرآةُ القلب) أي : مَنْ نظرَ إلىٰ عين رجلٍ رأىٰ منها حقيقةَ قلبه[3] ، ولتحقُّقِ الروح الباصرِ بالقلب اشتبهَ

---

(١) قال حجة الإسلام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٥/ ١٩) : (شبَّهَ سهل التُّسْتَرِيُّ القلبَ بالعرش ، والصدرَ بالكرسي ؛ فقال : « القلب هو العرش ، والصدر هو الكرسي » ، ولا تظنَّ به أنه يرىٰ أنه عرش الله وكرسيه ؛ فإن ذلك محال ، بل أراد به أنه مملكتُهُ ، والمجرى الأول لتدبيرِهِ وتصرُّفه ، فهما بالنسبة إليه كالعرش والكرسي بالنسبة إلىٰ الله تعالىٰ ، ولا يستقيمُ هـٰذا التشبيه أيضاً إلا من بعض الوجوه) .

(٢) الفاعل في قوله : (أراد) ضمير راجع للقلب .

(٣) روى البخاري (١٣٠٣) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « إن العينَ تدمعُ ، =

علىٰ كثيرٍ من العقلاء ، فاعتقدوا أن البصرَ ليس حسّاً مغايراً للقلب ، وكذا باقي الحواس ، بل هي بمثابةِ الشبابيكِ ، والقلبُ هو المدرِكُ منها لما في عالم الحسِّ[1] .

وهٰذا كلُّهُ يكشفُ لك سرَّ نسبة النزول إلىٰ ربّنا سبحانه ؛ بنزولِ روحِ أمره ، وكونِهِ من أكبر آياتِ توحيده .

تذكرة

[في استواء حال النبيِّ صلى الله عليه وسلم في حياته وبعد مماته]

في الحديث : « ما مِنْ مسلمٍ يسلِّمُ عليَّ إلا ردَّ اللهُ عليَّ روحي حتىٰ أردَّ عليهِ السلامَ »[2] ، وقد نبَّهتُ على الإشكال المتعلِّق بهٰذا وعلىٰ جوابه في كتاب « الأمالي »[3] ، والقصدُ بذكره هنا مناسبتُهُ لما نحن فيه ؛ فإن للعبد مع الله تعالىٰ حالينِ :

حالاً يجمعُ روحَهُ عليه ؛ تحقيقاً لتوحيده ، وتكميلاً لشهوده .

وحالاً يردُّ روحَهُ إليه ؛ هدايةً لخلقه ، وتوفيةً لحقِّهِ .

وهٰذا الجمعُ والردُّ من الأسرار الإلٰهية ، نبَّهَ به النبيُّ صلى الله عليه وسلم علىٰ أن حالَهُ في مماته كحالِهِ في حياته ؛ لا يزالُ بروحِهِ عند اللهِ تعالىٰ ، وإذا

= والقلبَ يحزنُ » ، ولا يخفىٰ أن الغضب والمكر ، والفرح والحزن ، والرضا والسخط ، والدهاء والسذاجة ، واليقظة والغفلة ، والتصميم والتسيُّب ، والخوف والوجل ، والشجاعة والإقدام . . تُعرفُ من نظرةٍ لعينَي صاحبها ، وقد اختصروا ما ذُكر وما لم يُذكر بقولهم : (العينان مرآة القلب) .

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (٥/ ٧٤) ، علماً أن الإمام الغزالي قائل بالتفريق .

(٢) رواه أبو داود (٢٠٤١) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) في (أ ، ج ، هـ ، و) : (الأمالي) بدل (كتاب الأمالي) .

سلَّمَ عليه مُسلِّمٌ ، أو جاءه زائرٌ . . ردَّ الله تعالىٰ إليه روحَهُ كما كان يردُّها في حياته .

وفيما ذكرناهُ من الروح الباصر كشفٌ لحقيقة ذلك ؛ فإنه ما من نفس إلا ويجمعُ الله فيه الروحَ الباصر إلى القلب مؤدِّياً إليه ما يراهُ في عالم الحسِّ[1] ، ثم يردُّ للعين من غير شعورٍ بنُقْلة ولا كيفيّةٍ ولا زمان .

فلو حلف حالفٌ أن روحَهُ الباصر ما زايلَ قلبه . . لم يحنث ، ولو حلف حالفٌ أنه ما زايل عينَهُ . . لم يحنث كذلك ؛ لا يلزمُ من ردِّ روحه إليه لردِّ سلام المُسَلِّم عليه ألا تكونَ باقيةً عند ربِّها ، ولا من بقائِها عنده ألا تكونَ مردودةً إلىٰ نبيِّهِ صلى الله عليه وسلم ، والله أعلم .

تبصرة

[في أن النزول لا ينحصر بعالم الحسِّ]

إذا سمعتَ : « ينزلُ ربُّنا كلَّ ليلةٍ . . . » الحديثَ[2] . . فلا يكن حظُّكَ منه النزولَ في عوالم الحسِّ ، واعتبرْ بذلك نزولَهُ سبحانه بروح ذكرِهِ إلىٰ سماءِ قلبِكَ ، ألا تراهُ كيف نبَّهَكَ علىٰ هـٰذا بقوله تعالىٰ : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَـٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا * رَّسُولٗا . . . ﴾ الآيةَ [الطلاق : ١٠ـ ١١] ، ثم قال بعدَهُ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ . . . ﴾ الآيةَ [الطلاق : ١٢] ، فبدأَ بآيةِ نزول ذكرِهِ قبل آيةِ

(١) في (أ ، هـ ، ز) : (ينجمع) ، وفي (ج) : (تتجمع) ، وفي (و) : (يتجمع) بدل (يجمع الله) .

(٢) رواه البخاري (١١٤٥) ، ومسلم (٧٥٨) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو بتمام لفظه : « ينزل ربُّنا تبارك وتعالىٰ كلَّ ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقىٰ ثلثُ الليل الآخرِ ، يقول : من يدعوني فأستجيبَ له ؟ من يسألُني فأعطيَهُ ؟ من يستغفرُني فأغفرَ له ؟ » .

نزول أمره ؛ تنبيهاً على الاهتمام بالأول ، وقال في الأول : ﴿ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [الطلاق : ١١] ، وقال في الثاني : ﴿ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الطلاق : ١٢][1] ، وذلك يقتضي أن نزولَهُ بروح الذكرِ يثمرُ النور والهدايةَ ، وأن الله يتولّىٰ إخراجَ العبد من ظلمتِهِ ، ولا يكلُهُ إلىٰ نفسه ، وأن نزولَهُ بروح الأمر يثمرُ الدَّلالةَ والتكليفَ بالعلم ، وكم بين من دُلَّ وبين من نُوِّرَ ، وبين من حُمِلَ وأُخرجَ وبين من حُمِّلَ وكُلِّفَ ؟!

تنبيه

[على اختصاص النزول بالثلث الأخير من الليل]

اختصاصُ نزولِهِ بالثلث الآخرِ من الليل له ظاهرٌ وباطن :

فأما الظاهرُ : فلأن الليلَ محلُّ النوم ، وتوفِّي الأنفس ، وترقِّيها إلى الله تعالىٰ ، وقد ذكرَ أربابُ العلم الطبيعيِّ أن النومَ المعتبرَ في صلاحِ البدن ثمانِ ساعات[2] ؛ وهي ثلثا الليل[3] ، فاقتضَتِ حكمة الربوبيّة تخصيصَ النزول

---

(١) والمراد من الآيات قوله سبحانه : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۞ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا ﴾ .

(٢) قال حجة الإسلام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٢/ ٤٩٣) : (والحدُّ في النوم : أن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة ، فالاعتدال في نومه ثماني ساعات في الليل والنهار جميعاً ، فإن نام هـٰذا القدر بالليل فلا معنىً للنوم بالنهار ، وإن نقص منه مقداراً استوفاه بالنهار ، فحسْبُ ابنِ آدم إن عاش ستينَ سنةً أن ينقصَ من عمره عشرون سنة ؛ ومهما نام ثماني ساعات وهو الثلث فقد نقصَ من عمره الثلث) .

(٣) يعني : في بلاد الاستواء وما يقرب منها ؛ حيث الليل يساوي النهار ؛ كلٌّ منهما اثنا عشرة ساعة .

بالثلث الآخر ؛ رحمةً للعباد ، وتلطُّفاً بهم ؛ حتى يكونوا قد تيقَّظوا ، وتأهَّبوا لقبول ما ينزلُ على قلوبهم من بركات نزولِهِ سبحانه .

وأما الباطنُ : فلأن الحجاب هو ليلُ القلوب ، وهو ناشئٌ عن نوم القلب ، وفي الحديث : « يعقدُ الشيطانُ على قافيةِ رأسِ أحدِكم إذا نامَ ثلاثَ عُقدٍ ، فإذا قامَ فذكرَ اللهَ انحلَّتْ عقدةٌ ، فإذا توضَّأَ انحلَّتْ عقدتانِ ، فإذا صلَّى انحلَّتْ ثلاثُ عقدٍ »[1] .

فالقلبُ إذا نامَ فليلُهُ عُقَدُ الشيطان[2] ، فإذا تيقَّظ فذكرَ الله تعالى انحلَّتْ عقدة ، فذهب ثلثُ ليله ، فإذا توضَّأَ انحلَّتْ عقدتانِ ، فذهبَ ثلثا ليلِهِ ، ووضوءُهُ استغفارُهُ[3] ؛ قال تعالى في قصَّةِ نوح عليه السلام : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ [نوح : ١٠-١١] ، فإذا صلَّى انحلَّتْ عقدةٌ ؛ وهي العقدةُ الثالثة ، وهي ثلث ليلِ الحجاب الآخِرِ ، وهنالك يكون نزولُ روحِ الذكر عليه ، فتنحلُّ عقدُهُ كلُّها ، ويكشفُ له عن حقيقةِ أن الصلاةَ صلةٌ بين العبد وربِّهِ ، **وعلامةُ الوصلة** : كشفُ ليل الحجاب ، والتلذُّذُ بروحِ الخطاب .

* * *

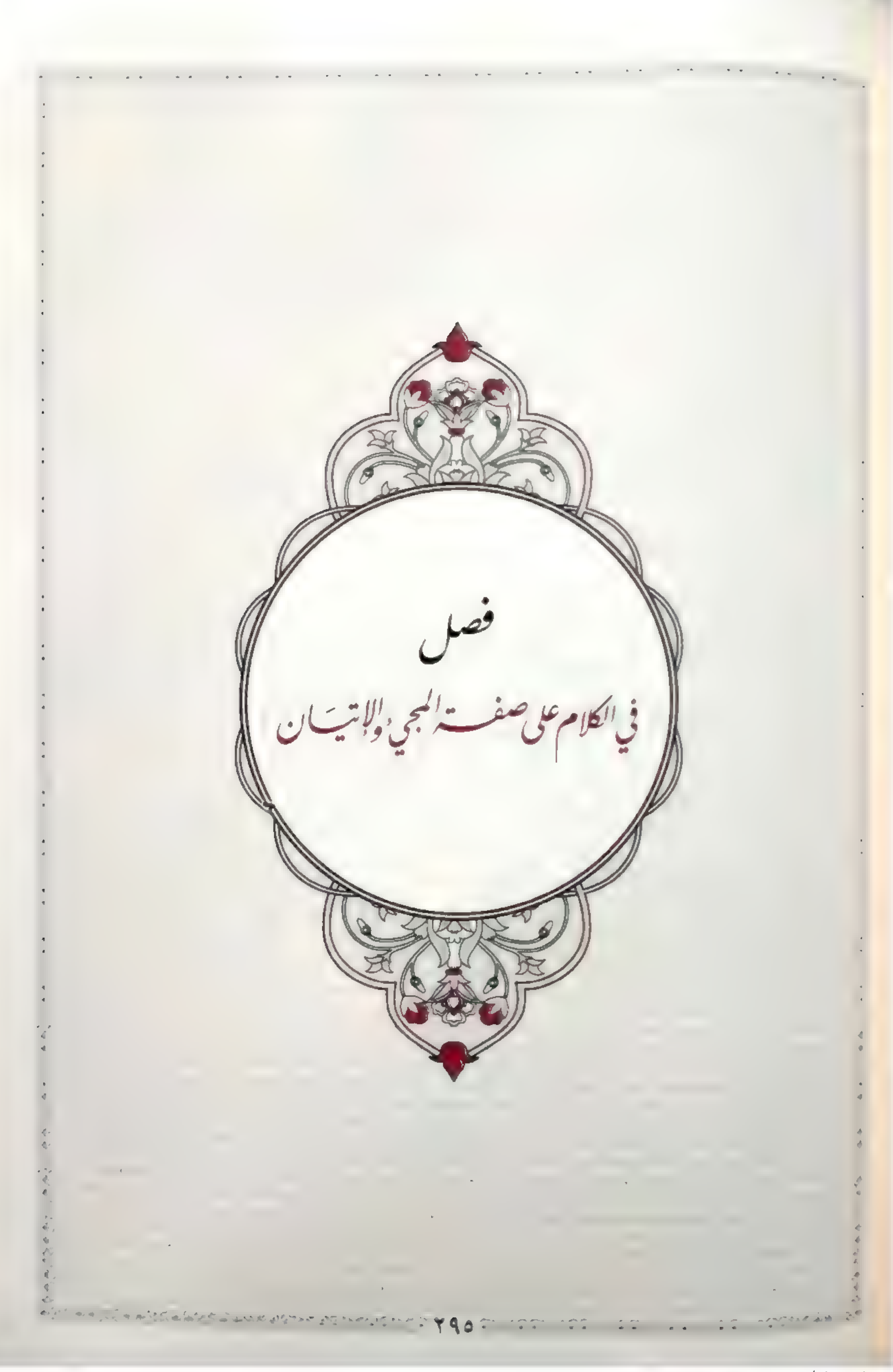
---

(١) رواه البخاري (١١٤٢) ، ومسلم (٧٧٦) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وتمامه : « فأصبحَ نشيطاً طيِّبَ النفس ، وإلا أصبحَ خبيثَ النفس كسلانَ » .

(٢) ولمَّا كان الشيطان لا تسلُّط له على الأنبياء قال عليه الصلاة والسلام : « تنامُ عيني ولا ينامُ قلبي » ، رواه البخاري (٣٥٦٩) ، ومسلم (٧٣٨) من حديث سيدتنا عائشة رضي الله عنها .

(٣) الجملة جواب عن سؤال مقدَّر ؛ تقديره : ربط الأثرُ حلَّ العقدة الثانية بالوضوء ، فما وضوء القلب ؟





فصل

في الكلام على صفة المجيء والإتيان



فصل
في الكلام على صفة المجيء والإتيان

ومن المتشابه : صفةُ مجيئِهِ سبحانه وتعالىٰ وإتيانِهِ :

في نحو قولِهِ تعالىٰ : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ . . . ﴾ الآيةَ [الأنعام : ١٥٨] ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر : ٢٢] .

وهو أيضاً يرجعُ إلىٰ معنى المحكم ولا ينافيه ؛ لأن من المحكم قولَهُ تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ﴾ [النبأ : ٣٨] ، فإذا رددتَ إليه قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر : ٢٢] . . علمتَ أنه يتجلّىٰ بوحدانيته في الروح ، وأن المجيءَ للروح ، ونسبهُ إليه تعالىٰ كما نسبَ نزول الروح إليه ؛ لتجلِّيهِ فيه .

وتحقيقُهُ : أن الروحَ هو من عالم الأمر ، وقال تعالىٰ : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، وقد تقدَّمَ ذكرُ إتيانه في ظُلَلٍ من الغمام ، فلا حاجةَ لإعادته[١] .

تحقيق
[في الكلام على الروح الجامع]

اعلمْ : أن الروح الأصليَّ الجامع لحقائق الصفاتِ في عالم الأمر في قوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ ﴾ . . هو روح القدس المحمَّدي ؛ استواءً ونزولاً ،

---

(١) انظر (ص ١٤٤) .

ومجيئاً وإتياناً ، وهو صاحبُ التجلّي بنور التوحيد في مظاهر السماوات والأرض ، وفي ظُلَلِ غمام الشرائع وصور الأعمال كما تقدم[١] ، وهو صاحبُ الرَّحِمِ الإيمانية ، والنَّسَبِ المحمَّدي ؛ بدليل قولهِ تعالىٰ للرحم : « ألا ترضين أنَّ مَنْ وصلَكِ وصلتُهُ ، ومَنْ قطعَكِ بتتُّهُ ؟! »[٢] ، مع قولهِ صلى الله عليه وسلم : « كلُّ نَسَبٍ يومَ القيامةِ منقطعٌ إلا نسبي »[٣] .

وإلىٰ رحمِهِ المتعلِّقة بالعرش تعرجُ الأرواحُ كلَّ ليلة عند النوم ؛ ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا . . . ﴾ الآيةَ [الزمر : ٤٢] ، فما كان منها طاهراً سجدَ تحت العرش كما في الحديث[٤] ، فسجودُهُ وصلتُهُ لها[٥] ، وبسيماها يُعرفُ ؛

---

(١) انظر (ص ١٦١) ، قال إمامنا الغزالي في « مشكاة الأنوار » (ص ٦٦) : (وربما سمَّينا الروحَ البشريَّ الذي هو مجرىٰ لوائح القدس : الواديَ المقدَّس ، ثم هـٰذه الحظيرة فيها حظائرُ بعضُها أشدُّ إمعاناً في معاني القدس ، ولـٰكن لفظ الحظيرة يحيط بجميع طبقاتها ، فلا تظُنَّنَّ أن هـٰذه الألفاظَ طاماتٌ غير معقولة عند أرباب البصائر) .

(٢) رواه البخاري (٥٩٨٨) ، ومسلم (٢٥٥٤) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وفي (ب) : (أن أصِلَ من وصلك ، وأقطعَ من قطعك) بدل (أن من وصلك وصلته ، ومن قطعك بتتُّهُ) .

(٣) رواه البزار في « مسنده » (٢٧٤) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه ، قال الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (٦/ ١٤٤) عند الحديث عن المقام المحمود : (وروي لنا : أنه يُنشِئ ناشئةً من العرش كهيئة الشجنة ، فيحملُهُ من الموقف إلى العرش) .

(٤) روى الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (١٣١٢) عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : (تعرجُ الأرواح إلى الله في منامها ؛ فما كان طاهراً سجد تحت العرش ، وما لم يكن طاهراً سجد قاصياً) يعني : عن العرش .

وروىٰ أيضاً (١٣١٣) عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه قال : (إن النفوس تعرجُ إلى الله في منامها ؛ فما كان طاهراً سجد تحت العرش ، وما كان غيرَ طاهر تباعد في سجوده ، وما كان جُنُباً لم يؤذن لها) .

(٥) الضمير في (لها) راجع إلى الرحم المتعلقة بالعرش .

بدليل قولِهِ تعالىٰ في المتَّصلين بالمعيَّة المحمَّدية : ﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الفتح : ٢٩] ، وما كان منها غير طاهرٍ ؛ بسبب التمريج الذي حصل له من الشيطان المخلوق من مارجٍ من نار . . لم يؤذنْ له ؛ لأنه قطعها باتّباع العدوّ ، فيسجدُ قاصياً ، فبُعْدُهُ عنها ثمرةُ قطعِهِ لها ، وعدمُ الإذن له هو قطعُ الله تعالىٰ له[1] .

تنبيه

[علىٰ أن أسماء العباد الحَسَنة راجعة إلىٰ أسمائه تعالى الحُسْنىٰ]

هـٰذه هي الرَّحِمُ التي اشتُقَّ لها اسمٌ من اسمه (الرحمـٰن) صاحبِ الأسماء الحسنىٰ في قوله تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء : ١١٠] ، فما مِنْ اسم حَسَنٍ للعبد إلا وهو مشتقٌّ من أسمائه تعالى الحسنىٰ ، وإليها مرجعُهُ ، واشتقاقُهُ منها علىٰ حسَبِ صلتِهِ للرحم الإيمانيّةِ المحمَّدية .

وعلامةُ صلتِهِ لها : صدقُ مودَّته لإخوانِهِ المؤمنين ، وقوَّةُ أُلْفتِهِ بهم وانجماعُهُ عليهم .

وعلامةُ قطعِهِ لها : مفارقتُهُ لهم ، وإليه أشارَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ . . . ﴾ الآيةَ [آل عمران : ١٠٥] ، مع قولِهِ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ [الأنعام : ١٥٩] .

فانظر سببَ التفرُّقِ كيف قطعَ عنهم نسبةَ المحمَّديِّ بقوله تعالىٰ : ﴿ لَّسْتَ مِنْهُمْ ﴾ ، ونبَّهَ علىٰ أنهم قد قُطعوا عن الله تعالىٰ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ

---

(١) في (ب) زيادة : (والله أعلم) ، وهـٰذا موطن من مواطن أسرار اتّباع السنة التي أُشير إليها تعليقاً (ص ٢٣٢) .

﴿ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ ﴾ [آل عمران : ٢٨]، فتحقَّقَ بذلك قولُهُ : « مَنْ قطعَكِ بَتَتُّهُ »[1] .

إشارة

[إلىٰ صلة الرحم للروح المحمَّدية]

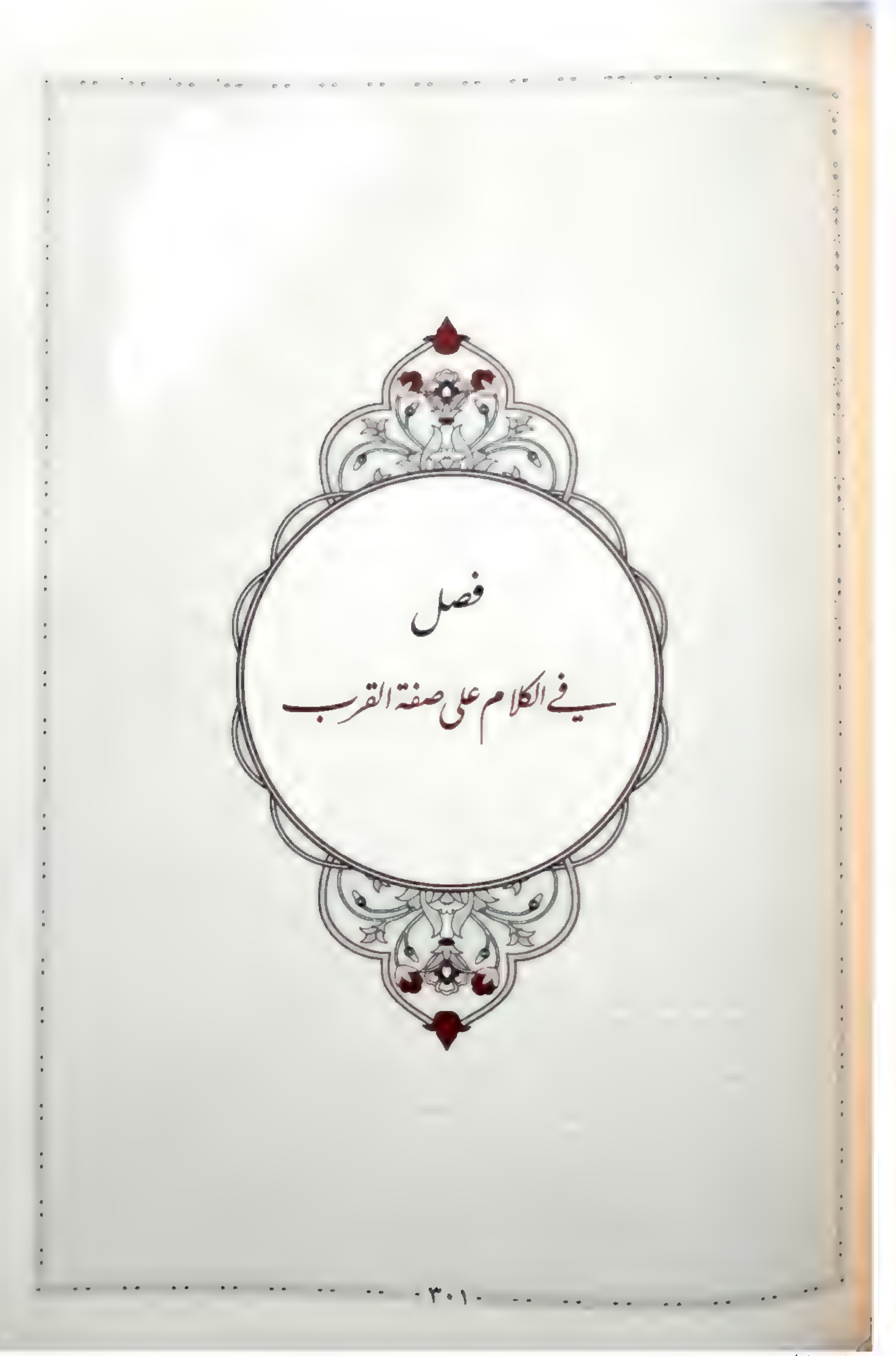
وصلةُ الرحم للروح المحمدية ، والرحم الإيمانية ، وسجودُها علىٰ حسَبِ ما فُطرَتْ عليه في أصل نشأتها . . من سرِّ (لا إلـهَ إلا اللهُ) ، ورثْتُهُ من نورِها .

وإرثُها من نورها : **تارةً يكون بسبب** ؛ وهو القيامُ بحقِّها ، **وتارةً يكون بنَسَبٍ** ؛ وهو امتزاجُها بالروح الإيمانيَّةِ في قوله تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

فمن قامَ بحقِّ (لا إلـهَ إلا اللهُ) فهو أحقُّ بها ، وهو صاحبُ سبب ، ومن أُيِّدَ بروحِها فهو صاحبُ نسب ، وقد ذكرَهما الله تعالىٰ في قوله : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ [الفتح : ٢٦] .

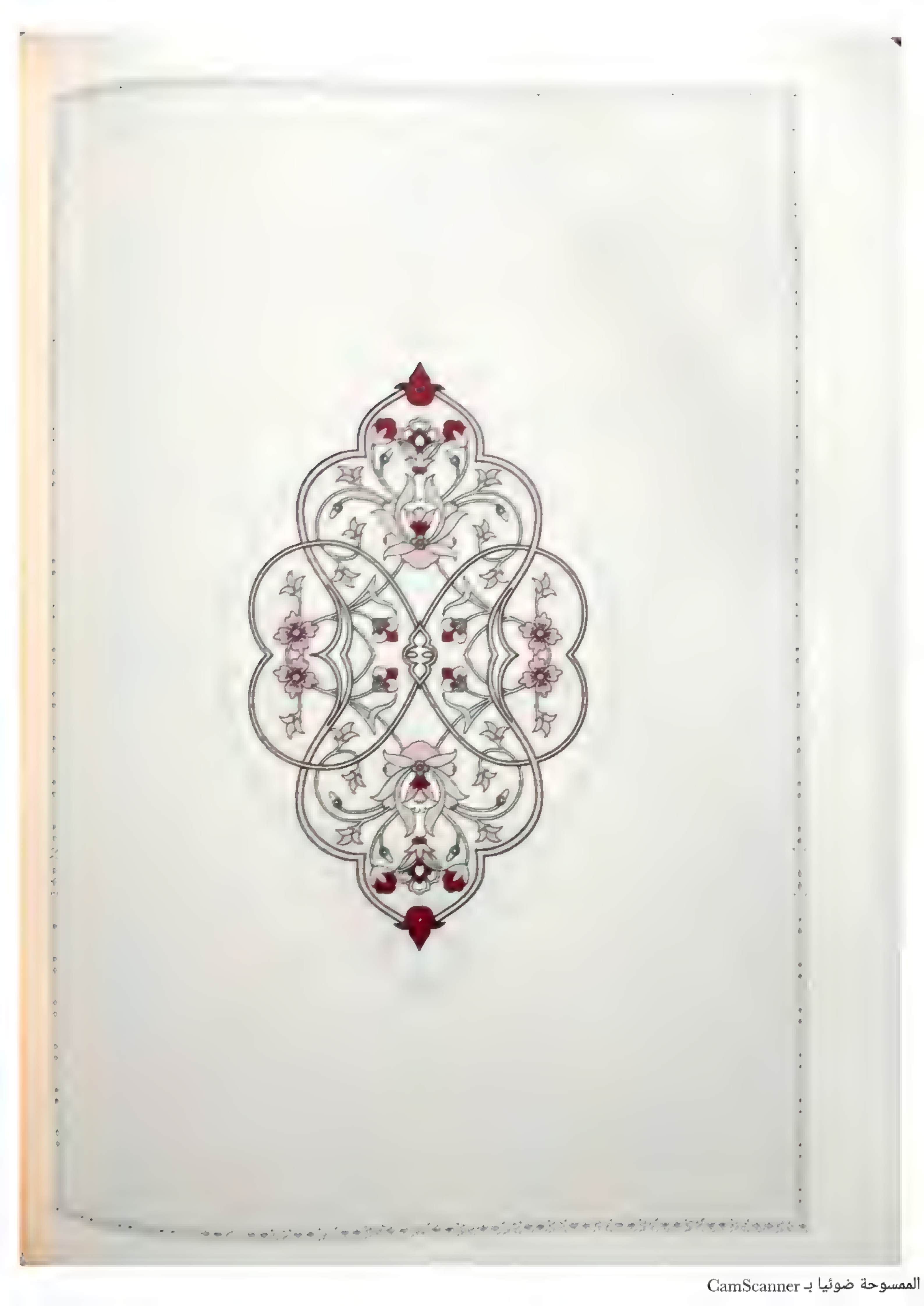
* * *

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٩٨) .



فصل

في الكلام على صفة القرب



فصل

في الكلام على صفة القرب

ومنها : صفةُ القرب :

في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ١٨٦] ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦] ونحوه ، يفهمُكَ أن قولَهُ تعالىٰ : « وإنْ تقرَّبَ إليَّ شبراً تقرَّبْتُ منهُ ذراعاً »[1] . . ليس علىٰ ظاهره ؛ لأن قربَهُ سبحانه من العبد لا يُزالُ[2] ، ولا تتفاوتُ درجاتُهُ ، وإنَّما البعدُ صفةُ العبد ، **وبعدُهُ من الله تعالىٰ** : هو حجابُهُ عن شهود قُربِ الله تعالىٰ منه ، وشهودُ قربِهِ علىٰ حسَبِ نور الإيمانِ والاستجابة ، **وبهذا يكون تقرُّبُ العبد إلىٰ ربِّهِ عز وجل** .

وأما تقرُّبُ الربِّ سبحانه إلى العبد : فإرشادُهُ لنوره بنورِهِ .

وقد جمعَ اللهُ تعالىٰ ذلك كلَّهُ في قوله تعالىٰ : ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

---

(١) انظر تخريجه (ص ١٣٦ـ١٣٧) .

(٢) كذا ضُبطت الكلمة في (ج) أي : لا يرتفع ، فهو باقٍ ؛ إذ صفاته تعالىٰ كذاته ، لا يجوز فيها التغيُّر أو التبدُّل ، وكذا معيَّته تعالىٰ لا تغيُّر فيها ولا تبدُّلَ أيضاً ، وإنما تختلف بالنسبة للعبد ؛ فهو تعالىٰ مع المؤمنين بالنصرة والتأييد ، والأُنس والطمأنينة ، ومع غيرهم بالإبعاد والخذلان والاستدراج ، والقلق والإيحاش ، أو أن تقرأ (لا يَزال) بمعنى البقاء ، ولكن هذا مخالف لاصطلاحهم في مقابلة البقاء بما لا يزال .



[على حقيقة القُرب منه سبحانه]

قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ [الواقعة : ٨٥] يدلُّ علىٰ أن قربَهُ سبحانه من عبده قربٌ حقيقيٌّ ، مع تعاليهِ عن المكان ؛ لأنه لو كان القُربُ يُرادُ به قربُهُ بعلمه أو قدرتِهِ وصفاته.. لقالَ : (ولـٰكن لا تعلمون) ، ونحوه .

فقولُهُ : ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ يدلُّ على القرب الحقيقيِّ المدرَكِ بالبصر[1] ،

---

(١) في (ب) : (بالبصيرة) ، وسقط منها قوله : (يدلُّ علىٰ أن قربَهُ سبحانه من عبده قربٌ حقيقيٌّ...) ، ولعله تصرُّف في العبارة ؛ لخوف التصريح بالإبصار ، مع أنه تقدم للمصنف أن إبصار العبد لربه لا يكون لحقيقة ذاته ، وأن رؤيته تعالىٰ مخلوقة في قلب العبد ؛ إذ هي راجعة إلىٰ معنى الإدراك ، ومن أدرك هـٰذا لم يتهيَّب أن يقول : هو معنا سبحانه بذاته ؛ لأن هـٰذه المعية لا توصف بقرب مكان أصلاً .

فإن قيل : القرب هنا بالعلم ، وهو كالمعية ، وقد أجمعوا علىٰ أنها بالعلم .

فالجواب : المأثور في تفسير الأقربية أنها علىٰ حالها بما يليق بجلال الله تعالىٰ ، فاقطعْ أنها ليست قرب مكان ، وبعد ذلك تألَّهْ في فهمها ؛ قال الإمام السيوطي في « الدر المنثور » (٧/ ٥٩٢) : (أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « نزلَ اللهُ من ابن آدم أرفعَ المنازل ؛ هو أقربُ إليه من حبل الوريد ، وهو يحولُ بين المرء وقلبه ، وهو آخذ بناصية كل دابة ، وهو معهم أينما كانوا » .

وأخرج ابن المنذر عن جويبر قال : سألت الضحاك عن قوله : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ ، قال : ليس شيءٌ أقربَ إلى ابن آدم من حبل الوريد ، والله أقربُ إليه منه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ قال : عرقُ العنق .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ قال : نيطُ القلب وما حمل) .

ثم ما صحَّ نقلاً وعن العلماء أنه تعالىٰ معنا بعلمه لا شك فيه ، وقد قرَّر المناطقة : أن القضية=

والبصرُ لا تعلُّقَ لإدراكه بالصفات المعنوية[1] ، وإنَّما يتعلَّق بالحقائق المرئية[2] .

وكذا قولهُ تعالىٰ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦] يدلُّ علىٰ ذلك ؛ لأن (أفعل من) يدلُّ على الاشتراكِ في القُرب[3] ، ولا اشتراكَ بين قُربِ الصفات وقُربِ حبل الوريد[4] .

وعلىٰ هٰذا : فالقُرب قربٌ حقيقيٌّ روحاني ؛ بدليلِ قوله تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ أي : من الذين يُكشفُ لهم عن نعيم القربِ الربَّاني . . ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة : ٨٩] ، فجعلَ قُربَهم وجدانَهم للروح والريحان ، وقد قُرِئَ بضمِّ الراء وفتحها[5] ، وقد تقدَّمَ في حقيقة الرؤيةِ

= الجزئية الصادقة لا تكذِّبُ القضية الكلية لها ؛ فكونه معنا بعلمه لا ينفي معيَّته بإرادته وسمعه وبصره وقدرته ، كما لا ينفي معيَّته بذاته الجليلة علىٰ ما يليق به تعالىٰ ، وبه تعلم قصور نظر من يقول : علمه تعالىٰ صفة كاشفة يُتصور فيها أنها متعلقة ولا تنفك عنه ! خلافاً لغيرها من صفات الذات ، وهٰذا جهل بالله تعالىٰ ، وهٰذا القائل شبَّه من حيث ظنَّ أنه نزَّه .

وحاذر أن تظنَّ أن علمه سبحانه ناشئ عن سمعه للأشياء وبصره لها ، وأن علمه بها تولَّد عنهما ، بل علمُهُ وسمعه وبصره وإحاطته كلُّ ذلك في رتبة واحدة تليق بالقديم .

(١) **والصفة المعنوية هنا** : الأقربية ؛ وهي كونه تعالىٰ قريباً ، علىٰ اعتبار القُرب صفة معنىً .

(٢) اتفق المتكلمون القائلون بإثبات الصفات علىٰ أن تعلُّق السمع والبصر هو بالموجود المسموع المبصَر ، ولا يجوز تعلُّقها بالمعدوم ولا المعتبر ؛ إذ لا وجود حقيقيَّ لهما ، ويزيد المعتبر على المعدوم بنسبة الثبوت فقط .

(٣) **يعني** : في أصل استعماله الحقيقي ، ولٰكن يستعمل مجازاً من غير اشتراط الاشتراك ؛ كقولك : العسل أحلىٰ من الخل ، والصيف أحرُّ من الشتاء ، وانظر « همع الهوامع » (٣/ ٩٨) .

(٤) قال العلامة إبراهيم الشاذلي في تعليل ذلك ؛ كما نقل عنه الإمام الشعراني في « اليواقيت والجواهر » (١/ ٦١) : (لأن قرب الصفات معنويٌّ ، وقرب حبل الوريد حسي ؛ ففي نسبة أقربيَّتِهِ تعالىٰ إلى الإنسان من حبل الوريد الذي هو حقيقيٌّ . . دليلٌ علىٰ أن قربه تعالىٰ حقيقيٌّ ؛ أي : بالذات اللازم لها الصفات) .

(٥) قال العلامة أبو حيان في « البحر المحيط » (٨/ ٢١٥) : (وقرأ الجمهور : فرَوْحٌ ، بفتح=

ما يكشفُ عن معنى الإدراك للقُرب بالبصر[1] .

تبصرة

[في حكمة مجيء الأقربية من حبل الوريد في هـٰذه الآية الكريمة]

حكمةُ مجيءِ التفضيلِ لقُربه على حبل الوريد : أنه تقدَّمَ ذكرُ الوساوس ، ووساوسُ النفس من إلقاء الشيطان ، ومجراهُ الأوردةُ ؛ بدليل قولِهِ صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الشيطان يجري من ابنِ آدمَ مجرى الدمِ »[2] ، ومجرى الدم : هو عروقُ الأوردة ونحوها ، فنبَّه بقوله سبحانه : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦] على أنه سبحانه أقربُ إليه من مجرى الوساوس[3] .

= الراء ، وعائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، ونوح القارئ ، والضحاك ، والأشهب ، وشعيب بن الحبحاب ، وسليمان التيمي ، والربيع بن خثيم ، ومحمد بن علي ، وأبو عمران الجوني ، والكلبي ، وفياض ، وعبيد ، وعبد الوارث عن أبي عمرو ، ويعقوب بن صيان ، وزيد ، ورويس عنه : بضمها .

قال الحسن : الروح : الرحمة ؛ لأنها كالحياة للمرحوم ، وقال أيضاً : روحه تخرج في ريحان ، وقيل : الروح : البقاء ؛ أي : فهـٰذان له معاً ؛ وهو الخلود مع الرزق) .

(١) انظر (ص ١٦٥) .

(٢) رواه البخاري (٢٠٣٨) ، ومسلم (٢١٧٥) من حديث سيدتنا صفية بنت حيي رضي الله عنها .

(٣) واستكمالاً للبحث : أضع بين يديك هـٰذه القطعة النفيسة ، والتي تضمَّنت النقلَ عن الإمام المصنف واستُشهد فيها بقوله ؛ وهي مناظرةٌ وقعت سنة (٩٠٥ هـ) بين الشيخ بدر الدين العلائي الحنفي وبين الشيخ إبراهيم المواهبي الشاذلي ، وألَّف فيها رسالة نقلها الإمام الشعراني في كتابه « اليواقيت والجواهر » (١ / ٦٠) ، قال : (وأنا أذكر لك عيونَها لتحيط بها علماً ، فأقول وبالله التوفيق ، ومن خطه نقلتُ :

قال الشيخ بدر الدين العلائي الحنفي والشيخ زكريا والشيخ برهان الدين بن أبي شريف وجماعة : الله تعالى معنا بأسمائه وصفاته ، لا بذاته ، فقال الشيخ إبراهيم : بل هو معنا بذاته وبصفاته . =

فقالوا له : ما الدليلُ على ذلك ؟ فقال : قولُهُ تعالى : ﴿ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ ، ومعلومٌ أن « الله » علمٌ على الذات ، فيجبُ اعتقادُ المعية الذاتية ذوقاً وعقلاً ؛ لثبوتها نقلاً وعقلاً .

فقالوا له : أوضح لنا ذلك ، فقال : **حقيقةُ المعية** : مصاحبةُ شيء لآخر ، سواءٌ أكانا واجبين ؛ كذات الله تعالى مع صفاته ، أو جائزين ؛ كالإنسان مع مثله ، أو واجباً وجائزاً ؛ وهو معيةُ الله تعالى لخلقه بذاته وصفاته المفهومة من قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ ، ومن نحو ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ؛ وذلك لما قدمناه من أن مدلول الاسم الكريم « الله » إنما هو الذات اللازمة لها الصفات المتعيِّنة ؛ لتعلقها بجميع الممكنات ، **وليست كمعيةِ متحيزين** ؛ لعدم مماثلتِهِ سبحانه وتعالى لخلقه الموصوفين بالجسمية المفتقرة للوازمها الضرورية ؛ كالحلول في الجهة الأينيَّة الزمانية والمكانية ، **فتعالت معيتُهُ تبارك وتعالى عن الشبيه والنظير** ؛ لكماله تعالى وارتفاعه عن صفات خلقه ، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

قال : وبهذا الذي قررناه انتفى القول بلزوم الحلول في حيِّز الكائنات على القول بمعية الذات، مع أنه لا يلزمُ من معية الصفات دون الذات انفكاكُ الصفات عن الذات ولا بُعدها وتحيزها وسائر لوازمها ، **وحينئذٍ فيلزم من معية الصفات لشيء معيةُ الذات له وعكسه** ؛ لتلازمهما مع تعاليهما عن المكان ولوازم الإمكان ؛ لأنه تعالى مباينٌ لصفات خلقه تبايناً مطلقاً .

وقد قال العلامة القونوي في « شرح عقائد النسفي » : إن قول المعتزلة وجمهور النجارية : **إن الحق تعالى بكلِّ مكان بعلمه وقدرته وتدبيره دون ذاته . . باطلٌ** ؛ لأنه لا يلزمُ من علم مكاناً أن يكون في ذلك المكان بالعلم فقط إلا إن كانت صفاته تنفكُّ عن ذاته كما هو صفة علم الخلق ، لا علم الحق . انتهى .

على أنه يلزمُ من القول بأن الله تعالى معنا بالعلم فقط دون الذات . . **استقلالُ الصفات بأنفسها دون الذات** ، وذلك غير معقول .

فقالوا له : فهل وافقك أحدٌ غيرُ القونوي في ذلك ؟ فقال : نعم ، ذكر **شيخُ الإسلام ابن اللبَّان** رحمه الله في قوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ أن في هذه الآية دليلاً على أن أقربيَّتَهُ تعالى من عبده قربٌ حقيقي . . .) ، ونقل كلام المصنف هنا .

ثم قال الإمام الشعراني في تمام نقل هذه المناظرة : (قال الشيخ إبراهيم : وبما قررناه لكم انتفى أن يكون المراد قربه تعالى منَّا بصفاته دون ذاته ، وأن الحقَّ الصريح هو قربه منَّا بالذات أيضاً ؛ إذ الصفات لا تعقلُ مجرَّدة عن الذات المتعالي كما مرَّ .

فقال له العلائيُّ : فما قولكم في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ ؟ فإنه يوهمُ أن الله =

وقد قلتُ في ذلك : [من المتقارب]

تشاغل عنّا بوسواسه وكان قديماً لنا يطلبُ
محبٌّ تناسىٰ عهود الهوىٰ وأصبح في غيرنا يرغبُ
ونحنُ نراهُ ونملي لهُ ويحسبُنا أنَّنا غيَّبُ
ونحنُ إلىٰ العبدِ مِنْ نفسهِ ووسواسِ شيطانهِ أقربُ

* * *

= تعالىٰ في مكان .

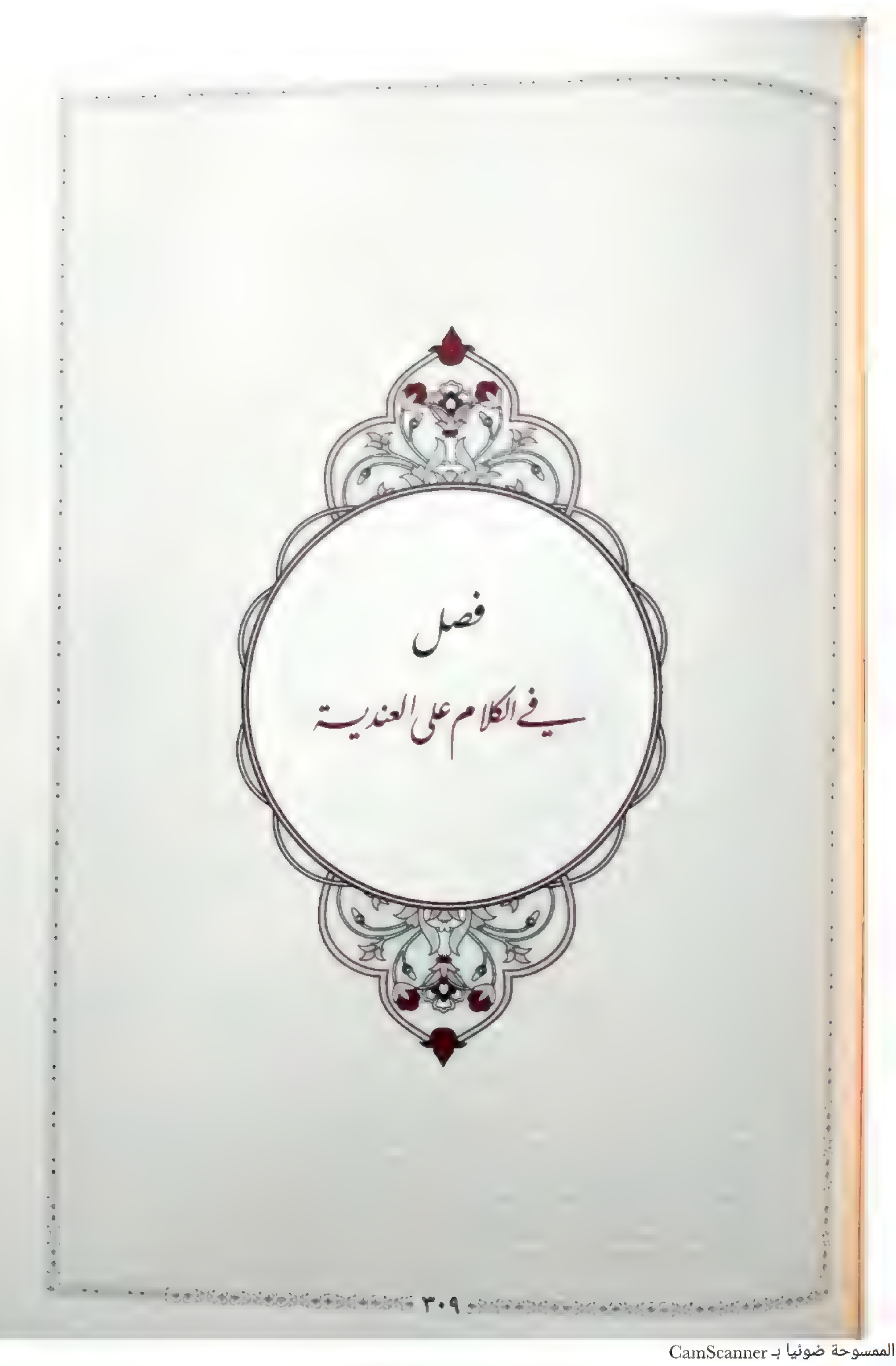
فقال الشيخ إبراهيم : لا يلزمُ من ذلك في حقِّهِ تعالى المكان ؛ لأن « أين » في الآية إنما أطلقَتْ لإفادة معيَّةِ الله تعالىٰ للمخاطبين في الأين اللازمِ لهم ، لا له تعالىٰ كما قدمنا ، فهو مع صاحبِ كلِّ أينٍ بلا أين . انتهىٰ .

فدخل عليهم الشيخ العارف بالله تعالىٰ سيدي محمد المغربي الشاذلي شيخ الجلال السيوطي ، فقال : ما جمعَكم هنا ؟ فذكروا له المسألة ، فقال : تريدون علمَ هـٰذا الأمر ذوقاً أو سماعاً ؟ فقالوا : سماعاً .

فقال : معيتهُ تعالىٰ أزليّةٌ ليس لها ابتداء ، وكانت الأشياء كلُّها ثابتةً في علمه أزلاً تعيُّناً بلا بداية ؛ لأنها متعلقة به تعلُّقاً يستحيلُ عليه العدم ؛ **لاستحالة وجود علمه الواجب وجودُهُ بغير معلوم ، واستحالة طريان تعلُّقِهِ بها** ؛ لما يلزمُ عليه من حدوث علمه تعالىٰ بعد أن لم يكن ، وكما أن معيَّتَهُ تعالىٰ أزلية كذلك هي أبديَّةٌ ليس لها انتهاء ، فهو تعالىٰ معها بعد حدوثها من العدم عيناً علىٰ وَفْقِ ما في العلم تعيُّناً ، وهـٰكذا يكون الحال أينما كانت في عوالم بساطتها وتركيبها ، وإضافتها وتجريدها ، من الأزل إلىٰ ما لا نهاية له .

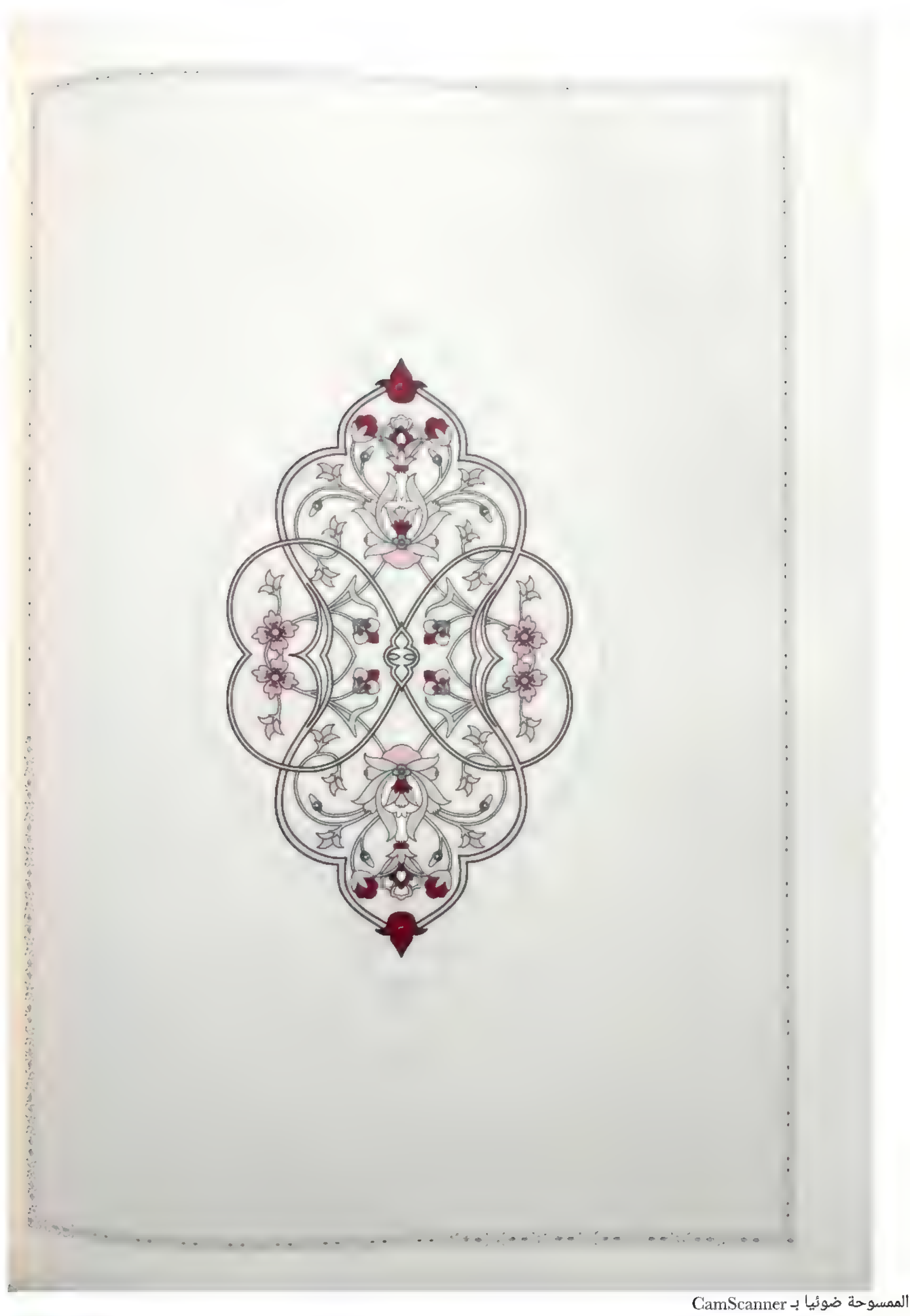
فأدهشَ الحاضرين بما قاله ، فقال لهم : اعتقدوا ما قرَّرتُهُ لكم في المعية واعتمدوه ، ودعوا ما ينافيه . . تكونوا منزِّهينَ لمولاكم حقَّ التنزيه ، ومخلِّصينَ لعقولكم من شبهات التشبيه ، وإن أراد أحدُكم أن يعرف هـٰذه المسألة ذوقاً . . فليسلِّمْ قيادَهُ لي أخرجْهُ عن وظائفه وثيابه وماله وأولاده وأدخلْهُ الخلوة وأمنعْهُ النوم وأكل الشهوات ، وأنا أضمنُ له وصولَهُ إلىٰ علم هـٰذه المسألة ذوقاً وكشفاً .

قال الشيخ إبراهيم : فما تجرَّأ أحدٌ أن يدخل معه في ذلك العهد ، ثم قام الشيخ زكريا والشيخ برهان الدين والجماعة فقبَّلوا يدَهُ وانصرفوا . انتهىٰ) .



فصل

في الكلام على العندية



فصل

في الكلام على العندية

ومن المتشابه : لفظةُ (عند) :

وقد جاءَتْ منسوبةً إلى الله تعالىٰ في الكتاب والسنة كثيراً ، **وهي في اللغة** تستعملُ لإفادة الملكِ ، ولإفادة الحضور[1] ، ولا اشتباهَ في استعمالها لله تعالىٰ لإفادة الملك ، وإنما الاشتباهُ في إفادتِها للحضور .

واعلمْ : أن حضرةَ الله سبحانه ليست حضرةً مكانية ؛ لتعاليه عن المكانِ كما تقدم ، بل حضرتُهُ وراء حضراتِ السماوات والأرضِ ؛ قال تعالىٰ : ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ ﴾ [الأنبياء : ١٩] ، فعطفَ ﴿ مَنْ عِندَهُۥ ﴾ علىٰ ﴿ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، والعطفُ يقتضي المغايرة ، وهي مع كونها وراء السماوات والأرض فهي مهيمنةٌ علىٰ حضراتِ السماوات والأرض ، ومحيطةٌ بها ، **فما من حضرة مكانيّةٍ إلا وحضرةُ الله محيطةٌ بها** ؛ ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام : ٣] .

وإذا تقرَّرَ ذلك : فعنديتُهُ سبحانه متعدِّدةٌ بحسَبِ الإضافة ، متَّحدةٌ بحسب الحقيقة .

---

(١) ثم الحضورُ : إما أن يكون حسيّاً ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ ﴾ [النمل : ٤٠] ، أو معنوياً ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [النمل : ٤٠] ، كذا قال العلامة المحقق ابن هشام في « مغني اللبيب » (١/ ٢١٣) ، وزاد أنها تكون للقرب ؛ ومثَّل له بقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ [صٓ : ٤٧] .

فأما تعدُّدُها : فلأنه ما من اسمٍ من أسمائه تعالىٰ إلا وله في تجلّيه عنديّةٌ تخصُّهُ ، يشهدُها أربابُ القلوب الذاكرةِ له ، وفيها مجالسُ المناجاة لهم ، ويخلعُ عليهم فيها خلعَ الرضا منه[١] ، ومن سلطانِ ذلك الاسمِ تخرج الربوبيّة لأهله ، وتواقيعُ الولاية بذكره[٢] .

وأما اتحادُها بحسب الحقيقة : فـ (عندُ اللهِ)[٣] هو موطنُ استقرارِ عباده ، قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ [الأنعام : ٩٨] .

ومعنىٰ ذلك : أن عنديّةَ الله ما زالَتْ ولا تزالُ محيطةً بعبده[٤] ؛ كما قال تعالىٰ : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦] ، ولـٰكنْ رُبَّ عبدٍ دام له هـٰذا الشهود ، فهو لا يزالُ مستقرّاً عند الله في محياهُ ومماتِهِ ، ومبدئِهِ وعَوْده ، وإن اختلفَتْ عليه الأحوال ، ومعنىٰ (تَوَفّي هـٰذا العبد بالموت إلى الله) : ترقّيه

---

(١) في (هـ ، و) : (عنه) بدل (منه) .

(٢) في (هـ ، و) : (تخرج الربوبية لأهله فيها ، وتواقيع الولاية بذكرها) ، وفي (ج) : (تُخرِجُ الربوبيةُ لأهله تواقيعَ الولاية بذكره) .

وقوله : (تخرج الربوبية لأهله) يعني : أولياءه سبحانه ، وفيه إشارة لمقام التصريف بإذن الله علىٰ حسب تجلّي كلِّ اسمٍ ، وهو من مظاهر خلافة الإنسان الكامل في الأرض .

وقوله : (تواقيع الولاية) عبارة تفهم بقول الأستاذ أبي علي الدقاق رحمه الله تعالىٰ : (الذكرُ منشور الولاية ؛ فمن وُفِّقَ للذكر فقد أُعطِيَ المنشور ، ومن سُلِبَ الذكرَ فقد عُزِلَ) ، رواه القشيري في « رسالته » (ص ٤٩٩) .

(٣) قوله : (عندُ الله) المرادُ حكاية لفظة (عند) ، وهي هنا في موضع الرفع على الابتداء ؛ قال العلامة المحقق ابن هشام في « مغني اللبيب » (١/ ٢١٣) : (كلُّ كلمة ذُكرت مراداً بها لفظُها . فسائغٌ أن تتصرَّفَ تصرُّفَ الأسماء ، وأن تعربَ ويُحكىٰ أصلُها) .

(٤) فهـٰذه العنديات الراجعة لتجلّيات الأسماء الحسنىٰ أزلاً وأبداً . . موجودة ، وعند العارفِ البصير مشهودة ، فالغفلةُ عن شهودها لا تدلُّ علىٰ عدمها ، ولا يخفاك أن شهودَها راجعٌ لصفة القدرة ؛ إذ هو معنىً يخلقُهُ الله تعالىٰ في قلب العبد يدرك به تلك الحقيقةَ السرمديّة .

في مراتبِ التجلِّي ، وحقائقِ الكشف ، وتعاقبِ مظاهر العنديَّة على روحِهِ مظهراً بعد مظهر .

ورُبَّ عبدٍ شهدَ في البدء عنديَّةَ الله له ، ثم حُجبَ عنه مكانُهُ من الله بسبب كثرةِ تخليطه وظلمةِ اكتسابه ، فذلك مستودعٌ استودعَهُ اللهُ لرُسُلِ أنبيائه وملائكتِهِ الموكَّلين به[1] ، فلا يزالُ محجوباً إلى الأجلِ المقدَّر له ، فيُردُّ إلى الله ؛ كما قيل[2] : [من الطويل]

وما المالُ والأهلونَ إلا وديعةٌ ولا بدَّ يوماً أن تُردَّ الودائعُ

وترجعُ حقيقة الردِّ إلى كشف الحجاب ، وتجلِّي إحاطةِ الله به ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق : ١٦-٢٢] ، هنالك يشهدُ أنه لا مستقرَّ إلا عندَ الله .

وقد نظمتُ في ذلك : [من البسيط]

قد كنتُ أحسبُ أنِّي عن فِنائِكُمُ ناءٍ وأنَّ بأرضِ اللهِ مُتَّسَعا

ولم يزلْ لطفُكم بي تحتَ حُجْبِكُمُ حتى رفعتُم حجابَ العزِّ فارتفعا

فلاحَ أنِّي مقيمٌ ما برحتُ على الـ أبوابِ عبداً وأنَّ اللطفَ ما انقطعا

---

(١) في (أ ، ب ، هـ) : (أسبابه) بدل (أنبيائه) قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٨] .

(٢) البيت لسيدنا لبيد العامري رضي الله عنه في رثاء أخيه أربد ، ومطلع قصيدة البيت :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الجبال بعدنا والمصانع

وانظر « ديوانه » بشرح الطوسي (ص ١١٠) .

إشارة

[إلىٰ أهل العندية وأهل الحجب]

قوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام : ٦١] تنبيهٌ على العباد المخصوصينَ من أهل العنديّةِ والاستقرار .

وقوله : ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ [الأنعام : ٦١] خطابٌ للمحجوبينَ من المستودعين للحفظة[1] ؛ ولهـٰذا قال : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ * ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأنعام : ٦١ـ٦٢] .

ثم حذَّرَ المكذِّبَ بذلك بقوله تعالىٰ : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ * لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ [الأنعام : ٦٦ـ٦٧] ، نبَّهَ علىٰ أن مستقرَّ الأنباء عنده ، وأنه يظهرُ بزوال حجابِ البصيرة . . بقوله : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ * وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ . . . ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ * يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة : ٧ـ١٣] .

تنبيه

[علىٰ ما ينفد وما يبقىٰ]

قوله تعالىٰ : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل : ٩٦] **له ظاهرٌ وحقيقة** :

فظاهرُهُ : أن ما عندَ العبدِ من المال والولد وزينة الدنيا . . بصدد الزوالِ والنفاد ، وما عندَ اللهِ من الجزاء علىٰ تقديرِ إنفاقه . . باقٍ لا ينفدُ .

وأما حقيقتُهُ : فكلُّ شيء له نسبتانِ : **نسبةٌ عارضة** ؛ وهي نسبتُهُ للعبيد ، **ونسبةٌ أصليّة** ؛ وهي نسبتُهُ لله ؛ **فمعنىٰ كونِهِ عند العبد** : هو نسبتُهُ إليه ؛ وهو فانٍ زائل ، **ومعنىٰ كونِهِ عند الله** : هو نسبتُهُ إليه ؛ وهو باقٍ لا يزولُ .

---

(١) في (أ ، ج) : (حجاب) بدل (خطاب) .

والمرادُ : أن العبد يخرجُ الأشياء كلّها عنه ، ويمحو نسبتها إليه بنسبتها إلى الله وقد بقيَتْ له ، ومتىٰ نسبها إلىٰ نفسه وقدرته نفدت ؛ قال تعالىٰ : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا . . .﴾ الآيةَ [يونس : ٢٤] ، فعند ظنِّ القدرة عليها أُخذتْ وزالت .

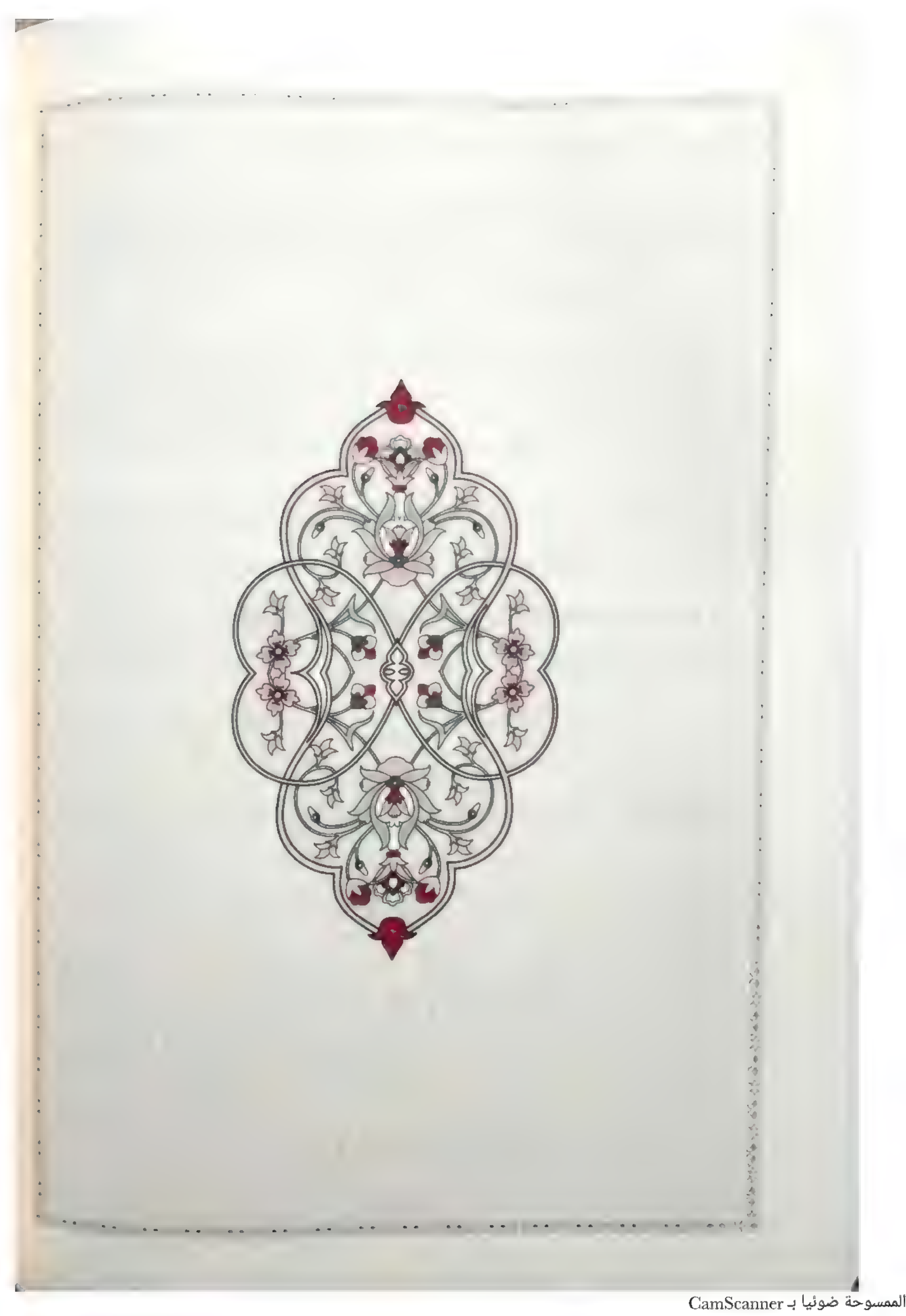
وقال تعالىٰ في ضدِّهِ : ﴿فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ﴾ [القصص : ٧] ، فأرشدَها عند الخوف أن تلقيَهُ من يدها ، وتخرجَهُ عن حفظِها ؛ فإن الله حينئذٍ يتولاه بحفظِهِ ، ويقيهِ برحمته .

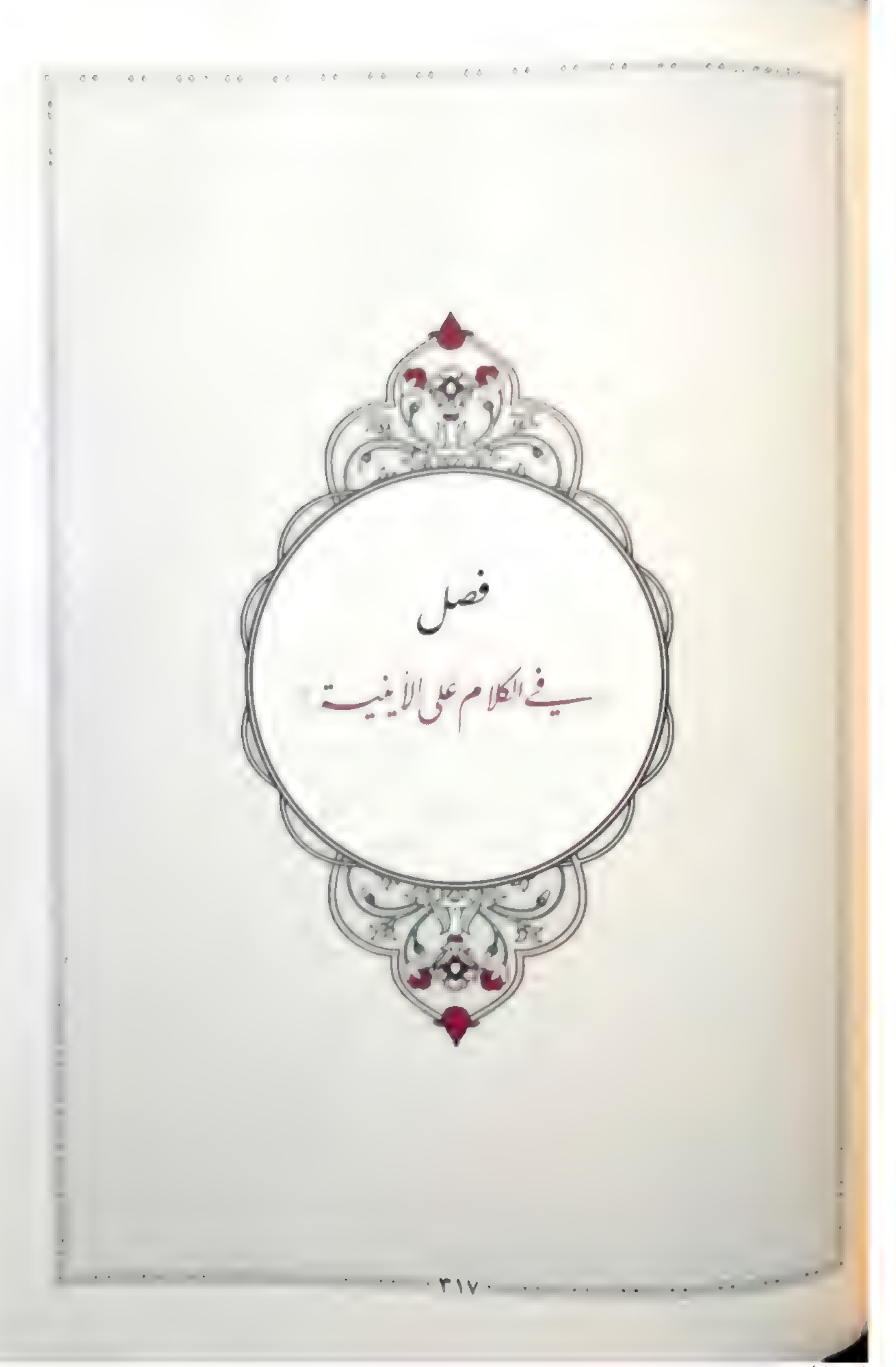
تربية
[للعبد بحسن إقباله علىٰ مولاه تعالىٰ]

قولُهُ تعالىٰ : ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ [العنكبوت : ١٧] فيه تلطُّفٌ بعبده في استدعائه للإقبال عليه بالإعراضِ عن سواه ؛ لأن العبدَ مجبولٌ على الافتقار للرزق ، وإيثارِهِ بالطلب ، فلو جُعلَ الرزقُ لا يُكتسبُ إلا بالإقبال على الأسباب . . شغلَهُ ذلك عن الله ، فكان من لُطفِ الله بعبده أنه جعلَ ابتغاءَ الرزق بالإقبال عليه ؛ إقبالاً يشهدُ به العبدُ قُربَ الله منه ، وإحاطتَهُ به ، فيكون العبدُ بذلك في حضرتِهِ وعنده .

ومتىٰ بلغ العبدُ إلىٰ هـٰذا جاءَهُ الرزق من حيث لا يحتسبُ ، ومن حيث لا يكتسبُ ؛ ألا ترىٰ مريمَ لمَّا تركت الأسبابَ ، وأقبلَتْ على الله بلزوم المحراب . . كان زكريا عليه السلام كلَّما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً ، قال : يا مريم أنىٰ لك هـٰذا ؟! قالت : هو من عند الله ؛ إن الله يرزقُ من يشاء بغير حساب .

* * *




فصل
في الكلام على الآنية



فصل

في الكلام على الأينية

ومن المتشابه : لفظةُ (أينَ) :

وهي كلمةٌ يستفهمُ بها عن الحيِّز المكاني ، وقد وردَ بها الكتابُ في قوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد : ٤] ، والسنةُ في قوله صلى الله عليه وسلم للجارية : « أينَ اللهُ ؟ » ، فقالت : في السماء[1] ، ومن المعلوم أن التحيُّزَ على الله محال .

فأمّا (أين) في الآية : فإنها أُطلقَتْ لإفادة معيَّة الله للمخاطبينَ في الأين اللازمِ لهم ، لا له سبحانه ، فهو مع صاحبِ كلِّ أينٍ بلا أينٍ .

وأما إطلاقه في حديث الجارية : فقد تقدم الكلام عليه في فصل (الكلام على الجهة) و(الإسراء)[2] .

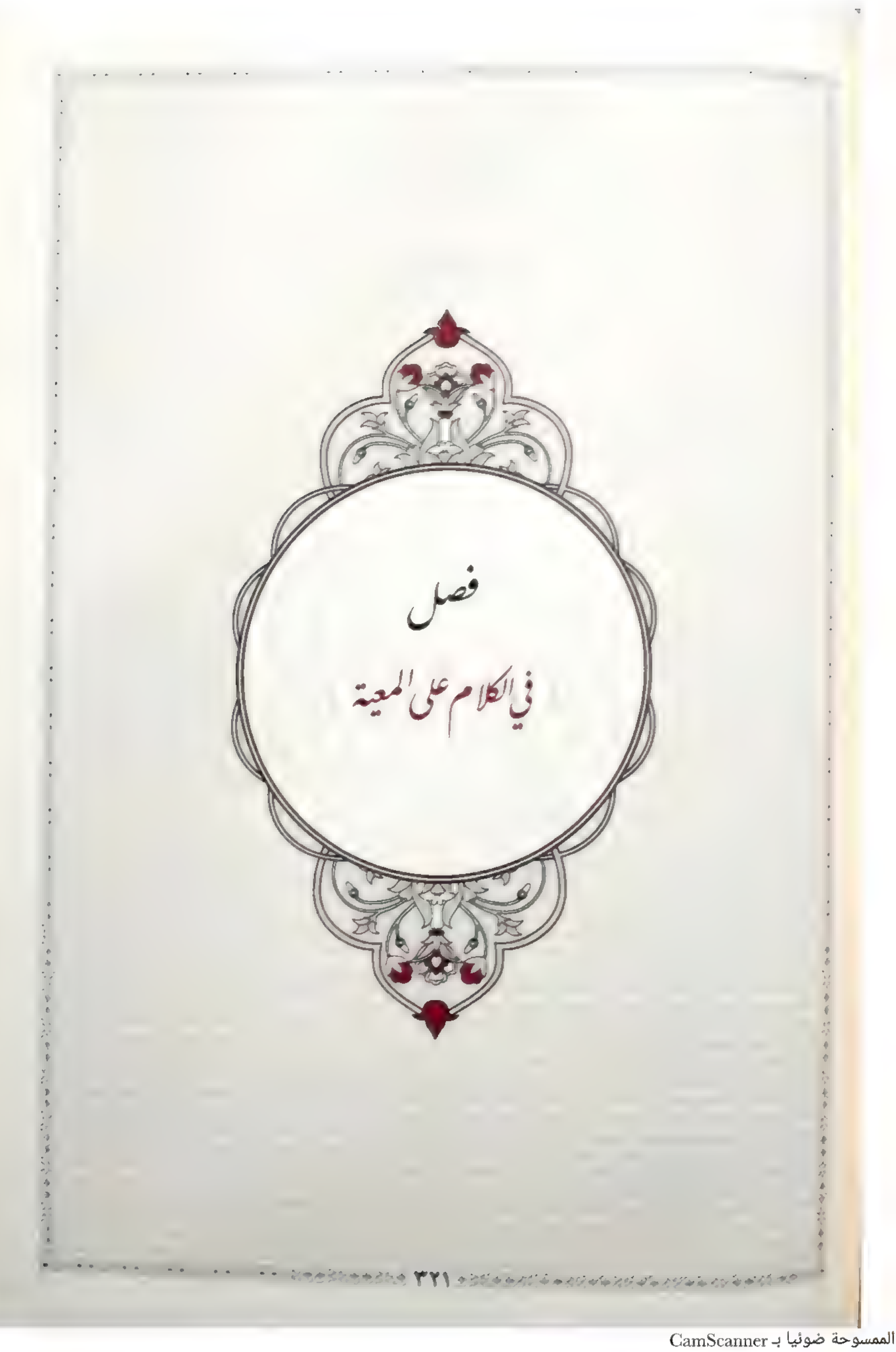
* * *

---

(١) تقدم تخريجه والحديث عنه (ص ٢٧٩) .

(٢) انظر (ص ٢٥١) و(ص ٢٧٧) .




فصل
في الكلام على المعية



فصل

في الكلام على المعية

في الحديث : « كانَ اللهُ ولم يكنْ معَهُ شيءٌ غيرُهُ ، وكانَ عرشُهُ على الماءِ ، وكتبَ في الذكرِ كلَّ شيءٍ » ، أخرجه البخاري من حديث عمران بن حصين[1] .

وقد كثُرَ ذكرُ معيَّة الله لعبده في مواضعَ من الكتابِ والسنَّة ، **وهو من المتشابهِ ، ورجوعُهُ إلى المحكم بأن تعلمَ** : بأن اللهَ سبحانه في الموجودات قد ضربَ لنفسه مثلاً بالواحدِ في الأعداد ، ومن المعلوم أن ما من عددٍ إلا وهو في الحقيقة يرجعُ إلى الواحد ؛ فالاثنانِ من شهود الواحد مرَّة ومرَّة ، والثلاثةُ من شهود الواحد مرَّة ومرَّة ومرَّة ، وهكذا جميعُ الأعداد ، فلو طلبْتَ لعدد من الأعداد حقيقةً مجرَّدة عن الواحد . . لم تجدْها .

وبسبب ذلك كانت الأعدادُ لا تتناهىٰ ؛ لأن تجلِّيات الواحد لا تتناهىٰ ، ولولا معيَّةُ الواحد للواحد ما ثبتَتِ الشفعيَّةُ ، ولولا إحاطتُهُ بالشفعيَّة ما ثبتَتِ الوتريَّةُ ؛ ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ ﴾ [الحديد : ٣] ، ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ . . . ﴾ الآيةَ [المجادلة : ٧] .

فمَنْ أشهدَهُ الله آخريَّةَ معيَّتِهِ له **فقد شَفَعَهُ** ، فإن أشهدَهُ مع ذلك أوَّليَّةَ معيَّتِهِ

---

[1] صحيح البخاري (٣١٩١) .

فقد أوترَهُ ؛ « إنَّ اللهَ وترٌ يحبُّ الوتر »[1] ، ومن أشهده سر وحدانيته في نفسه ورجوع الأعداد إليه فقد وحَّدَهُ .

مـا وحَّـدَ الـواحـدَ إلا الـواحـدُ . . . .[2]

وبهـٰذا يُفهمُ السرُّ في قولِهِم : (مَنْ عرفَ نفسَهُ فقد عرفَ ربَّهُ)[3] .

---

(١) رواه البخاري (٦٤١٠) ، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) صدر بيت من أبيات ثلاثة ختم بها أبو إسماعيل الهروي الأنصاري كتابه « منازل السائرين » ، وهي بتمامها : (من السريع)

مـا وحَّـدَ الـواحـدَ مـن واحـدٍ … إذْ كـل مـن وحـده جـاحـدُ
تـوحيـدُ مـن ينطـقُ عـن نعتـه … عـاريـة أبطلهـا الـواحـدُ
تـوحيـدُهُ إيَّـاه تـوحيـده … ونعـتُ مـن ينعتـه لاحـدُ

وهـٰذا التوحيد هو المنزل الأخير الذي يصل إليه السالك ، وانظر « تاريخ ابن خلدون » (١/ ٦٢١) .

وأبو إسماعيل الهروي قال فيه الإمام ابنُ السبكي في « طبقات الشافعية الكبرىٰ » (٤/ ٢٧٢) : (كان رجلاً كثير العبادة ، محدِّثاً ، إلا أنه يتظاهر بالتجسيم والتشبيه ، وينال من أهل السنة ، وقد بالغ في كتابه « ذم الكلام » حتىٰ ذكر أن ذبائحَ الأشعرية لا تحلُّ ، وكنت أرى الشيخ الإمام ـ يعني والده التقي السبكي ـ يضربُ علىٰ مواضع من كتاب « ذم الكلام » ، وينهىٰ عن النظر فيه) .

وقال أيضاً (٤/ ٢٧٣) : (وأنا لا أعتقد فيه أنه يعتقد الاتحاد ، وإنما أعتقد أنه يعتقد التشبيهَ ، وأنه ينال من الأشاعرة ؛ وأن ذلك بجهله بعلم الكلام وبعقيدة الأشعرية ؛ فقد رأيت أقواماً أُتُوا من ذلك) .

وعامةُ الصوفية إن وقفوا علىٰ عبارة منثورة ، أو نظم رائق ، فوجدوا فيها مطيَّةً تحمل عنهم مواجيدهم ، وتحكي لواعج أفئدتهم . . فلا يبالون بقائلها ؛ فلا تعجب أن تراهم يترنَّمون ببيت لأحد المجَّان ، ويناجون مولاهم بآخر لأحد المتغزِّلين ، ويعرِّفون عن حقائق وجدوها بمثل هـٰذه الأبيات التي أمامك ؛ فالعبرة بما قيل ، لا بمن قال ، وقد قيل : (من الوافر)

كـلانـا نـاظـرٌ قمـراً ولـٰكـن … رأيـتُ بعينهـا ورأَتْ بعينـي

وقيل : (من المنسرح)

نحـن بمـا عنـدنـا وأنـتَ بمـا … عنـدَكَ راضٍ والـرأيُ مختلـفُ

(٣) كلمة ذائعة للعارف بالله القدوة يحيى بن معاذ الرازي ، وانظر « القول الأشبه في حديث : =



[علىٰ معية الله بصفاته العلية]

اعلمْ : أنه تعالىٰ كما أنه واحدٌ في ذاته فهو واحدٌ في صفاته ، وذاتُهُ سبحانه منزَّهةٌ عن المعيَّة ، فليسَتْ مع شيء ، ولا معها شيءٌ ، ولٰكنه مع كلِّ شيءٍ بصفاتِهِ(١) .

وكذلك العبد الذي وحَّدَهُ ، وأشهدَهُ سرَّ الوحدانية في ذاته بتجلِّي ذاته المقدَّسة علىٰ سرِّهِ .

فقد ظهرَ لك بهٰذا : أن المعيَّةَ من أحكام الصفات ، فرُبَّ عبدٍ يشهِدُهُ الله معيَّتَهُ له بصفة وصفتينِ ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه : ٤٦] ، ورُبَّ عبد يشهدُهُ الله معيَّتَهُ له مطلقاً ؛ كقوله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضي الله عنه : « لا تحزنْ ؛ إنَّ اللهَ معَنا »(٢) .

ومعيَّةُ الصفات عامَّةٌ لجميع المخلوقات ، وإنما اختصاصُ الأنبياء والأولياء بالشهود ، والتأييد بالروح منها ؛ كما حُكِيَ عن أحد أصحابِ الشيخ أبي النجاء رحمه الله أنه كانَ يقول(٣) : (قال لي ، وقلتُ له) ، ويكثرُ من

= من عرف نفسه فقد عرف ربه » للإمام السيوطي ضمن « الحاوي للفتاوي » (٢/ ٢٨٨) .

(١) الظاهر من هٰذا السياق : التفريق بين الأقربية والمعية ؛ فقد ذكر (ص ٣٠٤) أن أقربيته سبحانه بذاته ، وهنا خصَّ المعية بالصفات .

(٢) رواه البخاري (٣٦١٥) ، ومسلم (٢٠٠٩) من حديث سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنهما ، وقد قال سبحانه : ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة : ٤٠] .

(٣) الشيخ أبو النجاء الأندلسي ؛ قال المؤرخ ابن العديم في « بغية الطلب » (١٠/ ٤٦٣٩) : =

ذلك ، فقيل له : من هو الذي تقولُ له ويقولُ لك ؟ قال : اللهُ ، قالوا : اللهُ يقول لك ؟! قال : نعم ، ويأخذ بيدي كلَّما قمتُ وقعدتُ ، قالوا : أهـٰذا لك خاصَّة ؟ قال : لا ، بل للناس عامَّة ، ولـٰكنِّي أشهدُ ، وهم لا يشهدون[1] .

تبصرة

[في أن شهود المعيَّة قد يتعدَّىٰ لغير صاحبها وقد لا يتعدَّىٰ]

رُبَّ عبدٍ يُخصُّ بشهود المعيَّة ، ولا يتعدَّىٰ ذلك منه إلىٰ أتباعه ؛ كقول موسىٰ عليه السلام لبني إسرائيل : ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : ٦٢] ، ورُبَّ عبد يتعدَّىٰ منه نورُهُ إلىٰ أتباعه ، فيشهدون به سرَّ المعية ؛ كقول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] ولم يقل : معي ؛ لأنه أَمَدَّ أبا بكر بنورِهِ ، فشهد سرَّ المعية .

ومن هنا يُفهمُ سرُّ إنزال السكينة علىٰ قلب أبي بكرٍ رضي الله عنه ، وإلا لم يثبتْ تحت أعباءِ هـٰذا التجلِّي والشهود ، وأين معيَّةُ الربوبيَّة في قصَّة موسىٰ عليه السلام من معيَّة الإلـٰهية في قصَّة نبيِّنا صلى الله عليه وسلم ؟!

تربية

[للعبد في تحصيل شهود نور المعيَّة]

إذا أردتَ شهودَ نورِ المعيَّة فعليك بتزكيةِ النفس ؛ قال تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس : ٩][2] .

= (من المشايخ الزهاد الصالحين الأولياء المعروفين) ، وذكر أنه اجتمع في الموصل بالعارف بالله قضيب البان ، وأنه توفي سنة (٥٧٠هـ) .

(١) وعلىٰ هـٰذه الطريقة بنى العارف بالله محمدُ بن عبد الجبار النِّفَّري كتابه « المواقف والمخاطبات » .

(٢) الآية صغرىٰ قياس محذوف ، وكبراه : كلُّ مفلح فهو شاهدٌ للمعية .

وفي حديثٍ رواه أبو عبد الله الترمذيُّ الحكيم في « نوادر الأصول » بسنده إلىٰ عبدِ الله بن معاوية الغاضريِّ رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثٌ مَنْ فعلَهُنَّ طَعِمَ طعمَ الإيمانِ : مَنْ عبدَ اللهَ وحدَهُ بأنَّهُ لا إلـٰهَ إلا هو ، وأعطىٰ زكاةَ مالِهِ طيِّبةً بها نفسُهُ ، ولم يعطِ الهَرِمةَ ولا الدرنةَ ولا المريضةَ ، ولـٰكنْ مِنْ أوسطِ أموالِكم ، وزكَّىٰ نفسَهُ » ، فقال رجل : وما تزكيةُ نفسه ؟ قال : « أنْ يعلمَ أنَّ اللهَ معَهُ حيثُ كانَ »[1] .

فانظرْ كيف نبَّهَ علىٰ أن تزكية النفس تثمِّرُ العلم بمعيَّة الله .

فإن قلتَ : بماذا تكونُ تزكيةُ النفس ؟

قلتُ : بلزومِ الذكر ؛ قال اللهُ تعالىٰ في الحديث : « أنا عندَ ظنِّ عبدي بي ، وأنا معَهُ حينَ يذكرُني »[2] ، فعلىٰ حسَبِ الذكر يكون تطهيرُ النفس وتزكيتُها .

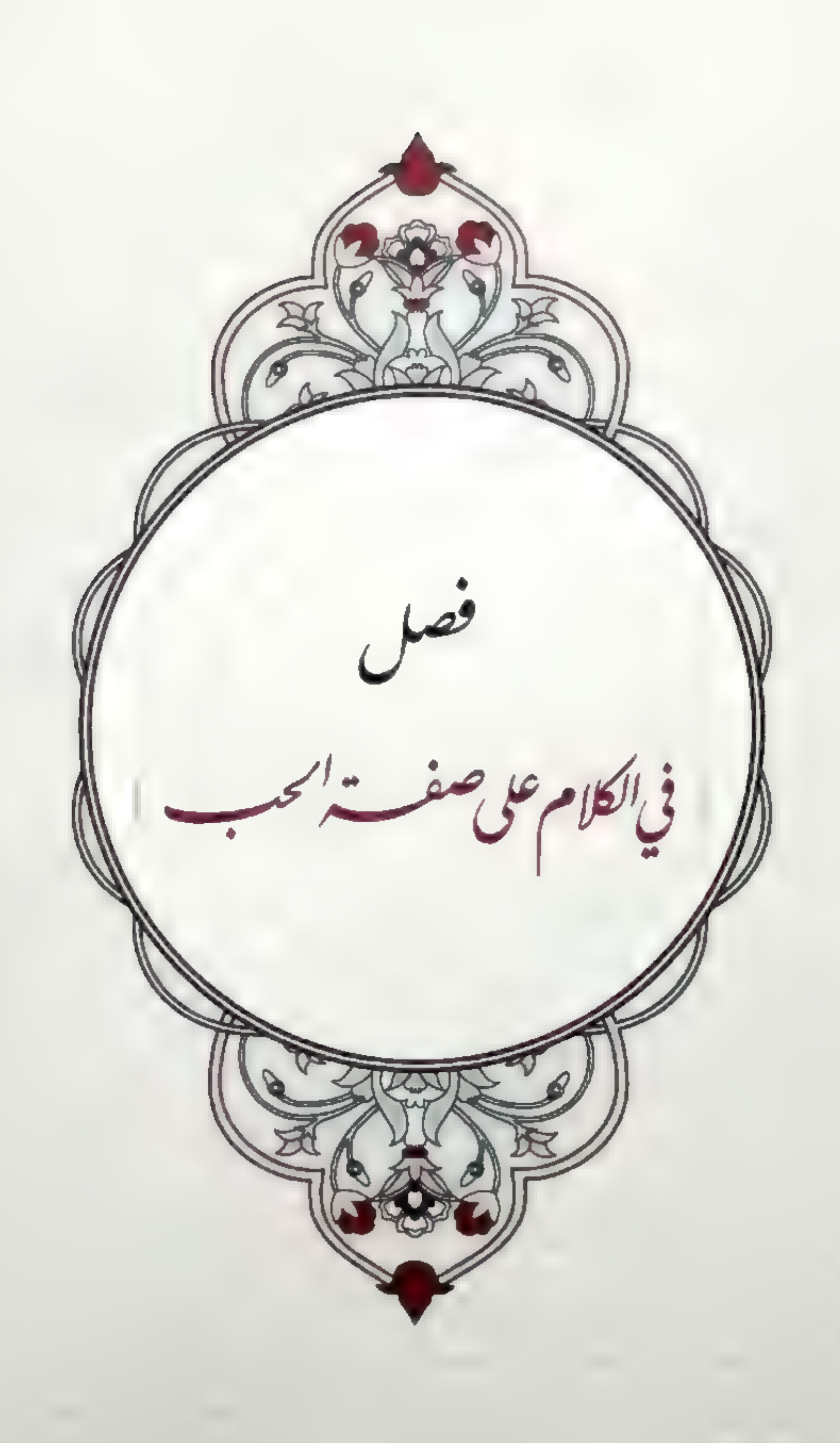
وقال تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۞ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلىٰ : ١٤ـ١٥] ، **وعلىٰ حسَبِ التزكية يكون شهودُ المعيَّة** .

* * *

(١) « نوادر الأصول » (٩٨٤) ، ورواه أيضاً أبو داود (١٥٨٢) ، وقد قال الحكيم الترمذي عقب روايته له : (فهـٰذه الثلاث كلُّها زكاة ؛ **فزكاة القلب** : لا إلـٰه إلا الله ، **وزكاة المال** : إخراج ما افترض الله فيه منه ، **وزكاة النفس** : علمها بأن الله معه حيثما كان ، فإذا علم ذلك استوت سريرته وعلانيته ، فهابَهُ في كلِّ مكان ووقت ، واستحيا اللهُ منه في كلِّ مكان ووقت) .

(٢) رواه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .





فصل

في الكلام على صفة الحب



فصل

في الكلام على صفة الحب

ومن الصفات المتشابهة : صفةُ الحبِّ :

وقد نُسبَتْ في الكتاب إلى الله تعالىٰ بقوله : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤] ، وبقوله : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] ، وكذا في السنة في أحاديثَ[1] .

وقد اختلفَ علماءُ الظاهر والباطن في تأويله ، **والمعوَّل عليه عندهم** : أنه يرجعُ إلى التعبير بالشيء عن ثمراته ، **فحبُّ العبد لله** : محبةُ إدامتِهِ لذكره ،

---

(١) **فمن ذلك** : ما رواه البخاري (٣٠٠٩) ، ومسلم (٢٤٠٦) من حديث سيدنا سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه مرفوعاً في حق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « لأعطين الرايةَ غداً رجلاً يُفتح علىٰ يديه ، يحبُّ اللهَ ورسوله ، ويحبُّهُ اللهُ ورسوله » .
وما رواه البخاري (٦٥٠٧) ، ومسلم (٢٦٨٣) من حديث سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه مرفوعاً : « من أحبَّ لقاء الله أحبَّ اللهُ لقاءه ، ومن كرهَ لقاء الله كرهَ اللهُ لقاءه » .
وما رواه البخاري (٦٥٠٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « وما يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبَّهُ » .
وما رواه ابن ماجه (٤٠١٢) من حديث سيدنا سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال : أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم رجلٌ ، فقال : يا رسول الله ؛ دلَّني علىٰ عمل إذا أنا عملتُهُ أحبَّني الله وأحبَّني الناس ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ازهدْ في الدنيا يحبَّكَ الله ، وازهدْ فيما في أيدي الناس يحبوك » .

وإقامتِهِ لطاعته ، وحبُّ الله لعبده : إقبالُهُ بوجه إحسانه ورحمته إليه ، وإفاضتُهُ سوابغَ نعمِهِ وجودِهِ عليه[1] .

وهٰذا فيه تعطيلٌ لحقيقة الوصف[2] ، والذي حملهم علىٰ ذلك أن الحبَّ في الشاهد عبارةٌ عن ميل القلب ، وهو مستحيلٌ على الله سبحانه ؛ لتعاليه عن الحوادث .

والتحقيقُ : أن الحبَّ ترجع حقيقتُهُ مطلقاً إلىٰ سرٍّ روحاني ، يجمع اللهُ به المتفرِّق ، ويوحِّدُ المتعدِّدَ ، وذلك أن اللهَ نوَّرَ السماواتِ والأرضَ ، فما من شيءٍ من الكائنات إلا وفيه سرٌّ من الواحد قائمٌ به ، كما تقدم تحقيق ذلك في (فصل المعية)[3] .

ومن المعلوم : أن المخلوقاتِ مختلفةٌ من حيث الأسماءُ والصور ، ومرادُ الله منها : ائتلافُها في الرجوع إلىٰ واحد ؛ ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ ﴾ [هود : ١٢٣] ، وإنما تأتلفُ الصور والأسماء المختلفةُ من حيث ذلك السرُّ القائم بها من تجلِّي الواحد[4] ، وليسَتْ كلُّها متساوية ، بل هي متفاوتةٌ علىٰ حسَبِ قابليَّتِها لتجلِّيه .

وقد جعل الله الحبَّ سرّاً يكشفُ حجابَ الاختلافِ بالصورة والاسمِ عمَّا

---

(١) في (ج) : (ووجوده) بدل (وجوده) .

(٢) لم يقل : (فيه تعطيل للوصف) إذ تأويلهم المذكور لا يقتضي التعطيل ، وإنما الحقيقة المشار إليها لم يجزم بها المتكلمون ؛ فلذا اختاروا ما هو أعمُّ وأرحب في المعنىٰ ، وأوفق لقواعد اللغة والبيان العربي ، وعملوا بقياس الغائب على الشاهد نفياً ؛ طلباً للتنزيه ، ولو أنك أتيتهم بهٰذه التأويلات التي اختارها الإمام المصنف . . فما كانوا لينكروها ، غير أنهم قد يسكتون عن ترجيحها .

(٣) انظر (ص ٣٢٣) .

(٤) قوله : (من تجلي الواحد) متعلق بالفعل (تأتلف) .

قامَ بهما من السرِّ المتَّفق ، فيأتلفُ السرُّ مع السرّ بواسطة التعارف .

وفي الحديث : « الأرواحُ جنودٌ مجنَّدةٌ ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكرَ منها اختلفَ »[1] .

فإن حصل الكشفُ من الجانبين حصلَ التحابُبُ من الجانبين ؛ ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ ، وإن حصلَ من أحد الجانبين اختُصَّ بالمحبة ؛ ولهٰذا تجدُ بعضَ الناس يحبُّ مَنْ لا يَظْهَرُ عليه أنه يحبُّهُ ؛ لأن المحبَّ كُشِفَ له عن سرِّ التوحيد المناسبِ له القائمِ بمحبوبه فأَلِفَهُ ، ولم يُكْشفْ لمحبوبِهِ عن السرِّ القائم بمُحبِّهِ[2] .

وجملةُ الأمر : أن لا محبوبَ في الوجود إلا اللهُ[3] .

---

(١) رواه البخاري (٣٣٣٩) من حديث سيدتنا عائشة رضي الله عنها ، ومسلم (٢٦٣٨) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) **وبهٰذا السياق تعلم** : أن الحبَّ الحادث كشفٌ عن سرِّ التوحيد المودع في كلِّ ما سواه تعالىٰ عن طريق التجلِّي ، وأن البغض راجعٌ لستر هـٰذا السرِّ وحجبه ، ولو كُشفَ للزم وجود الحبِّ ، وعند وجود الحبِّ يحصل عرضُ الميل للمحبوب ؛ فليس الميلُ هو الحبَّ .

وليس الشأن أن تعلم ، بل أن ترىٰ وتشهد ؛ فذاك السرُّ الذي يحدِّث عنه القوم **ألطفُ من أن تراه أعينٌ غشَّاها حبُّ الفانيات من حيث فناؤها** ؛ ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية : ٢٣] ، ذاك السرُّ الذي جهدَ أهلُ الكلام رضي الله عنهم في تفهيم بصيصٍ من نوره عند الحديث عن وحدة الأفعال ، وأن لا مؤثِّر في الوجود إلا الله ، وجهدَ أهلُ العرفان في إلعاقِ قُصَّادهم بعضَ دسومة ما أُفيض عليهم عند حديثهم عن التوحيد والتوكل ، والمحبة والإخلاص ، والشوق والأُنس والرضا ، وهيهاتَ هيهات أن تحيط النفوس خُبراً بما يُلوِّحوا به ما لم تتطهَّر من درنِ محبة الدنيا كما تتطهَّرُ للقاء الله في الصلاة في اليوم خمس مرات !

(٣) وهـٰذا المعنىٰ هو ما عناه العارف بالله يحيى بن معاذ الرازي حينما أنشد : (من الرمل)

كـلُّ محبـوب سـوى اللهِ سـرف   وهمـومٌ وغمـومٌ وأسـفْ =

ولقد أحسنَ بعضُهم في التنبيهِ علىٰ ذلك إجمالاً ؛ فقال في محبوبِهِ[1] : [من الكامل]

شيءٌ بهِ تُسبى القلوبُ سوى الذي   يُدعى الجمالَ ولستُ أعلمُ ما هو

وقال بعضُهم[2] : [من الدوبيت الخالص]

البلبـلُ يـا صـاحِ يشـدو بفَنَـنْ   والوُرْقُ تنوحُ يا تُرى العشقُ لمَنْ

والكـونُ جميعُـهُ غـرامٌ وشَجَـنْ   شاباشكَ يا مَنْ هُوَ الكلَّ فتنْ[3]

= كـلُّ محبـوب فمنـهُ خَلَـفٌ   ما خلا الرحمٰنَ ما منه خلفْ

انظر « مصارع العشاق » (٢/ ٤٥) .

إن قلت : فأين محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فالجواب : ما قاله الإمام الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٨/ ٣٨٧) : (حب الرسول صلى الله عليه وسلم محمودٌ ؛ لأنه عينُ حبِّ الله تعالىٰ ، وكذا حبُّ العلماء والأتقياء ؛ **لأن محبوبَ المحبوبِ محبوبٌ** ، ورسولَ المحبوب محبوب ، ومحبَّ المحبوب محبوب ، وكلُّ ذلك يرجع إلىٰ حبِّ الأصل ، فلا يجاوزُهُ إلىٰ غيره ، **فلا محبوبَ بالحقيقة عند ذوي البصائر إلا الله تعالىٰ ، ولا مستحقَّ للمحبة سواه**) ، وانظر حكاية في ذلك (ص ٣٣٧) .

(١) البيت في « ديوان الصبابة » (ص ٣٩) من غير نسبة .

(٢) **معنىٰ هـٰذا الدوبيت** : البلابل تغرِّدُ على الغصون ، والحمائم تهدل وتقول : إن الحبَّ قد فاض في قلوبنا الصغيرة ، غير أننا نعشق ونحب ولا أحد يدري من هو محبوبنا الذي نصدح له ، بل إن الكون كلَّه طافحٌ بالعشق والتعلُّق بالمحبوب ، دام مجدُك يا من جماله أسرَ كلَّ ما سواه .

وهـٰذا الدوبيت شبيهٌ بما رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٣٧٣) عن الإمام الشبلي إذ قال : (من الرمل)

صـحَّ عنـد النـاسِ أنِّـي عـاشـقٌ   غيرَ أن لم يعلموا عشقي لمَنْ

(٣) كذا في نسخ الاستئناس ، وفي غيرها : (يا من الكل فتن) بإسقاط (هو) ، وقوله : (شاباشك) اضطرب رسمها في النسخ ، وفي هامش (أ) : (شاباش) وهي كلمة فارسية معناها : مرحىٰ ، أو أحسنت ، وهي مخففة من كلمة (شادباش) ومعناها : (كن مسروراً) ، ولعل المعنىٰ هنا يرجع للثناء على الله سبحانه ، قريب من قولك : دام مجدك .

فقد ظهرَ أن الحبَّ سرٌّ يكشف حجابَ الحوادث عن أسرارِ التوحيد ، فيجتمع متفرِّقُها ، ويتَّحد عددُها ، ومن توهَّمَ أنه الميلُ أو الإرادة ، أو بعضُ الآثار الحادثة التي يجدُها المحبُّ . . فليس علىٰ حقيقةٍ من أمره ، وإنما التبسَ عليه الأعراضُ المنفعلةُ عن الحبِّ بالحب .

واعلمْ : أنه لا يطلقُ على العبد أنه يحبُّ الله إلا إذا كُشِفَ له عن أسرار التوحيد مجرَّداً عن الحوادث فأحبَّهُ[1] ، وأما إذا أحبَّ السرَّ متوهِّماً أنه أحبَّ مظهرَهُ من الحوادث . . فلا ، وبهـٰذا حصل الالتباسُ في حقيقة الحبِّ ، وفي إطلاقِهِ علىٰ غيرِ الله ، وفي صحَّة إطلاقِهِ عليه[2] .

تنبيه

[علىٰ معنىٰ صدق حبِّ العبد لمولاه]

قولُنا : (لا يصدقُ حبُّ الله إلا بالكشفِ عن سرِّ التوحيد مجرَّداً عن الحوادث) مجملٌ له تفصيلٌ ؛ وهو أن كشفَ تجريدِهِ تارةً يكون عِياناً ، وتارةً يكون إيماناً .

فالعِيانُ : كحال إبراهيمَ عليه السلام حيث توجَّهَ إليه في الكوكب ، ثم في القمر ، ثم في الشمس ، ثم توجَّهَ إليه مجرَّداً فقال : ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ . . . ﴾ الآيةَ [الأنعام : ٧٩] .

ونبَّهَ علىٰ تجريد حبِّهِ عن الحادث بقوله : ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٦] .

---

(١) سيأتي في التنبيه الآتي بيان معنىٰ هـٰذا التجريد .

(٢) قال الأستاذ القشيري في « رسالته » (ص ٦٤٩) : (المحبة حالةٌ شريفة شهدَ الحقُّ سبحانه بها للعبد ، وأخبر عن محبَّتِهِ للعبد ، فالحقُّ سبحانه يُوصفُ بأنه يحب العبد ، والعبدُ يُوصفُ بأنه يحب الحق) .

والإيمانُ : كحال من أخبرهُ الصادق : (إن السرّ في هـٰذا المظهر) ، فنشأ له بنور التصديق والإيمان به حبٌّ كشف له عن ذلك السرِّ كشفاً إيمانياً .

ومنه قولهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ، فنبَّهَ علىٰ أن سرَّ التوحيد المأذونِ في محبَّتِهِ له مظهرٌ[1] ؛ وهو ظُلَّةُ غمام شريعتِهِ[2] ، واتِّباعُهُ فيها يستلزمُ اتصافَهم بها ، وهو بمثابة تعرُّض المحبِّ للمواطن التي يظهرُ له فيها محبوبُهُ ، ومن شأن المتعرِّضِ لمواطن الحبيب : أن يراقبَ وجهَ محبوبه عند تجلِّيه فيها ، فلهـٰذا أُمِرَ العبدُ بالمراقبة في قوله صلى الله عليه وسلم : « الإحسانُ أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّكَ تراهُ ، فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنَّهُ يراكَ »[3] .

تبصرة

[في تأكيد أن سرَّ التوحيد الجامع هو مظهرُ سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام]

ومن هـٰذا قولهُ تعالىٰ : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء : ٨٠] ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ [الفتح : ١٠] ، ونحوُهُ من الآيات التي تتضمَّنُ الإخبار للعباد أن سرَّ التوحيد الجامع مظهرُهُ محمد صلى الله عليه وسلم ، فمن أحبَّهُ فقد أحبَّ الله .

فمن الأَتْباع من كُشفَ له عن تجرُّدِ ذلك السرِّ عياناً ؛ كحال أبي بكر رضي الله عنه في قوله بعد موته : (من كان يعبدُ محمداً فإن محمداً قد ماتَ ،

---

(١) وبهـٰذا السياق تعلم : أن من المظاهر ما لم يأذن المصوِّرُ سبحانه بحبِّها ، بل لم يأذن بالنظر إليها أو التعلق بها ، وعلم أنها تناديه من باطنها : لا تنظر إليَّ .

(٢) تقدم الحديث عن ذلك (ص ١٤٤) .

(٣) تقدم تخريجه (ص ١٧٩) .

ومن كان يعبدُ اللهَ فإن الله حيٌّ لا يموتُ)[1] .

ولشهود ذلك السر كان يسجد له : الحجر والبعير ، ويسعىٰ إليه الشجر .

ومن الأتباع من حُجبَ عن تجرُّده ، حتىٰ أخبرَ به في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ ... ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [النساء : ٦٤] .

ويُحكىٰ عن بعض الشيوخ أنه رآهُ صلى الله عليه وسلم في نومه[2] ، فقال له : اعذرني يا رسولَ الله ؛ فإن محبَّةَ الله شغلتني عن محبَّتِكَ ، فقال له : ويحكَ ! يا مباركُ ؛ من أحبَّني فقد أحبَّ الله ، ومن أحبَّ الله فقد أحبَّني[3] .

تحقيق

[في أسرار : « ولا يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتىٰ أحبَّهُ »]

قولُهُ تعالىٰ : « ولا يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتىٰ أحبَّهُ ، فإذا أحببتُهُ . . . » الحديثَ[4] ، **فيه أسرارٌ** :

منها : **التنبيهُ علىٰ أن الحبَّ سرٌّ يجمعُ المتفرِّق ، ويوحِّدُ المتعدِّد** : كما ذكرناه ، ومن كلام المحقِّقين : الحبيبُ أنتَ ، إلا أنَّكَ غيرُه !

ومنها : **التنبيهُ علىٰ أن العبدَ يكون تارةً محبّاً متقرِّباً ، وتارةً يكون محبوباً** : وترجعُ حقيقة التقسيم إلىٰ شهود العبد وحظِّهِ من تجلِّي قولِهِ تعالىٰ[5] : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ [السجدة : ٥] .

---

(١) رواه البخاري (٣٦٦٨) .

(٢) الرائي له عليه الصلاة والسلام : هو العارفُ بالله أبو سعيد الخراز .

(٣) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٦٦٢) .

(٤) تقدم تخريجه (ص ١٢١) .

(٥) في (ج) : (إلىٰ شهودِ العبدِ حظَّهُ . . .) .

فإن شهدَ ما منه إلى الله فقد شهدَ رجوعَ الأمر بسرِّ التوحيد منه إلى الله ، فهو محبٌّ ، وعلامتُهُ : دوامُ ذكره وتوجُّهِهِ بالتقرُّب بالنوافل ، وغلبةُ الشوق والقلق والهيمان ونحوِهِ .

وإن شهدَ ما من الله إليه فقد شهدَ بدءَ الأمر من الله ، وتنزُّلَهُ بروح التوحيد إليه ، فهو محبوبٌ ، وعلامتُهُ : السكونُ والاستسلام ، ودوامُ المراقبة .

ومنها : التنبيهُ على أن المحبوبَ قسمانِ : قسمٌ يفنىٰ بمحبوبه ، وقسمٌ يبقىٰ به .

فنبَّهَ علىٰ حال الأوَّلِ بقوله : « كنتُ سمعَهُ » ، ونبَّهَ علىٰ حال الثاني بقوله : « الذي يسمعُ بهِ » ، ونبَّهَ بهما علىٰ أنه لا بقاءَ إلا بعد فناء ، ومنه قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال : ١٧] ، فنبَّهَ على الفناء بقوله : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ ﴾ ، وعلى البقاء بقولِهِ : ﴿ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ ، وعلىٰ تحقُّقِ المحبِّ بالحبيب بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ .

رقيقة

[في كسوة الصفات]

ومن ذلك قولُهُ تعالىٰ : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا . . . ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء : ١] لمحمد صلى الله عليه وسلم ، والسميعُ البصير هو الحبيبُ .

رأَتْ قمرَ السماءِ فأذكرَتْني ليالِيَ وصلِنا بالرقمتينِ
كلانا ناظرٌ قمراً ولكنْ رأيتُ بعينِها ورأَتْ بعيني [(١)]

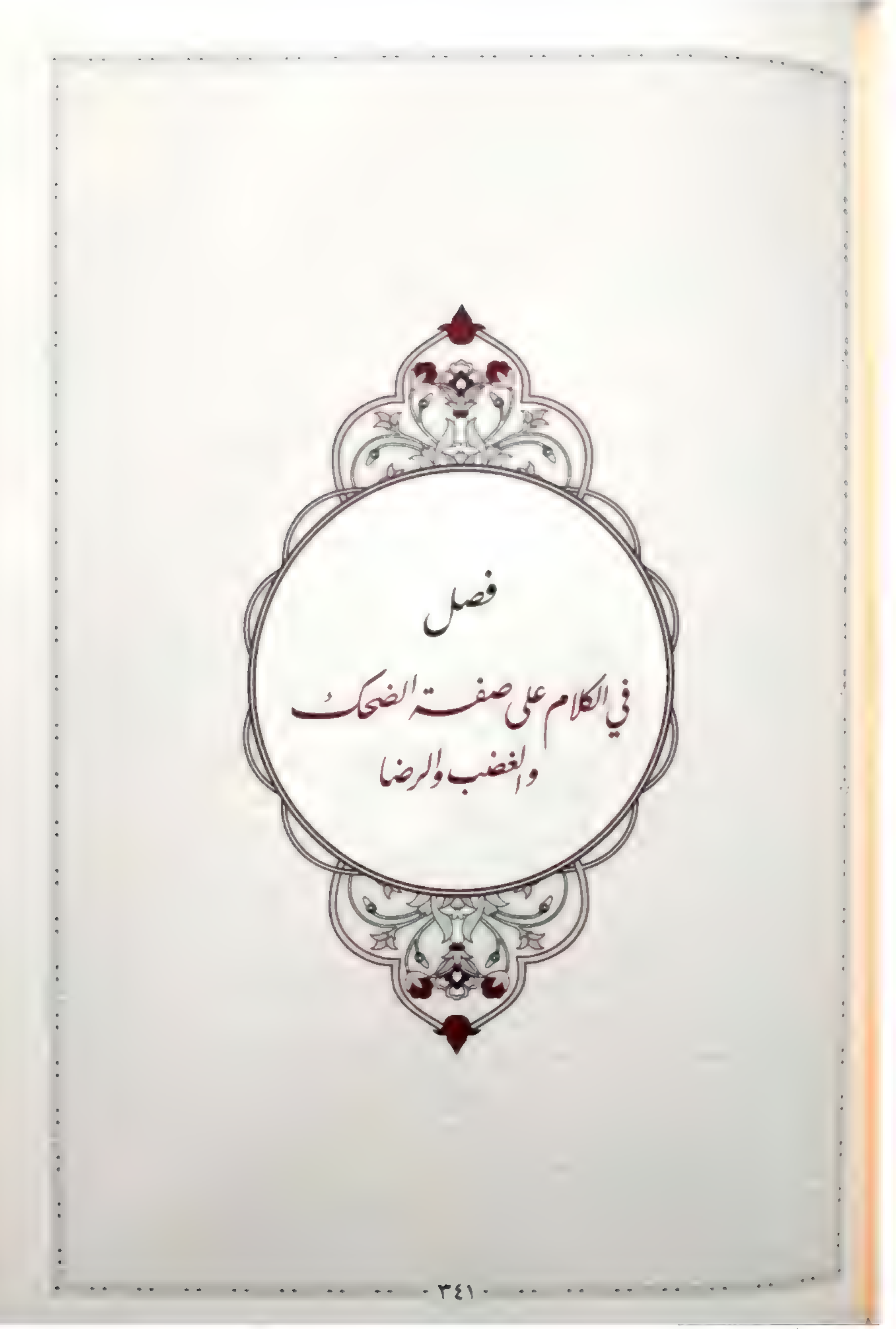
---

(١) البيتان من الوافر ، ونسبهما ابن أبي حجلة في « ديوان الصبابة » (ص ٢٣٠) لابن المستوفي الإربلي .

وإنما يتَّضحُ قصدُ الشاعر بتخريجهِ على ما نحن فيه ؛ وهو أنه يشيرُ إلىٰ أن قمر السماء من عشَّاق محبوبتِهِ ، وأن محبوبته رأتْهُ ذات ليلة ، فكسَتْهُ برؤيتها له نورَ جمالها ومحاسنَ صفاتها ، وألقَتْ عليه شَبَهَها ، وأعارتْهُ اسمها ، فأذكرَتْ هـٰذا العاشقَ بتلك الليالي التي وصلته بالرقمتينِ ؛ فإنها بوصلها له أفنَتْهُ عن صفاته ، وغلبَتْ عليه بصفاتها ، حتىٰ صارَتْ معه كالقمر الواحد ، وكلاهما ينظرُهُ ؛ ولهـٰذا قال : (كلانا ناظرٌ قمراً) أي : قمراً واحداً تعدَّدَ مظهَرُهُ ، لـٰكنها تنظرُهُ بعينه وهي عين المحبة ؛ لأن المحبَّ صار محبوباً ، وهو ينظرُ بعينها ؛ لأنها أعارَتْهُ عيناً رآها بها ، فكان البصرُ لها نفسِها .

* * *





فصل

في الكلام على صفة الضحك والغضب والرضا



فصل

في الكلام على صفة الضحك والغضب والرضا

ومن المتشابه : صفةُ الضحك والغضبِ والرضا :

وقد وردَ الغضبُ والرضا في الكتاب والسنة[1] ، وورد الضحكُ في السنة في أحاديث[2] .

وقد اختلفَ أهل الحقائق في معنى الرضا في الشاهد ، وهل هو حالٌ أو مقام[3] ،

---

(١) فمن الكتاب العزيز : قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ [المائدة : ٦٠] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح : ١٨] .
ومن السنة الشريفة : ما رواه مسلم (١٧٩٣) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « اشتدَّ غضبُ الله علىٰ قوم فعلوا هـٰذا برسول الله صلى الله عليه وسلم » ، وهو حينئذ يشير إلىٰ رَباعيته ، وما رواه البخاري (٦٤٧٨) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « إن العبد ليتكلَّمُ بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً ، يرفعه الله بها درجات ، وإن العبد ليتكلَّمُ بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً ، يهوي بها في جهنم » .

(٢) من ذلك : ما رواه البخاري (٨٠٦) ، ومسلم (١٨٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً في خبرِ آخر من يدخل الجنة ، وفيه : « ويلكَ يا بنَ آدمَ ما أغدرك ! فيقول : أي ربِّ ؛ لا أكونُ أشقىٰ خلقك ، فلا يزالُ يدعو الله حتىٰ يضحكَ اللهُ تبارك وتعالىٰ منه ، فإذا ضحك اللهُ منه قال : ادخلِ الجنة » .

(٣) قال الإمام القشيري في « رسالته » (ص ٤٥٣) : (وقد اختلف العراقيون والخراسانيون في الرضا : هل هو من الأحوال ، أو من المقامات ؟
فأهل خراسان قالوا : الرضا من جملة المقامات ؛ وهو نهايةُ التوكل ، ومعناه يؤول إلىٰ أنه ممَّا يتوصَّلُ إليه العبد باكتسابه .
وأما العراقيون : فإنهم قالوا : الرضا من جملة الأحوال ، وليس ذلك كسباً للعبد ، بل هو =

وأيّاً ما كان فهو من مقولةِ الكيف الحادثة[١] ، وهو مستحيلٌ على الله سبحانه .

والضحكُ في الشاهد معروف ، وامتناعُهُ على الله بالنسبة لذاته ضروريٌّ[٢] ؛ فلذلك كان من المتشابهِ ، ورجوعُهُ للمحكم بما قدّمناهُ في الصورة[٣] ، فيكونُ ظهور الضحكِ في الصورة التي يتجلّىٰ فيها ربُّنا علىٰ عبدِهِ ، ولا اشتباهَ في ذلك ؛ فإن أصلَ الضحك عند الحكماءِ ينشأُ من إقبال القلب إلىٰ جهةِ الصدر ، فينفعلُ لإقباله البدنُ بالكيفيّةِ التي تُسمّىٰ ضحكاً .

والفاعلُ في الحقيقة في ذلك كلِّهِ هو الله ، فلا إشكالَ أنه إذا أقبلَ بروح توحيدِهِ علىٰ عبده في الصورة المتشكِّلةِ من عملِهِ ؛ أنه يُظْهِرُ علىٰ تلك الصورة بإقباله هيئةَ الضحك المناسبة للضحك المعتاد بإقبالِ القلب ، ويُنسبُ ذلك الضحكُ إليه كنسبة الصورة والوجهِ إليه بالمعنى الذي قدَّمناهُ[٤] ، ويتضاعفُ بذلك نعيمُ الرؤية للمؤمن ، وإفاضة جوائزِ الكرم عليه .

وقد ثبتَ أنه تعالىٰ يلقى المؤمنَ إذا مات برَوْحٍ وريحان وربٍّ غيرِ غضبانَ[٥] ، فانظرْ كيف جعلَ مظهرَ لقائه له الروحَ ، وفي الروح يظهرُ لذلك

= نازلةٌ تحلُّ بالقلب كسائر الأحوال .
ويمكن الجمعُ بين اللسانين فيقال : بدايةُ الرضا مكتسبةٌ للعبد ، وهي من المقامات ، ونهايتُهُ من جملة الأحوال ، وليست بمكتسبة) .

(١) يعني : من المقولات العشرة المعروفة ، ويمكن تصوره من مقولة الانفعال أيضاً ، وإن شئت قلت : هو من جملة الأعراض ، وهو سبحانه منزَّهٌ عن الاتصاف بها .

(٢) لملازمته للتغيُّر ، ولاحتياجه إلىٰ أبعاضٍ في الحادث .

(٣) انظر (ص ١٤٤) .

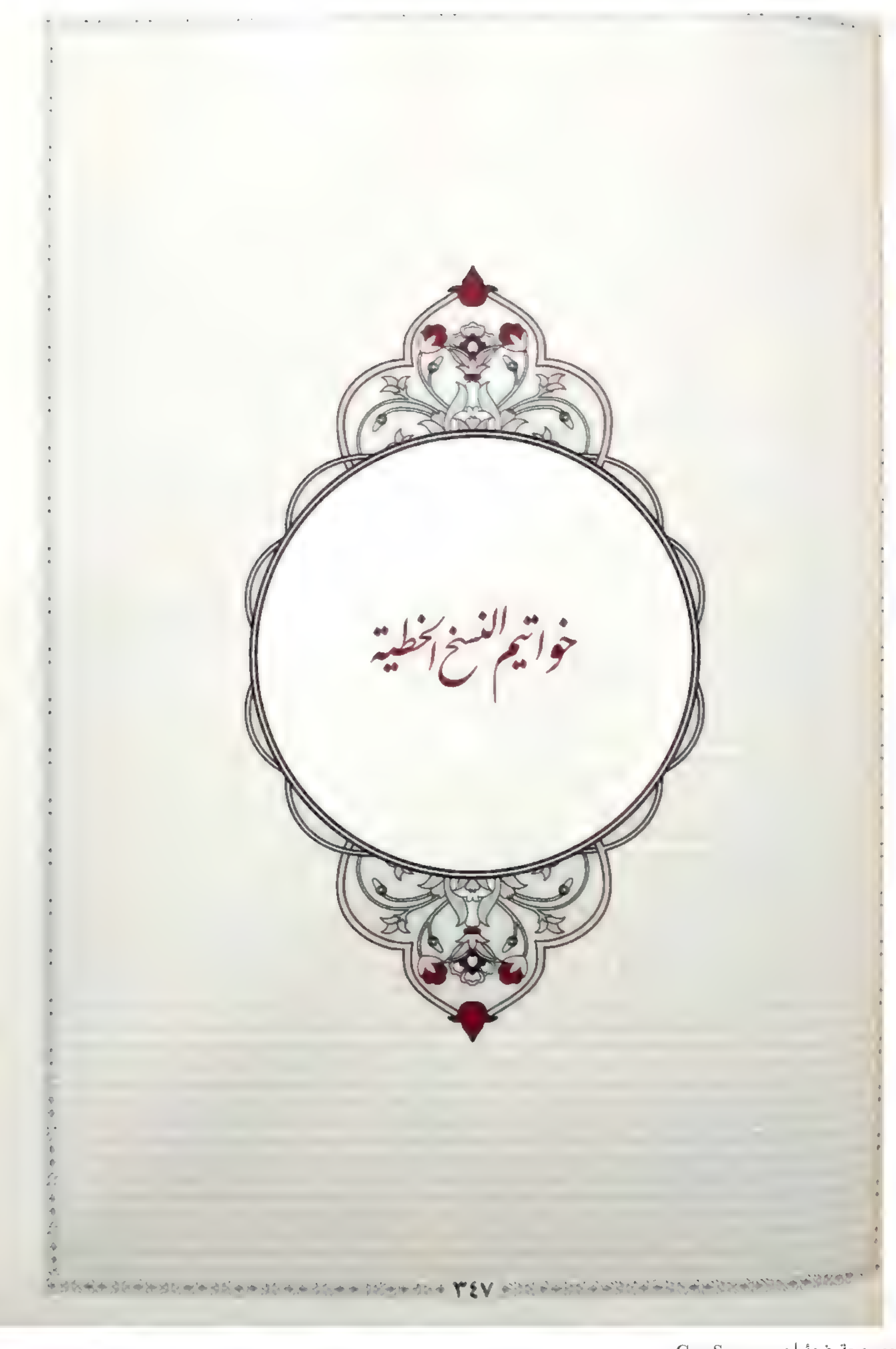
(٤) انظر (ص ١٦ ، ١٤٤) .

(٥) روى النسائي (٤/ ٨) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « إذا حُضِرَ المؤمنُ أتته ملائكةُ الرحمة بحريرة بيضاءَ ، فيقولون : اخرجي راضيةً مرضياً عنكِ إلىٰ روح الله وريحان ، وربٍّ غير غضبان ، فتخرج كأطيب ريحِ المسك . . . » الحديث .

العبدِ رضاه وضحكُهُ وعدمُ غضبه ، وحقّقْ بقوله : « وربٍّ غيرِ غضبانَ » أن الروحَ مظهرُ الربوبيّة ، وأن العبدَ بلقاء الروحِ يلاقي ربَّهُ ، ولولا ذلك لأشكلَ علىٰ قواعد العربية ؛ لأنه عطفَ الربَّ على الروح ، وشرَّكَ بينهما في تعدِّي الفعل إليه بالباء علىٰ وجْهِ تعدِّيه للمفعول ، وذلك ينافي كونَ الربِّ فاعلاً للقاء ، وإذا أنت خرَّجْتَهُ على المعنى الذي ذكرناه . . لم يبقَ فيه إشكالٌ .

* * *





خواتيم النسخ الخطية



خاتمة النسخة (أ)

تمَّتِ الرسالة المباركة بحمد الله ومنِّهِ وتوفيقه .

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والتسليم على خير خلقه محمد خاتم النبيين ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، ورضي الله عن الصحابة أجمعين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وكان الفراغ من نسخه بالمدينة الشريفة النبوية ، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، بدار أبي أيوب الأنصاري المعروفة بمبرك الناقة ، في يوم الأربعاء ، ثالث عشر شهر جمادى الأولى ، سنة سبع وستين وثمان مئة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

خاتمة النسخة (ب)

والله تعالى أعلم ، وأجلُّ وأكرم ، وأعطف وأرحم .

تمَّ بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ، في يوم السبت المبارك ، ثامن عشر جمادى الآخرة ، سنة (. . .) عشرة وتسع مئة ، من كتابة الفقير إبراهيم بن محمد بن إسماعيل المجولي[1] .

---

(١) وعلى الورقة الأولى زيادة لقب : الرفاعي .

خاتمة النسخة (ج)

تمت .

وكان الفراغ من نساخته ضحوةَ يوم الأحد ، الرابع والعشرون من شهر رمضان الذي هو أحد شهور سنة (٩٨٩) من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، والحمد لله رب العالمين(١) .

* * *

(١) وفي هامش هذه الخاتمة : (بلغ مقابلة بحسب ما أمكن ، على أمِّ نسخت منها الموجودة ، وقوبلت عليها ، وصحَّت إن شاء الله تعالى) .

رسالة في سؤال وجواب حول أخذ العهد والاستنابة على طريقة السادة الصوفية

تأليف

شيخ الإسلام

الإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد المؤمن الإسعردي الشافعي المعروف بـ (ابن اللبان)

رحمه الله تعالى

(٦٧٩-٧٤٩هـ)



بسم الله الرحمن الرحيم

ما يقولُ السادة العلماءُ رضي الله عنهم وأرضاهم : عمَّا يفعلُهُ بعضُ الفقراءِ المنتسبين إلىٰ بعض الشيوخ[1] ؛ مِنْ أخْذِ العهد علىٰ بعض المريدين[2] ؛ ممَّنْ

---

(١) قول السائل : (الفقراء) صار علماً بالغلبة على السادة الصوفية أهل العلم والعمل ، وأصل هذه التسمية يرجع لتحقُّقهم بالعبودية للمولىٰ سبحانه ؛ إذ قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر : ١٥] ، والصورة المتحدَّثُ عنها : أن بعض الفقراء من الصوفية يحثُّ بعض الناس علىٰ أخذ العهد منه مباشرة ، دون الرجوع إلى الشيخ الأصيل المربِّي ، ودون إذنٍ منه كما يظهر من السياق ، والله أعلم .

(٢) العهد عند الصوفية : التزامُ عقدٍ معنويٍّ اتفاقي ، بين الشيخ المربِّي الكامل ومريدِ التحقُّق بالسنة وآدابها وأحوالها ، يلتزم فيه المريد اتِّباع ما يأمره به الشيخ ؛ ليخرجه من ظلمات الطبع والعادة ، ويزجَّ به في أنوار الشريعة ، ويحقِّقَهُ بالمعارف الكمالية .

فقولنا : (اتفاقي) يفهم منه : أن ما يتفرَّعُ عنه من طاعة الشيخ نشأ عن اتفاق ، لا لكون الشيخ واجب الطاعة في ذاته .

وقولنا : (الكامل) خرج به : كلُّ من لا كمالَ له ممَّا يفوِّت أهليَّة التربية والتسليك ؛ فلا يجوز الأخذ عمَّن فسد اعتقاده ، أو رقَّ دينه ؛ فعُرف بسوء الخلق ، أو انتعال زيِّ المشيخة لتحقيق مآرب ، بل هذا حقُّهُ أن يتوب ويبحث عمَّن يخرجه من أخلاقه السوء .

وقولنا : (ومريد التحقق بالسنة وآدابها وأحوالها) فهذا صاحب مطالبَ شريفة عالية ؛ إذ هذا التحقُّق إن حصل فهو الكمال الإمكانيُّ لكلِّ مكلَّف ، وهو سببُ السعادة التي لا مطمعَ فوقها ، والحقُّ : أن الشيخ مذكِّرٌ ومنبِّه لعهد الله تعالىٰ وعهد رسوله صلى الله عليه وسلم ، وإنما الذكرىٰ تنفع المؤمنين .

وقولنا : (يلتزم فيه المريد) هو التزامٌ وضعي ، أقرَّتْهُ أصول الشريعة ، واستحبَّهُ أهل العلم .

وقولنا : (الطبع والعادة) إذ غيرهما من أدواء الذنوب يجب التوبة منها بإجماع العلماء ، ولا تحتاج إلىٰ وجود شيخ تربية ، وإن كان مثله أعون على الفطام عنها من غيره .

وقولنا : (ويزجَّ به في أنوار الشريعة) فيحلِّي أعضاءه بالطاعات ، ويفطمه عن العجز والكسل والتواكل .

وقولنا : (ويحقِّقَهُ بالمعارف الكمالية) فينقِّي عن فؤاده شوائبَ الظنون والشكوك والأوهام ، ويؤهِّله لخواطر الحق ، ثم يكلُ أمرَهُ إلى الله تعالىٰ ، نعْمَ المولىٰ ونعْمَ الربُّ سبحانه .

ولهذا العهد شروط : منها ما يكون قبله ؛ كصدق المريد في استيفاء مطلبه ، وكمال الشيخ المربِّي اعتقاداً وعبادةً وحالاً ، ومنها ما يكون بعده ؛ كالالتزام بأوامر الشيخ ، وترك الاعتراض عليه ، والتوبة مع كل غفلة .

يريد ربطَهُ بالنسبة إليه ، واستنابتَهُ إليه[1] ، والالتزامَ به ؛ بالاقتداءِ به وبشيخه ، وإلباسه الخِرْقة : هل هذا ممَّا يحمدُ فاعلَهُ ، ويُنسبُ إلى الأخذ بالنسبة فيه أم لا ؟[2] .

فأجابَ سيدي الشيخ الإمامُ القطب العارف ؛ سيدي شمسُ الدين أبو عبد الله محمدُ بن اللَّبَّان :

أحمدُ اللهَ ، وأسألُهُ التوفيق .

الفقير الصادق : [مَنْ] لا يرىٰ لنفسِهِ عهداً[3] ، ولا تراهُ في حركاته وسكناته إلا عبداً ، لا يسبقُ معبودَهُ بقولٍ ، ولا يتقدَّم أمرَهُ بفعلٍ[4] .

قد فهمَ سرَّ النهْيِ عن النذر كونه لآيات يُحير[5] ، وتأدَّب بالتأديبِ المحمدي : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۞ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الكهف : ٢٣ ـ ٢٤] .

وأكرمَهُ ربُّهُ بصدق العبودية في شهودِ الربوبية ؛ فلم يسبقْهُ بقول ، وعلم أن فعلَهُ مخلوق لغيره ، فلم يتعرَّض للمقْت ؛ بأن يقول ما لا يفعل[6] .

واللائقُ بالداعي إلى الله سبحانه وتعالىٰ : أن يستعينَ بلسان حالِهِ عن قالِهِ ،

---

(١) الاستنابة : الرجوع ؛ قال تعالىٰ : ﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [الزمر : ٥٤] أي : ارجعوا إليه بالتوبة والإخلاص ، والمعنىٰ : جعله نائباً عنه .

(٢) من خير ما أُلِّف في هذا الموضوع ، مسبوكاً بلغة العلم والفقه : كتاب « عدة المريد الصادق » للعلامة ابن زروق المالكي رحمه الله تعالىٰ .

(٣) في الأصل : (ما) بدل (من) .

(٤) هاتان الجملتان من صفات الملائكة الكرام ؛ قال سبحانه : ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٧] .

(٥) كذا العبارة في الأصل ، وهي قلقة تحتاج إلىٰ تأمل .

(٦) فخالق الأفعال وموجدها : هو الله سبحانه ؛ قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد : ١٦] ، وتأمل في اسميه سبحانه الواحد والقهار في سياق هذه الآية الكريمة ، وقال جلَّ وعزَّ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۞ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : ٢ ـ ٣] .

وبالسِّحْرِ الحلال من لَحْظِهِ عن لفظه[1] ؛ ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

فأسلمَ صلى الله عليه وسلم أتباعه إليه ، ولم يكلْهم إلىٰ نفسه .

وحسْبُ المريد عهدُ الله وعهدُ رسوله ، **ولا بأسَ بتذكير الشيخ له به** ؛ فإن الذكرىٰ تنفع المؤمنين ، وهو وإن كان إليه نسبةٌ إيمانية ؛ فتحَ الله قلبه علىٰ يديه ، وجمعَ تفرُّقَهُ إليه ، **والنسبةُ لا تصحُّ بالالتزام** ، إنما هي بروابطَ إيمانيةٍ ، وأسرارٍ عرفانيةٍ ، أُحكِمَتْ آياته [بالتوحيد][2] ، ثم فُصِّلَتْ بأنوار الدعوة المحمدية ، وأُرسلَتْ علىٰ أراضي القلوب ؛ **مفاتيحُ الأنوار الرشُّ**[3] ؛ فكان منها أرضٌ طيبةٌ قبلت وأنبتت ، وأرضٌ أمسكت ، فسقى الناس واستقوا[4] ، قد علم كلُّ أناسٍ مشربهم ، وحقَّقَ الله له باتصاله يومَ القيامة نسبَهم ، ولعنَ من انتسبَ إلىٰ غير أبيه وهو يعلمُ[5] ، واستعاذ الصِّدِّيقُ أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده[6] .

---

(١) هذه سبيلٌ شاذلية ؛ فقد قال العارف بالله تعالى ابن عطاء الله الإسكندري في « تاج العروس » (ص ٧٨) : (ليس الرجل من يُربيك لفظُهُ ، إنما الرجلُ من يُربِّيك لحظُهُ ؛ عن الشيخ أبي العباس المرسي رضي الله عنه أنه قال : إذا كانت السلحفاة تُربي فراخَها بالنظر . كذلك الشيخ يربِّي مريده بالنظر ؛ لأن السلحفاة تبيض في البرِّ ، وتتوجَّهُ إلىٰ جانب النهر ، وتنظر إلىٰ بيضها ، فيربِّيهم الله تعالىٰ لها بنظرها إليهم) .

(٢) في الأصل : (التوحيد) بدل (بالتوحيد) .

(٣) روى الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (١٥٥٥) عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الله تعالىٰ خلق الخلق في ظلمة ، ثم رَشَّ عليهم من نوره ؛ فمَنْ أصابه من ذلك النور اهتدىٰ ، ومن أخطأه ضلَّ » .

(٤) إشارة للحديث الذي أخرجه البخاري (٧٩) ، ومسلم (٢٢٨٢) من طريق سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(٥) روى مسلم (١٣٧٠) من حديث سيدنا علي رضي الله عنه مرفوعاً : « ومن ادَّعىٰ إلىٰ غير أبيه ، أو انتمىٰ إلىٰ غير مواليه . . فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً » .

(٦) الصديق : هو سيدنا يوسف علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام ؛ وذاك فيما حكى المولىٰ عنه : =

فاللائقُ [بالداعي] إلى الله سبحانه وتعالىٰ[1] : أن يذكُر [تذكرةً] عامة[2] :

فإن كان لبصيرته نفوذٌ : أخذَ أصحابه من الغيب[3] ، وتعرَّفَ إليهم تعرفاً روحانياً تحيا بواطنُهم بأسراره ، وتتجمَّلُ ظواهرهم بأنواره .

وإن لم يكن له نفوذٌ : اعتمد في أصحابه علىٰ ما يلقيهِ الله سبحانه وتعالىٰ من محبَّتِهِ في قلوبهم[4] ، ويظهرُ من بركات دعوته علىٰ هياكلِهم .

ولا يعتمد ما يعتمدُهُ أرباب الدكاكين ؛ الذين اتخذوا ذلك معيشةً ، ويحدِّدون عليه بآكدِ العنادِ والشقاق ، وظهور علامات النفاق[5] ، ويعرِّضونه [للعنةِ] الله ورسوله[6] ؛ بالانتساب إلىٰ غير أبيه ، والانتماء إلىٰ غير مواليه ، ويكسونه وهو من البركة عُرْيان[7] ، ويؤسِّسون بنيانَهُ وهو علىٰ غير تقوىٰ من الله ورضوان ، ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحشر : ١٤] .

وحسبنا الله ونعم الوكيل

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما كثيرا

= ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ [يوسف : ٧٩] .

(١) في الأصل : (والداعي) بدل (بالداعي) .

(٢) في الأصل : (بذكره) بدل (تذكرة) .

(٣) جاء عند الحافظ الفقيه الإمام ابن الملقن في « طبقات الأولياء » (ص ٤٧٩) في ترجمة العارف بالله تعالىٰ ياقوت العرشي : (واستأذن الإمام العارف بالله أبا الحسن الشاذلي في الاقتداء به ، ففكَّرَ وقال : وجدت اسمك في أصحاب أصحابي ؛ أبي العباس المرسي ؛ في الطبقة الثانية) .

(٤) فهذه المحبة مدعاة للطاعة ، فيتفرَّس الشيخ في وجوههم ؛ فمن وجده مائلاً إليه ، وعنوان المحبة عليه . . رضي منه بأخذ العهد ، وللمؤلف في تفسير المحبة مقالة ونظر . انظر (ص ٣٣١) .

(٥) يعني : يحدِّدون على المريد حدوداً إن جاوزها وصفوه بهذه الأوصاف الشنيعة .

(٦) في الأصل : (لعنة) بدل (للعنة) .

(٧) هذا إن أطاعهم ، وأظهر عليه فضلهم .